

١٩١٣

مكتبة نوبل

رابندرانات طاغور روائع في المسرح والشعر

ترجمة

د. بدیع حقی



Author: Rabindranath Tagore

Title: Masterpieces of Drama and Poetry

Translator: Dr. Badi Haqi

Al- Mada P.C.

First Edition : 1998

Second Edition : 2010

Copyright © Al-Mada

المؤلف : رابندرانات طاغور

عنوان الكتاب : روائع في المسرح والشعر

الترجم : د. بديع حقي

الناشر : المدى

طبعة الاولى : ١٩٩٨

طبعة الثانية : ٢٠١٠

الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب. : ٨٢٧٢ او ٧٢٦٦ - تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com

E-mail: al-madahouse@net.sy

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول - تلفاكس : ٧٥٢٦١٧ - ٧٥٢٦١٦

E-mail: al-madahouse@idm.net.lb

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail: almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدمات .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

شاعر الهند

رابندرانات طاغور

مائة عام تمضي على مولد الشاعر الهندي (رابندرانات طاغور) ويحتفل العالم كله بذكرى الشاعر العظيم .

أفما خالستك النظر ، من قبل ، قصيدةً له منشورةً في مجلة أو ديوان ؟
بلى . وإنك لتذكر معنىً نادراً إنسانياً عميق الغور قد نغش له فؤادك
ورقت له نفسك ، وتذكر أنك أعجبت بطاغور ، وظللت ، بعد هذا ، تلوب على
قصائده وكلماته ، لتلهج بها وتوسدّها شغاف قلبك .

فإذا التمست عينك صورةً (طاغور) ، مطالاً عليك بطلعته المهيبة ، فإن في
ميسور نظراتك أن تستشف وهي راکعة أمام خطوطها ، كلّ ما يزخر به قلب
هذا الإنسان الشاعر من محبة وطيبة وحكمة .

وإنك لتراعي جمته ، تنزلق من قمة رأسه الى قذاله وتنثال على كتفيه ،
وحفةً بيضاء ، كأنها حزمة من الأشعة طريةً ، ثم تلتقي بسبال لحيته وشاربيه
وتحيط بوجهه الأسمر ، كأطار من غيوم ، لتعانقه ، لتحبو عليه ، لتستمد منه
صفاءً جديداً ترفد به بياضها .

أما عيناه السوداوان الغائمتان بالحنان والرافة فتبدوان في بهرة هذا البياض

اللّجّي ، نبعي نورِ فيضان أغانيّ ومعانيّ ، تترفّقُ منسابةً الى قرارة نفسك ،
لتهب لك طمأنينةً سابغةً قريرة .

هذا هو الشعور الذي يخالجك ، إن اتفق لك أن تجيل طرفك في صورة
(طاغور) ، فكيف كنت تشعر لو أن الحظ أسعدك فاجتمعت إليه ؟ لعلك كنت
تردد ما أورده الكاتب الفرنسي (رومان رولان) الذي جلا لقاءه بالشاعر الهندي
بهذه الكلمات :

« حين تقترب من (طاغور) ، يناسم نفسك شعوراً أنك في معبد ، فتتكلم
بصوتٍ خفيضٍ ، وإن أتيح لك ، بعد هذا ، أن تتملّى قسماً وجهه الدقيقةً
الأبيّة ، فإنك واجدٌ خلف موسيقا خطوطها وطمأنينتها ، الأحزان التي هيمن
عليها ، والنظرات التي لم يداخلها الوهمُ ، والذكاء الجريء الذي يواجه صراعَ
الحياة في ثبات » .

في ٦ مايس عام ١٨٦١ ، في قصر (جوروسنكو) الشامخ القائم في مدينة
(كلكتا) رزق المهارش^(١) (دافدرانات طاغور) سليل أسرة هندية عريقة في
النبل وشرف التجار - رزق صبيّاً هو أصغر اخوته السبعة فسماه (رابندرا) أي
الشمس ، تيمناً بأنه سيشرق كالشمس وبأن الأرض ستنعّم ، ذات يوم ، بنوره
الوضي .

وعرف (طاغور) في فجر طفولته بلهنية الحياة وهناءتها ، واستمد من الجو
الذي عاش فيه ، كل ما كانت نفسه الطلعة تتشوف إليه ، فقد شدا أفراد أسرته
كلهم فنوناً مختلفةً ، بين رسم وغناء وشعر ، وعبّ (طاغور) من هذه الينابيع
الثرّة ، مستصفاً أطيها وأعذبها وألصقها بروحه .

(١) أي القديس في اللغة البنغالية . وقد لقب به والد (طاغور) ، لما أثر عنه من ورع وتقى .

وكان أبوه أحد أعلام نحلة (اليوبانيشاد) الدينية التي تركت في الهند ،
أثراً صوفياً بالغاً ، وكان يفرع الى العزلة أحياناً ، ليرتل أناشيده البرهمية بصوته
الهادئ العذب .

وأتمثل (رابندرانات) طفلاً صغيراً ، يعدو في أرجاء القصر الرحب ، لاعباً
لاهياً ، ثم يستوقفه صوت أبيه يلهج بنشيده الديني ، ويتسمت الطفل للحن
الشجي ، ويمثل أمام حجرة أبيه ، ليجده قد انتبذ ركناً منها ، ينغم نشيده
خاشعاً متبثلاً .

وترتشف أذناه الواعيتان ، هذه الأناشيد الصوفية العميقة وتمتزج أنغامها
بروحه ، لتنبجس ذات يوم وتوشّي شعره وألحانه وأغانيه .

ويغازل الطفل الحرف والوزن والقافية وهو بعد في منبج عمره ، ولم يكن
آنذ ، قد بلا الحزن وعزف الألم ، فقد كان أبواه يريعيانه بالحب والحنان .

لم يكن له إذن بدء من تجربة عاطفية تحرك الوتر الغض من موهبته الوليدة
وتطلق النغم المبدع وتستل نسيمات الشعر المهيمنة المتململة في أغوار نفسه .

وتعرض له هذه التجربة... ولعلها أن تحملنا على الابتسام ونحن نستمع إليه
يقصها من كتاب ذكرياته : « قبض ذات مرة على لص في دارنا ، فحملني التطلع
الممزوج بالخوف على أن أخف الى مكان الحادث لأرشق اللص بنظرتي الطلعة
المتسائلة ، فإذا أنا أجد إنساناً كالأخرين ، وما إن رأيت البواب يجذبه بعنف
وقسوة ، حتى شعرت برأفة تمس شغاف قلبي ، واشتهيت أن أنفص رأفتي
شعراً ، وكانت تجربتي الأولى التي حملتني على النظم ، وجعلت أقرزم أبياتاً من
الشعر ، مردفاً كلمة في إثر كلمة ، كيفما اتفق لها أن تأتي ، والآن حين أذكر
تلك الأبيات المسكينة وأقسو عليها فإن الرأفة تجاذبني ، كما جاذبتني حين
بصرت بذلك اللص المسكين » .

وسهر أبوه على تعليمه فندب له بعض المعلمين ، ليقدّموا الى ابنه المعرفة ، بإشراف منه ، إذ لم يكن يتوفّر في المدارس الهندية آنذاك ، التعليم الصحيح الضروري للطفل .

ولم يجتزئ أبوه بالدراسة النظرية يزوّد بها ابنه ، بل حرص على أن يفسح آفاق معرفته بالتنقّل والسفر فاستصحبه في رحلات كثيرة كان أبعدّها أثراً في نفس الطفل النابه رحلته الى جبال (الهيमالايا) .

ها هو ذا يتوقّل مع أبيه في شعاف الجبل الشامخ ، وتتلقّف ذراه الذاهبة في الفضاء ، نظرات الطفل المتطلّعة المعجبة .

وبذل الجبلُ العملاقُ لعينيه تهاويله الساحرة الوحشية ليدرك الطفل الشاعر عظمة الكون وجماله ، واستمسكت ذاكرته الغضة بالصور المذهلة الرائعة تترادف في حواشي الأفق ، بالطيوف المهوّمة في القنن السابحة مع قزعات الغيوم ، بالظلال الرهيبة تجثم في شعاب الجبل وغيранه . والتأمت الصور والطيوف والظلالُ ، متناغمةً ، مؤتلفةً ، لتتسابق ذات يوم في قصاده ولوحاته الى قلمه الصنّاع وريشته الملهمة .

وكذلك عبّت عينا الطفل الظامئتان ، من مناظر الطبيعة ، وانعقدت بين نظراته الرقيقة البريئة وبين الكون ألفةً وانسجاماً ، فهذه شجرة (البانيان) التي كانت تنتصب في فناء الدار وهذه النخلة السموق التي كانت تنتصب خلف جدار القصر كانتا تحدثانه عن الصداقة الخالدة التي تهبها الأشجار للإنسان ، وكانتا تهمسان في مطاوي نفسه نداء الطبيعة الصافي العميق .

وأخذ قلبه الصغير ينبض بالشعر ويهزّج به ، وقد احتفظت ذاكرته ، حين تقدم به العمر هذا البيت من قصيدة :

وينساقُ ، في الجو ، همس المطرُ ليرعشَ بالحُبِّ غُصْنُ الشَّجَرِ
يقول (طاغور) :

- « حين أفكر في الغبطة التي تبعثها هذه الكلمات في عُنْفِي ، أدرك قيمة

الدور الذي يؤديه الجرس اللفظي والقافية في القصيدة ، أن الكلمات تفيء الى الصمت ، ولكن موسيقاها تظل ممتدة . ويبقى صداها موصولاً بالسمع ، وهكذا فإن المطر مايزال يهمس وأوراق الأغصان ما تني ترتعش حباً ، حتى الآن في ذاكرتي » .

ويكبر الطفل ويصلب عوده ، ويصبح في مقدوره أن يذهب الى الصيد مع أخيه (جيوثير يندرا) ، وكان هذا ، الى ولعه بالفناء والموسيقا ، فتى شجاعاً كلفاً بالقنص والطراد ، وكان يحلو له ، وهو يمتطي فرساً من صافنات الخيل ، أن يروى أخاه (رابندرانات) خلفه ، لينطلق به في المدى الرحب المنفسح أمامه .

وقد سحب (رابندرانات) أخاه ، ذات مرة ، في رحلة لصيد نمر ، وضرباً معاً في قلب الغابة الموحشة ، حتى اقتربا من وجار النمر ، فلم يكذب يبدو مزمجرأ متوعداً ، حتى سدّد إليه (جيوثير) رصاصة قاتلة فأصماه وجندله . وكان الفتى الصغير خلف أخيه الجريء ، فلو لم يقتل النمر لاقترسهما كليهما ، ولانطلقا ذلك النور الذي قدّر له أن يفتح الألق والخير .

وكذلك تعشّق (طاغور) منذ صغره الحرية مهما تكن مخوفة بالأخطار .

وأبى القدر إلا أن يمتحنه وهو بعد فتى ، حين ماتت أمه الحبيبة ، وخلف موتها ألماً لا يمحي في نفسه ، وقد قص (طاغور) ذكرى وفاتها في هذه الكلمات الغميسة بالأسى : « كنا قد أوينا ليلة وفاتها الى النوم ، وقدمت في ساعة متأخرة خادمٌ عجوزٌ ، وهي تنشج باكياً وترددُ :
- « ايه يا أطفالي لقد فقدتم كل شيء » .

فأسكتتها زوج أخي وصرفتها لتجنبنا وقع الفاجعة ونحن في موهن من الليل ، وكنت نصف يقظان ، وأحسست بقلبي يذوي وينهار بين جنبي . دون

أن أعي ، على نحوٍ ظاهرٍ واضحٍ ماذا جرى ، فلما انشقَّ الفجر ، أدركت معنى الموت الذي كنت أسمع بخبره .

ولما خرجنا الى الشرفة رأينا أمنا مسجأةً فوق سريرها ولم يكن مرآها يشي بأن الموت رهيب ، كان محياها عذباً آمناً ، كما لو أنها خلدت الى نوم هنيء ، ولم يكن أي شيء يبصرنا بالهوة السحيقة التي تفصل الموتَ عن الحياة .
و حين نقل نعشها وسعينا مع الموكب الحزين في الطريق المظلمة بالشجر هصر قلبي ألمٌ ممضٌ ، وأنا أفكر في أن أُمي لن تعود بعد الآن الى البيت .

وقد مضت الأعوام وظلمت أذكر في أيام الربيع ، كلما تمشيت في الحديقة ، وداعب زهرُ الياسمين جبيني ظللت أذكر مداعبة أنامل أُمي وهي تمسُ جبيني مساً رفيقاً ، مفكراً في أن الحنان الذي كان يحدو تلك الأنامل الساحرة يتجلى في نقاء زهر الياسمين وأن ذاك الحنان ما يزال باقياً لا ينفد ولا يفنى .

لقد حرمني القدرُ أُمي وأنا بعد فتى صغير ، فأصبحت وحيداً ، ألوذُ بنافذتي وأتأمل في الطبيعة وأرتسم في مخيلتي ما يترقق في الكون من صورٍ شتى .
لقد كانت الطبيعة رفيقي الذي وجدته الى جوارى دائماً » .

أجل . لقد أضحت الطبيعة رفيقاً وأماً ثانيةً له ، يناجيها ويأنس إليها ويغرف منها ، يوماً بعد يوم ، صوراً خلاصة .

ويكبر الطفل الصغير ، وتترعرع معه قصائده الشجيّة الطليّة ، لتمهّد له طريق المجد .

ونورّت عبقرية (طاغور) الشعرية وهو ما يزال في رَيْقِ العمر ، وكان يجد من أفراد أسرته تشجيعاً متصلاً ، غير أن أباه كان يُعِدُّه لدراسة القانون ، فبعث به الى كلية (برايتون) في انكلترا .

ولم يجد (طاغور) في دراسة القانون ، ما يرضي نفسه النزاعة الى الفن

والأدب ، بيد أنه أفاد من إقامته في انكلترا الشيء الكثير ، فقد غدى نزعتَه الأدبية وارتضخ اللغة الانكليزية بطلاقة وإجادة ، مما أعانه ، فيما بعد ، على نقل بعض مؤلفاته الى الانكليزية .

ونهل (طاغور) من معين الأدب الانكليزي الخصب ، فرفد ثقافته الشرقية بالثقافة الغربية ، وعاد الى وطنه دون أن ينهي دراسته الحقوقية ، وانتسخ أمل أبيه في إغرائه بمتابعتها .

* * *

وأهلّ ديوانه الأول (أغاني المساء) فتلقفته الأوساط الأدبية بالتشجيع ، وتلقاه النقاد بالثناء الذي يستحق وظفر (طاغور) وهو مايزال في ريعان الشباب ، بإعجاب كبار شعراء عصره الذين توسّموا فيه شاعراً ملهماً ينتظره المجد .

وأردف ديوانه هذا بديوان (أغاني الصباح) ، وتغيم فيه ظلالاً رمزية ، تضفي عليه مسحةً من الغموض حلوة ناعمة .

* * *

وفي الثانية والعشرين من عمره ، انتقت له أسرته زوجاً ، فتاة صغيرة ، لا تتجاوز سنّها الثانية عشرة هي (مرينايني ديفي) ، فاستجاب (طاغور) لرغبة الأسرة ، فقد كانت التقاليد في الهند تقسر الفتاة والفتى على الانصياع لإرادة الأسرة في اختيار رفيق الحياة . وقد انتقد (طاغور) فيما بعد هذه العادة البالية انتقاداً عنيفاً في مقالاته وقصصه ، وفي رواية (حطام السفينة) بوجه خاص .

على أن حياته الزوجية كانت رغبة ، فقد محضته زوجه المحبة الصادقة وتذوقاً معاً أفويق السعادة وترادفت قصائده مشعشةً بالهناء الغامرة :

« لقد هَلَّتْ الفرحَةُ مسرعةً من جميع أطراف الكون لتسويَ جسمي .
لقد قَبَلَتْها أشعةُ السماوات ثم قَبَلَتْها حتى استفاقت الى الحياة .
إن ورد الصيف الموليَ سريعاً قد ترددت زفراته في أنفاسها ،
وغنّت وسوسةُ المياه وهيمَةُ الرياح في حركاتها ،
إن الألوانَ المتقدِّة من الغيوم والغابات قد انثالت الى حياتها ،
وداعبت موسيقا الأشياء كلها أعضائها لتمنحها إهابَ الجمال .
إنها زوجي ... لقد أشعلت مصباحها في بيتي وأضاءت جنباته » .

ورزق (طاغور) ثلاثة أطفال ، أفعموا قلبه غبطةً وبهجة ، بيد أن سعادته
لم تدم طويلاً ، فإن كارثةً عتيَّةً لم تلبث أن دهمته ، فقد ماتت زوجته وهي
بعد في ميعة الصبا ، ولحق بها ابنه وابنته وأبوه ، في فترات متتابة ،
متقاربة ، وخلفت هذه المصائبُ في نفسه جرحاً رغيماً ، وكادت تهذه وتفضي
به الى اليأس ، لولا إيمانه بأن الموت هو صفحة تطوى لثفتح صفحةً خالدةً
أنضر وأحلى .

وعلى حافة سرير ابنه المريض المدنف ، نظم (طاغور) ديوانه (الهلال)
مفتلداً من قلبه الحزين المعنى قصائده الساذجة المؤسية . يقول (طاغور) :
- « إن عاصفة الموت التي اجتاحت داري فسلبتني زوجي واختطفَت زهرة
أولادي ، أضحت لي نعمةً ورحمةً . فقد أشعرتني بنقصي وحفزتني على نشدان
الكمال وألهمتني أن العالم لا يفتقد ما يضع منه » .

بيد أن حزنه الذي استبدَ بقلبه ، تسلَّل الى شعره فطبعه بطابع الأسى ،
وانسابت الى جانب قصائده المسابقة المفوِّة بحب الحياة ، قصائدُ شَفَافَةٍ بحزن
دفين - ضمَّها الى ديوانه الرائع (جيتنجالي) - قصائدُ مترعةً بمعاني الموت ،
يقول عنها الكاتب الفرنسي (أندره جيد) : « ليس في الشعر العالمي كله ما
يدانيها عمقاً وروعة » .

اصغ إليه يقول :

« ايه أيها الموت ، يا منتهى حياتي الأسمى ، تعال واهمس في أذني يوماً بعد يوم سهرت في انتظارك ، من أجلك تذوقتُ هناءة الحياة وعانيت عذابها .

إن الكفن المنسدل فوقي هو كفن التراب والموت ، وإنني لأكرهه ولكنني أشده وأجذبه في شغفٍ ووجد »

* * *

وكذلك حلق شعر (طاغور) ، بعد أن استمسك واستحصد ، مجنحاً بالحب والألم ، والفكرة والنغم ، لتتجاوب به آفاق الهند ، ثم يفرع جبالها ، ويجوز حدودها ويضطرب في كل مرادٍ من الأرض ، وينحدر كالشعاع النقي ، فيفسل بكلماته الحلوة القلوبَ الحزينةَ المتشوّفةَ الى الطمأنينة والمحبة والسلام .

وفي عام ١٩٠١ ، أنشأ (طاغور) في إحدى ضواحي (كلكتا) مدرسة سماها : (شانتينيكيتان) أي مرفأ السلام ، وقد اختار أن تكون في قلب الغاب ، بين الأشجار المتواشجة المتعانقة .

ويتسق منهج الدراسة فيها على هذا النحو :

يستيقظ الطلبة ، عند منبثق الفجر ، فيرتلون الأناشيد العذبة ثم يمضون الى حجراتهم فينسقون فُرشهم وينظفون الأرض وينطلقون الى الملاعب ، حيث يزاولون تمارينهم الرياضية ثم يلوذ كل طالب بركنٍ يفكر ويتأمل . فإذا انتهت فترة التأمل ، أقبلوا على فطور الصباح ، ومنه الى الصلاة فالدراسة النظرية .

وللطالب ، إما شرع الأستاذ في إلقاء درسه ، أن يعلو غصن شجرة أو يقتعد عشب الأرض ، مستمتعاً بجمال الطبيعة وطلاوة الدرس معاً .

وفي الساعة الثانية عشرة ينتهي برنامج الدراسة النظرية ، وبعد الغداء ،

يبتدئ برنامج الدراسة العملية ، وينصرف الطلبة الى الحدائق ينسقونها ويزرعونها ، ويتخذ بعضهم سمته الى القرى المجاورة لتعليم الفلاحين وإرشادهم حتى يغلب الليل .

ويعكف الطلبة ، بعد العشاء ، على قراءة القصص أو تمثيل المسرحيات أو ترتيل الأغاني ، وفي الساعة العاشرة يأوي الجميع الى النوم .

هذه هي المدرسة التي أنشأها (طاغور) جنة ممرعة للنشء ، يقبلون فيها على الدراسة المجدية ، دون قسرٍ أو إكراهٍ وتفتح فيها قلوبهم على محبة الطبيعة وتقدير الإنسان ، وتنضج فيها شخصياتهم بالعمل والتعاون والاعتماد على النفس .

وفي هذه المدرسة ألقى (طاغور) محاضراتٍ شتى جمعها في كتابه الشهير (سادهانا) .

وتعاقبت آثار (طاغور) من فلسفة وشعر ورواية وقصة ومسرح ، غزيرة سخية ، تحمل رسالته الإنسانية السامية القائمة على المحبة والأمل ، وتشرنبُ قمماً شوامخً في الأدب العالمي كله ، فلا عجب أن تسعى إليه جائزة (نوبل) للأدب عام ١٩١٤ .

لقد أصبح (طاغور) ، كما يقول عنه (غاندي) بحق ، منارة الهند ، ولعله أن يكون منارة الشرق كله ، منارة تبذل نور المحبة وتعيد الى الإنسان المشرّد في متاهات المادية والإلحاد ، إلى الإنسان الذي افترست الحروب والطغيان ، أحلامه الحلوة وأمنه واستقراره ، تعيد إليه الأملَ والايمانَ والسلامَ والثقةَ بمستقبل أفضل .

وقام (طاغور) برحلات عديدة في أوروبا والشرق الأقصى والاتحاد السوفيتي وأميركا وأفريقيا ، ينشر أنى مضى بذور المحبة والطيبة والأمل ، وظلّ دائبَ الظعن والرحيل ، حتى بعد أن تقدمت به السن . كانت عيناه الظامنتان الى النظر والمعرفة معلقتين بآفاق العالم كله ، وكان يقابل حيثما حل بترحاب شعبي حار ، قيل إنه تجمّع في ساحة (كولوسيوم) في (روما) أكثر من ثلاثين ألف شخص ، جعلوا يحيّونه ويهتفون له ، هتافاً هادراً مدوّياً .

ولك أن تتمثل الشاعرَ العظيمَ ، رابندرا - الشمس المشرقة ، واقفاً بطلعته المهيبة ، ودموعه تغيم في مآقيه ونظراته المجبولة بالحنان ، تتطامن الى الجموع المحتشدة الهاتفة ، وقلبه الكبير الطيّب ، ينبض بالحقيقة نفسها التي تجبُ بها قلوبهم جميعاً .

ولم يتوانَ (طاغور) وهو يرى الى الاستعمار البغيض يعيث في وطنه فساداً وعسفاً ، عن مقاومته بشعره ومقالاته وخطبه فلم يقتصر شعره على تلك الخيوط اللطيفة الناعمة التي ألف أن يغزلها في معاني المحبة ، بل كان يتعالى حراً صريحاً مزمجراً ليذكّر صروح الطغيان . كان كالفراشة التي نسجت خيوطها الحريرية في فيلجتها واستمرت العيش فيها أمداً ثم حطمت سجنها وانطلقت حرة في منفسح الفضاء ، فإذا هذا الشعر الصافي المعطاء يحوّر في شفثيه الى صيحة مدوية تدعم صيحة زعيم الهند (غاندي) وتوقظ أبناء وطنه من سبات الاستسلام ، مهيبة بهم أن ينزعوا الخوف من نفوسهم حاملة لهم مشعل الحرية الموعودة فيقول :

« ايه يا وطني ، اطلب إليك الخلاص من الخوف ،

هذا الشبح الشيطاني الذي يرتدي أحلامك الممسوخة ،

الخلاص من وقر العصور ، العصور التي تحني رأسك وتقصم ظهرك .

وتصمُ أذنك عن نداء المستقبل . »

ولما قامت في الهند عام ١٩١٩ ثورة (البنجاب) وقمعتها انكلترا بالدم والنار ، احتج (طاغور) على ذلك بمقالات تتأجج عنفاً ، وأعاد الى ملك انكلترا لقب (سر) الذي كان قد منحه إياه تقديراً لعبقريته .

* * *

ولما ذرف (طاغور) على السبعين ، وكان في أوج عظمته الأدبية والفكرية والموسيقية ، بدا له أن يزاول فن التصوير . وكان على الشاعر أن يفسر لوحاته ، فقد كانت مزيجاً من الألوان غريباً ، ولكنه كان يجيب دوماً : « إن على الصورة أن تفصح عن المعنى وأن تنفضه ، وليس عليها أن تفسره ، فالفن يماثل الحب في كونه غير قابل للتفسير » .

كتبت السيدة (دونواي) في أسلوب تصويره فقالت :

« إن لوحته تلد كالفكر حين يدخل في سبات ، مغلفة بسحب حاملة مبهمة ، ثم تتضح وهي في سبيلها الى التكوين ، وإن المرء ليعجب من دقة التصوير ورحابته معاً ، وتنبثق الألوان وتنساب : بقعة ضبابية فياض ثلجي تليها خضرة موشاة بلون بنفسجي ، وتأتلف الألوان لتفسح عالمًا حيًا » .

وكذلك اكتشف الناس جانباً آخر من عبقرية (طاغور) حسرت لهم ، من قبل ، عن أسرار النغم وهما هي ذي تحسر ، الآن ، عن أسرار اللون ، لتريقها لوحات رائعة ساحرة .

وأقيمت للفنان (طاغور) معارض جمّة ظفرت بإعجاب نقاد الفن والتصوير في العالم أجمع .

كأنني بطاغور ، بهذه العبقرية التي جرت من الفلسفة والأدب والفنون كلها على عرق ، كأنني به قد وافى ، كما يقول (راجاراو) . الى عصرنا هذا من عصر النهضة ، العصر الذي كانت تخفق فيه طيوف دانتى وليوناردو دافنشي ومايكل

انجلو ، العصر الذي كانت تتمايل فيه كلمات القصيد على رعشات الريشة
الملهمة ، وتترنح على ضربات الإزميل البارع ، وتلهث أمام مخططات الاختراع
ووساؤنس العلم .

* * *

وُفِّي ٨ آب ١٩٤١ - وكان (طاغور) قد تخطى الثمانين - مد الموتُ يده .
وقطف في هينة ورفق ، روحَ الشاعر الإنساني العظيم ، وهو بين أفراد أسرته
ورفاقه ورواده .

« أنا أعلم أنه سيأتي يوم ، أضيّع فيه هذه الأرض عن ناظري .
إن الحياة تغادرني ، في صمت ، بعد أن تسدل على عيني الستار الأخير ،
ومع هذا فإن النجوم ستتلامح ساهرة في الليل ،
وسيُسفر الفجر ، كما أسفر أمس ،
وستمتلئ الساعات ، كما تمتلئ أمواج البحر ، حاملةً اللذات والآلام . »

* * *

أجل ، لقد غربت شمس (رايندرا) ، كما سماه أبوه ، بغد أن منحت
الخير والنور .
وأغمض الشاعر عينيه اللتين أدامتا النظر الى الكون وأحبتاه وتغنّتا بأيات فاطره .
انطفأ النغم الرائع الحنون في لهاة الشاعر العظيم ، الى الأبد ، ولكن صداه
سيظل دوماً مهوى كل قلب ينشد المحبة والأمل والسلام .
مات (رايندرانات طاغور) وافتقدت الهند ، بغيابه الأبدي ، أكبر شاعرٍ
عرفته عصورها كلها .

* * *

« أي هدية تقدمها الى الموت ، يوم يقدم ليقرع بابك ؟
آه ، سأضع أمام زائري كأسَ حياتي المترعة ولن أدعه يعود فارغ اليدين .
كلّ قطوف كرومي العذبة ، من أيام خريفى وليالي صيفي .
كل حصاد حياتي الدؤوب وجناها ، سأضعه أمامه ،
حين ينتهي أجلُ أيامي ، يوم يقدم الموت ليقرع بابي » .

* * *

أجل لقد بسط (طاغور) ، حين قدم إليه الموت ، قارعاً بابَه ، كأسَ حياته
المترعة حناناً ومحبةً ووضع أمامه قطوف كرومه العذبة الشهية وحصادَ حياته
الجادة الدؤوب .

أجل ، لقد أزجى إليه باقةً ناضرةً مونقةً تضم شعره وأغانيه وخواطره
ومسرحياته ولوحاته ورواياته ومقالاته ، وآب الموت ، محملاً بأثمن هدية
يمكن أن يظفر بها من إنسان شاعر .

* * *

وتتلع زهرةَ الشعر رأسها من الباقة المؤتلفة المونقة ، فلعلها أن تكون
أجمل الزهرات وأطيبها شميماً ، فإلى صفة الشاعر ينسب (طاغور) وبها يُزهى
ويفخر .

وشعر (طاغور) كله ، يطاوع روحَه الخيرةَ ، ويزخر بموسيقا لفظية ،
قبست رعشاتِها من خفقات قلبه .

ولعل ولع (طاغور) برقة اللفظ وموسيقاه يفسر لنا ، على الجملة ، شغفه
بالغناء والموسيقا ، ويتضمن شعره ، حتى بعد نقله الى لغة أخرى ، موسيقا
خفيفة ناعمة ، تذكرنا . كما يقول (أندره جيد) ، بأغنية لشومان أو بلحن
(آريا) لجان سباستيان باخ .

« إن نور الموسيقى يضيء الدنيا ، وإن لهاث موسيقاك المفعم بالحياة ،
ينسرب من سماء الى سماء .

ايه أيها المعلم ، لقد جعلت قلبي أسيراً في الشّباك الممتدة من
موسيقاك » .

وقد تأثر (طاغور) بالرمزية ، وعانقت ظلالها الغامضة بعض شعره ،
كقصيدة (الصدى) ، فتأبّت معانيها الكامنة على التفسير ، وتعلّل (طاغور) بإيثار
الرمز ، انك لو استنشيت أريجَ زهرة ، وقلت : « لا أفهم شيئاً » ، فالجواب يعني
أنه ليس ثمة شيء يتطلب الفهم ، فليس هناك سوى الأريج ، وكذلك الشعر
المبهم الرمزي الذي تطرب له ولا ينقاد معناه لفهمك .

وكثيراً ما يعمد (طاغور) الى القصص والأساطير فيرويهها شعراً ويرمز بها
الى شيء ، ويخلص منها الى فكرة مستجدة رائعة ، فما أحلى هذه القصة
الشعرية! :

« لقد مضيت أستجدي من باب الى باب على طريق القرية ،
حين لاحت مركبتك الذهبية من بعيد ، كأنها حلم رائع .
ورفتَ تعلّاتي ، فكنت أفكر في أن أيام بؤسي قد انقضت ، وهأنذا أنتظر
العطايا العفوية والخيرات المنثورة ، هنا وهناك على التراب .
وتوقفت المركبة ، حيث كنت أنتصب ، وصافحتني نظرتك فنزلت وأنت
تبتسم ،

وشعرتُ بأن حظ حياتي قد أقبل أخيراً ،
ومددتَ فجأة يدك اليمنى وقلتَ لي : ماذا لديك من عطاء ؟
آه . يا لعبتك الملكي وأنت تبسط راحتك الى المتسول لتستجدي منه .
وقد ارتبكتُ وحرّتُ ، وتناولتُ في خفية ، حبة قمح صغيرة من جرابي
وأعطيتك إياها ،

ولكن كم كان عجبي كبيراً ، آخر النهار ،

حين وجدت ، وأنا أفرغ جراحي على الأرض حبة صغيرة من الذهب بين
كوم من الحبات الحقيمة ، وبكيت أحربكاء ، وتمنيت ، لو أوتيت الجرأة لأهب
لك نفسي كلها » .

* * *

وقد طَبَعَ الرمز صوره الشعرية بالخصب والحركة ، على أن هذه الصور
تتراءى أبداً موشحةً بالوهم ، معلقةً بغوارب الحلم والخيال ، فإنها تظل منسجمةً
متناسقةً ، تستروح فيها عبق الأرض وترابها وتحسُّ فيها خلجة الحياة الطيبة
السخية .

والى جانب الظلال التي تسفحها رمزيته الرقيقة ، فإن النور يلعب في صوره
ويوشئها بالألق والإشراق :

« أيها النور الذي يغمر الكون ، يا قبلة العيون ، يا عذوبة القلب ،
النور يرقص في مركز حياتي ، وحيي يتجاوب مع دفقة النور .
السموات تنفسح والريخ تهبُّ عاتية ، وعلى الأرض تعبر ضحكة .
إن نور الصباح قد غسل عيني ، تلك هي رسالتك الى قلبي ،
فانحنت طلعتك ، من عل ، وغابت عينك في عيني ولامس قلبي قدميك » .
وفي الحق إن شعر (طاغور) ليس شعراً يتعد فيه اللفظ والنغم والمعنى ،
بل هو رسالة فكرية إنسانية تماثل ، في نبليها وصفانها ، رسالة المفكرين
المصلحين العظام .

وقد اتسق له أن يجنح رسالته هذه بالشعر ، فوهب لها دماً جديداً ،
وأمدّها بنسغ الحياة وبث فيها رِيشةً وحركةً وانطلاقاً ، فلا تسعى وأنت تقرأ
شعره الى الفكرة التي تضمنتها ولكنها هي التي تأتي وتسلس لك وتدخل أغوار
نفسك ، فكأن شعره الطلي ثمرةً شهية ، تريد أنت منها في الظاهر استطابةً ولذةً
وتريد هي لك في الواقع فائدةً ومنفعةً وعبرةً .

ويقوم جذع آرائه الفكرية على مفهوم المحبة بمعناها الشر الرحيب ، فهو
يحب أخاه الإنسان ، دون أيما فارق في المنزل والدين والتجار فيقول :
« إن قلبي لن يجد سبيله نحو من ترافقهم ،
بل نحو من لا رفيق لهم ، بين الفقير والحقير والضائع » .
وهو يحب الكون ويشغف به حين يتحد معه في كل واحد فيقول :
« إن نهر الحياة نفسه الذي ينساب في عروقي ليل نهار ،
هو الذي ينساب في الكون ، ويرقص على إيقاع موزون .
إن شباب الأرض والماء يسمو في قلبي كأنه بخور المجامر ،
ولهاث الوجود كله يتردد ضمن أفكاري ، كما يتردد في ثقب الناي » .
ولا يريد (طاغور) لهذا الحب أن يكون نزوة عارضة عابرة ، بل حباً ندياً
مستمراً :

« هب لي ذلك الحب الذي يود أن ينفذ إلى أغوار الوجود ،
ثم ينساب نسفاً خفياً في أغصان شجرة الحياة ليبعث الثمار والأزهار » .
وهو يحب ربه متغنياً به ، باحثاً بفكره ، بقلبه ، بأغنياته . لا يحمله على
الاستقصاء في البحث ، القلق أو الشك ، بل الحب النقي الصافي البريء من
أوضار اللذة ومن التصوف معاً ، الحب الذي لا يصدف عن الحياة ويهرب منها ،
زاهداً بها متجانفاً عنها ، بل الحب الذي يغريه بالحياة الحرة الباسمة الجذلى ،
يقول :

« ليس الخلاص في الزهد ، أنني أشعر بضمة الحرية في ألف رباط من
اللذات ،

لا ، لن أغلق أبواب حواسي ، إن لذات البصر والسمع واللمس سوف
تنظم لذتك ،
أجل إن أوهامي سوف تحترق في ألقه الفرح ، وإن رغباتي كلها سوف
تؤتي ثماراً من الحب » .

وهو يحبُّ وطنه المتشوّف الى الاستقلال ، فيرجو له الحرية ويعمل على إيقاظه :

« هناك حيث لا يلبس الفكر خوفٌ ويكون الرأس متلعاً الى العلاء ،
هناك ، حيث تكون المعرفةُ حرّةً ،

هناك حيث لم يجزأ العالمُ بين حواجز ضيقةٍ مشتركةٍ ،
هناك حيث لا يضلّ العقل النّيرُ في الصحراء الموحشة من العادات البالية ،
أجل . في نعيم الحرية ، أبتاه ، دع وطني يستيقظ . »

* * *

يقول (طاغور) :

« إن الزهرة الأولى التي نورّت وتفتّحت على الأرض قد حملت الأغنية على أن تولد . »

وتتطاول زهرةً رياً ، من الباقة اليانعة ، تريد أن تعانقَ زهرةَ الشعر ، أن ترتشف منها نداها ، إنها زهرة الموسيقى والغناء توأم زهرة الشعر ، وقد نورّت على شفّتي (طاغور) ورشفت منها أعذب الأنغام وأحلاها ، أجل ، لقد حملت الأغنية على أن تولد وتهزج وتنطلق .

كان لطاغور صوتٌ نديٌّ ، وكان كأخيه (جيوثيرندرا) مولعاً بالموسيقى والغناء ، وكانا يتعاونان على تلحين قصائده وتنغيمها ، فكان ، (جيوثيرندرا) يضع اللحن ، و(رابندرانات) يصغي إليه وهو يعزف على البيانو ، فيستوحي من اللحن ما يناسبه من الشعر ، وكان يؤثر هذا الأسلوب في التلحين . فقد كان يرى أن على اللحن أن يسبق الشعر وأن على الشعر أن يحمل اللحن ويخدمه لأنه الجذع والأصل .

وفي الحق ان فنّي الشعر والغناء هما من بين الفنون كلها ، أكثرها ألفةً وانجذاباً ، فالشعر يتّم الغناء ويمتزج به على نحو وثيق مترابط .
وقد تعانق الشعر والغناء ، لدى (طاغور) في انسجامٍ وتناغمٍ عجيبين ،

حتى لقد وضع أكثر من ثلاثة آلاف أغنية ، كان لها أثر كبير في الموسيقى المعاصرة الهندية ، وقد اتسق له خلال إقامته في لندن ، أن يستمتع بالموسيقى الغربية ، فأعجب بما فيها من عمقٍ وانسجامٍ وتنوعٍ ، وأفاد منها كثيراً في تلوين أغانيه الشجية ، وكان (طاغور) يعتمد بعد أن امتدَّ به العمر على ابن أخيه ، وكان مثله مشغولاً بالغناء ، فكان يردد الأغنية ويرجع فيها ويهزج بها وابن أخيه يأخذها عنه ويذيعها ، لتلهج بها كل شفة .

يقول (طاغور) في كتاب (السادهانا) :

« إن الموسيقى هي أنقى أشكال الفن ، وهي أقرب تعبير عن الجمال ، وإننا لنشعر أن إفصاح اللانهاية في الأشكال المحدودة من الخلق ، هو الموسيقى نفسها تناسب صامتة ظاهرة . إن السماء الداجية التي تحصي النجوم دون ونى ، شبيهة بطفلٍ مشدودٍ بكلماته الأولى المبهمة لا يني يردد لفظة واحدة ويصغي إليها بفرحةٍ لا تنضب » .

وتتوالت من الباقية زهرات مرحات ، لعلها أن تكون قد هربت من مسرحية (طاغور) : دورة الربيع ، بعد أن لَهت وتغنّت وتضوعت ، وأدّت دورها وهرقت شذاها . ثم بدالها أن تستبق إلى هذه الباقية ، لتغريك بقراءة المسرحية .

وهذه المسرحية ، أدنى إلى فن الشعر والغناء من فن المسرح ، فحوارها يتسلسل صوراً شعريّة خلابة ، تهينم الموسيقى بين كلماتها ، هينمة النسيم بين عذبات الأغصان ، وتلعب الأزهار أدوازها في الربيع ، فتسعد وتشقى كالأناسي في الحياة .

ها هي ذي تتراءى براعم غضة ، تتغنى مع برعم (الشامباك) :

« إن حركتي تختبئ في سكون أعماقي ، في عذوبة ميلاد الأوراق الغضة ،

في فيض الزهور ،

في الاندفاع الخفي من الحياة الجديدة نحو النور ،

إن هزتها تُرعرش السماء وتحرك صمت الفجر .

ثم تنور البراعم وتزهو مع بشائر الربيع الطلق ، وتنشد في مهرجانه ،
وتمضي كالأطفال عابثةً لاغيةً لاهية .

وفي المسرحية تتألق أفكارٌ فلسفيةٌ وحكمٌ ، كما تتألق قطرات الندى على
أفواف زهرة ، فتجدُ الى جانب الصورة الساحرة الأخاذة ، حكمةً بليغةً وفكرةً
بعيدة الدلالة .

وكذلك تأخذ جل مسرحيات (طاغور) بمدرجة هذه المسرحية في مؤالفتها
بين الصورة الشعرية والفكرة . وقد تطفى الفكرة على الصورة الشعرية في بعض
مسرحياته ، كمسرحية (الضحية) التي يسود فيها حوار فكري ممتع ، ونرى فيها
الى الملك (غوفيندا) يقرر تحريم الأضاحي ، بعد أن صدع قلبه مرأى فتاة تنشج
باكية حين أخذت عنزتها لتقدم قرباناً .

وتجد الصورة الشعرية سائدةً في مسرحية (شيترا) دون أن تتحيّف من
عمق الفكرة .

وقد قبس (طاغور) موضوعها من ملحمة (المهابهاراتا) انها قصة المرأة
والرجل ، وتري فيها: إلى البطل (ارجونا) مشغوفاً متيماً بشيترا ، وكان أبوها
الملك قد ربّاه كما لو كانت فتى ، فعلمها القتال والصيال والنزع في القوس ،
وقد صبا قلبها الى (ارجونا) ولكنها تأبّت عليه وقاومت حبه بإباء وكبرياء ، غير
أن انوثتها لانت أخيراً ، وانحنت أمام قوة الرجل الذي تحب ، وانكفأ بأسها
لتعود امرأة وحسب ، تغلب بسر وضاءتها وقسامتها ، وتقنع بالدور الأبدي
الذي قسم لها ، دور الزوج المحبة والأم الرؤوم .

ولطاغور مسرحية رائعة ، يترقق حوارها في دفء انسانيّ عذبٍ معبرٍ ، هي
(مكتب البريد) ، تجد فيها الطفل الصغير (امال) ، قد اتخذ مجلسه ، بعد أن
أقعده المرض ، أمام النافذة ، ينتظر في أمل متصل ، مقدّم رسالة من الملك
(هيرالد) ، وتتطامن نظراته الى الطريق ويتحدث إلى السابلة ، في حوارٍ سادجٍ

وإنهم ليضيقون ، في البدء ، ذرعاً بأسئلته ، ولكن الحديث يتصل ، رهواً
سلساً ، كنغم طلي ، لينفي همومهم ، ويسرّي عنهم .
يبد أن الرسالة المنتظرة لا تأتي ، والطفل مُدنف ، ويمثّل الملك نفسه ،
أخيراً ، أمام الطفل لتسامى روحه مطمئنة سعيدة .
وكذلك ترادفت مسرحيات (طاغور) وعددها أربع وعشرون مسرحية ،
تخطر فيها الصور والرموز والأفكار مسربةً بنبضات قلبه . وأتت كل مسرحية
تحمل جانباً من رسالته الفكرية والانسانية ، في إطار وتزويق جديدين .
ولم يكن (طاغور) يرى ضيراً في أن يمثل في مسرحياته ، حتى عدّه
بعضهم من أعظم الممثلين في عصره .

* * *

وتطلّ من الباقة زهرةً ذكيةً الأريج تهرق عطرها وتغازل الشاعر وتغريه بأن
ينسى أوزانه وقوافيه أمداً قصيراً ، ليفسرها ويحوطها بمنطقة الهاديء العذب ،
وها هي ذي تعطو غصنها الفينان ، متطلعةً إلى كتابه (السادهاانا) الذي يجلو
فلسفته في الحياة والحب والجمال والروح ، لتزهي ، تياهة ؛ معجبةً ، وهو
يتحدث عنها حديث المفكر الفيلسوف :

« انظروا إلى الزهرة ، إنها مدعوة ، مهما بدت رفاةً الحسن إلى أداء دورٍ
وانجاز مهمةٍ كبيرة .

ان شكلها ولونها موصولان بعملها ، وان عليها أن تؤتي أكلها جيداً ، لئلا
توقف ديمومة حياة النبات وتدع منظر الأرض قفراً يباباً . ان لون الزهرة
وأريجها متصلان السبب بذلك ، فما تكاد النحلة تلقح الزهرة حتى يأزف أوان
الثمر ، وتتساقط أفواف تويجها الرقيقة ، وحتى يلجنها توفير قاس الى التخلي
عن أريجها العذب . بعد هذا ، لن يتاح لها فسحة تبسط فيها للشمس زينتها ،
فهي مشغولة بجماع كيانها .

ان الضرورة تتراءى من الخارج ، كأنها عامل الطبيعة الأوحـد الذي يحدو كل شيء ، ويدفعه . فالبرعم يفضي بالضرورة إلى زهرة وبها تحور الزهرة إلى ثمرة وتنثر الثمرة البذر في الأرض ، والضرورة تنبت البذر من جديد ، وبه لا تأتلي السلسلة المتصلة تنتقل من جهد إلى جهد .

ولكن هذه الزهرة نفسها ، حين تخاطب قلب الإنسان فإن قضية نفعها العملي تتوارى ولا تعود موضع بحث ، وها هي ذي تضحي رمزاً للمسرة والراحة . وهكذا فإن الشيء نفسه الذي يتجلى فيه الجهد المتصل ، هو من نحو آخر ، تعبيراً كاملاً عن الأمن والجمال .

بهذا المنطق الهادئ الذي يخاطب القلب والعقل معاً ، يسلسل (طاغور) آراءه وخواطره في كتابه (السادھانا) ، فإذا بالشاعر الذي ألف أن يهدد اسماعنا بقصائده الحلوة الشجية ، يوافينا في سَمَتِ المفكر المتأمل ليبسط لنا خواطره وفلسفته القائمة على المحبة المتممة لفلسفة (اليوبانيشاد) .

وحين يروق لطاغور أن يجلو سمات الفكر الهندي الأصيل الذي يمتح من الطبيعة والكون ويتحد معهما في كل واحدٍ منسجمٍ فإنه يصفه بالشمول ، ويؤول اتحاده الوثيق بأن المدنية الهندية قد نشأت وترعرعت في قلب الغاب ولم تنشأ كالمدينة الغربية ، ضمن اسوار المدن .

يقول (طاغور) :

« يرى الفكر الغربي ان كل شيءٍ منخفضٍ دانٍ في سلم الإنسان هو الطبيعة ، وان كل شيءٍ يحمل سمة الكمال الفكري والخلقي هو إنساني ، وبالمقابل فإن الفكر الهندي لا يتردد في الاعتراف بصلته وقربته من الطبيعة واستمرار وشائجه بكل شيء » .

ويرى (طاغور) ان الهند قد اختارت المجالي الحافلة بمظاهر الجمال لتكون اماكن حجيجهـا ، حتى يتيسر للفكر ان يجاوز افق المنافع الضيق ويشعر بأن مكانه هو في اللانهاية .

ولهذا السبب ايضاً ، نجد في الهند وحدها شعباً بأسره يمتنع عن أكل اللحوم ، رجاءً ان ينمي شعور المحبة الشاملة لكل شيء حي ، وهو حادث فريد في تاريخ الإنسانية .

في الباقة اليانعة المخضلة ، زهرة رشيقة لعبوب ، تأتمر بريشة الشاعر الشيخ ، فتسارقها النظر ثم تشب إليها فتودد إليها ، ضاحكةً ، مريقةً ألوانها ، باسطةً أفوافها ، مستجيبةً نظرة عطف .

وتسلس الريشة العجوزُ لاغراء الزهرة العابثة المرحه ، وتمتد إلى الاصباغ فتمزجها وتؤلف بينها ، وتسرح نظرات الفنان إلى الألوان الرفافة ثم تنكفي إلى نسيجة لوحته ، وتواكب نقلة ريشته وتهديها وتفسح أمامها عالماً من الزهر طريفاً مبدعاً .

وكذلك حلا لطاغور ان يدخل جنة الألوان ، وهو شيخٌ ، ليجود في فن التصوير ويترك قرابة ألفي لوحة تُعدُّ تراثاً فنياً ذا شأن .

وكان كثيراً ما يعمد إلى مخطوطات قصائده ، فيمد يراعه خطوط بعض الأسطر التي شطبها ويمنحها شكلاً عجيباً ، فتتراءى كأنها أشباح غريبة وافت من عالم آخر لتستقي من جداول كتابته المنمقة وتهب لحروفها معاني جديدة .

ثم طاب له أن يفرع إلى الاصباغ ويصور لوحات كبيرة - كان يدعوها بحق قصائد ملونة - وكانت تنسجم في خطوط وألوانٍ وشياتٍ لا تسلكه في اتجاه معين من الرسم ، بل تجلوه مصوراً بارعاً ذا اسلوب خاص به ، تنساق فيه الألوان لريشته وتنقاد ، طيعةً راضية .

في الباقية زهرات ناضرات ، تشير إلى مقالاته ورواياته وقصصه ، وتدلّك على النبع الشهي الذي تنهل منه ، انها تنفض لك ملامح المجتمع الهندي ، بأسلوب واقعي ، موشى بالصور الشعرية ، وتنتقد بعض عاداته وعيوبه ، وتشقّ له طريقاً لاجبة مشرقة .

أجل ، كان حصاده غزيراً ، كبيراً ، فقد أزجى (طاغور) كأس حياته المترعة حناناً ، وقطوف كرومه العذبة وجني حياته ، يتلخص في مائة وعشرين مجلداً .

وغاب (طاغور) ولكن اسمه يظل ينبوعاً من نور ومحبة ، وكأنني به مايزال حياً بين ظهرائنا ، يطلّ علينا طلّة الشمس ، بجبينه الرحب ، ينفس كالسما ، بعينيه الوديعتين المتألفتين ، بابتسامته الحلوة تأوي إلى شفثيه ، وكأنني بشفثيه ترتلان هذه الكلمات التي لهج بها ذات يوم :

« من أنت أيها القارئ ، أنت الذي سوف تقرؤني بعد مائة عام ؟

ليس في مكنتي أن أبعث إليك بزهرة واحدة من الاكليل الربيعي ، ولا بشعاع مذهب واحد من تلك السحب هناك .

افتح الأبواب وتأمل في المدى القصي ؛

وأجن من حديقتك الزاهرة الذكريات العاطرة الفاعمة من الزهر المصوح

منذ مائة عام .

فقد يكون في ميسورك ان تشعر والسرور يملأ عطفك ،

بالفرحة الحية التي تغنت ذات صباح ربيعي ،

مريقة صوتها الهنيء ، عبر مائة عام .

بريج عفي

جیتنبجالی

لقد جلعتني لا نهائياً ، تلك هي لذتك .
 هذه الكأس الرقيقة ، انك ترتشف منها دوماً ، وتفعمها دوماً حياةً ندية .
 هذا الناي الصغير من القصب ، لقد حملته معك إلى التلّاع والسهول
 ونفخت في ثقبه أناشيد لا تبلى جدتها .
 بلمسة خالدة من يديك ، فان قلبي الصغير قد فرع حدوده ، جذلان ،
 وهفا في مناجاة غائمة .
 أما هباتك التي لا تنتهي ، فليس لدي سوى راحتي الضنيلتين للامساك
 بها ، بيد ان العمر يمضي ، وأنت تهرق لي ، وسيبقى دوماً مكان ينتظر ان
 يمتلئ .

حين تأمرني بأن اغني ، يخيل إليّ ان على قلبي أن ينشقّ تيهاً ،
 وأحدّق إلى وجهك ، فتستبقّ الدموع الى عيني .

ان كل ما في حياتي من بحةٍ وتنافرٍ يذوب ويصير إلى تناغمٍ عذبٍ ،
وتبسط عبادتي جناحيها كطائرٍ فرحٍ في هيمانه عبر البحر .
إنني اعلم بأنه يسرُّك غنائي ، واعلم بأنه يؤذنُ لي كمنشدٍ فحسب ،
بأن أمثل أمامك .
إنني ألامس ، بأطراف الجناح المنبسط من غنائي ، قدميك اللتين لم
يكن في ميسوري ان أمل الوصول إليهما .
وانني لأنسى نفسي ، وأنا سكران في نشوة الغناء فأناديك :
- ايها الرفيق ، أنت يا مولاي .

٣

اما كيف يتردد الغناء في لهاتك ، أيها المعلم ، فذلك ما لا أعلمه البتة
وما عليّ إلا أن أصغي دوماً في طرب صامت .
إن نور موسيقاك يضيء الدنيا ، ولهات موسيقاك المفعم بالحياة ،
ينسرب من سماءٍ إلى سماءٍ .
ان الموجة المقدسة المثلثة من موسيقاك تعبر الحواجز الحجرية ثم
تهدر ماضيةً مسرعة .
ان قلبي يتشوف إلى الاتصال بغنائك ، ولكنه يجهد عبثاً في الوصول إلى
الصوت ، وأود أن أتكلّم ، بيد أنه لا يتسّق من كلامي أي أغنية ، وانتحب
باكياً ، مرتبكاً .
آه أيها المعلم ، لقد جعلت قلبي أسيراً في شباك موسيقاك التي لا نهاية
لها .

يا حياة حياتي ، سأحاول دوماً ان احتفظ بجسدي نقياً ، عالماً بأن لمستك الحية تستروح الغفوة فوق اعضائي كلها .

سأحاول ان اجعل أفكارى بمنجى من أي زيف ، عالماً بأنك أنت الحقيقة التي توقف نور الحق في فكري .

سأحاول أن اقضي دوماً الشرور من قلبي ، وان ادع حبي مفوفاً بالزهر عالماً بأنك تسكن في المذبح الخفي من قلبي .

وسأجهد في ان اجلوك في اعمالى ، عالماً بأن قدرتك هي التي تمنحني القوة في العمل .

أطلب إليك أن تمنّ علي فتأذن لي بأن أستريح لحظةً إلى جانبك ، أما الاعمال التي شرعت فيها فسانهيها إثر ذلك .

إن قلبي المحروم من التطلع إلى وجهك لا يعرف راحةً ولا استقراراً ، وان جهدي ليس إلا عناءً متصلاً في بحر من العناء غير محدود .

اليوم وافى الصيف إلى نافذتي ، مصحوباً بزفراته وهمساته ، وشرعت النحلّات المتسابقة تغازل الباقة المزهرة .

أزف وقت الاستجمام ، ووجهي قبالة وجهك ، وحن وقت الغناء الذي تُنذر له الحياة ، في ذلك الصمت وذلك الفراغ الخصب .

أقطف هذه الزهرة الصغيرة ، أمسك بها سريعاً ، لنلا يدهمها الذبول
وتتناثر أفوافها في التراب .

وإذا لم تحظ بمكانٍ من إكلييك ، فلا تضنّ عليها ، مع ذلك ، بشرف
اللمسة الموجهة من يدك : اقطفها .

أنا أخشى أن يتصرّم النهار قبل أن اعرف ذلك ، وقبل أن يفوت وقتُ
تقديم الهدايا .

ورغم ان لون هذه الزهرة ناصلاً نحيلٌ ، ورائحتها وانيّةٌ ، فخذها لخدمتك
واقطفها في أوانها .

لقد تجردت أغنيتي من حليها ، فلن تُزهى بها بعد الآن ، ان الحلّي قد
يعيق اتحادنا ويفصل بيننا ، فالجلبة التي تخلص من وسوسته قد يطفئ على
همساتك .

ان زهوي كشاعر ينكفي من الخجل أمام نظرتك ، آه أيها المعلم
الشاعر ، لقد اتخذت مجلسي بحذاء قدميك ذرني اجعل حياتي بسيطةً
مستقيمةً شبيهةً بقصبة الناي حتى تقدر أنت أن تملأها بموسيقاك .

ان الطفل الذي يرتدي ثوب الإمارة ، ويضع حول عنقه الاطواق ، ويفقد
لذته كلها في اللعب . فان ثوبه يعيق كل خطوة يخطوها .

انه لينتبد مكاناً بعيداً ، لا يجرؤ ان يريم ، خشية ان يبلى ثوبه وان يعلو خليه الغبار .

اماه . ايجدر به ان يكون حبيس هذا الترف ، بمنأى عن غبار الأرض النافع ؟ أفما تحرمينه هكذا من حق مشاركته في العيد العظيم من الحياة الانسانية المشتركة ؟

٩

ايها المخبول الذي يحاول ان يحمل نفسه على كتفيه ، ايها المتسول الذي يقدم ليستجدي من باب بيته نفسه .

ضع اعباءك بين يدي من يستطيع ان يحمل كل شيء واياك أن تلقي بنظرة حسيرة إلى خلف .

ان اشتهاك يطفئ شعلة المصباح إما لامستها أنفاسه ، انه مدنس ، فلا تقبل أي عطاء تعرضه يداه الملوثتان ، وارض بما يقدمه إليك الحب المقدس فحسب .

١٠

ههنا المتكأ الذي تستريح فوقه قدماك ، حيث يعيش ذو المتربة والحقير والضائع .

حين احاول أن انحني امامك ، فإن طاعتي لن يتأتى لها الوصول إلى ذلك الغور العميق ، حيث تستريح قدماك بين الفقير والحقير والضائع .

حيث لا تُزهى الكبرياء ثمة تسير أنت ، في شملة المتواضع ، بين الفقير والحقير والضائع .

ان قلبي لن يجد سبيله نحو من ترافقهم بل نحو من لا رفيق لهم ، بين
الفقير والحقير والضائع .

١١

اصدفُ عن تراتيلك وذُرْ غناءك واهجر سبحتك ، من ذا الذي تتعبد له
في تلك الزاوية المظلمة من معبدٍ نوافذه كلها مغلقة ؟ افتح عينيك وانظر لترى
ان الله ليس امامك ، وهنا .

إنه هناك ، حيث الفلاحُ يحرث الأرض الجاسية ، وعلى طول الطريق ،
حيث يجهد العامل في كسر الحجارة انه معهما ، بثيابه المعفرة ، تحت أشعة
الشمس ووابل المطر ، انضُ معطفك التقي واهبط مثله ايضاً إلى التراب .
الخلاص ؟ أين تزعم انك تجدُ الخلاص ؟ أفلم يُغنَ مولانا نفسه وهو
مغتبطٌ ، بروابط الخلق ؟ لقد اتصل بنا إلى الأبد .

اترك تأملاتك ودع زهورك وبخورك ، ماذا يضر إن تمزقت ثيابك أو
تلوثت ؟ اذهب وألزم جانبه في جهدك وفي عرق جبينك .

١٢

إن الوقت الذي تستغرقه رحلتي طويلاً ، فالدرب طويلة . لقد خرجتُ
وعلوتُ المركبة ، عند انسياب أول شعاع من النور ، وتابعت سفري في قفار
الدى ، تاركاً أثري فوق شتيت النجوم والكواكب .

إن أبعد مرحلة هي التي تجعلني أكثر دنواً منك ، وإن أكثر الانغام
التيائناً هي التي تقودُ إلى بساطة اللحن الكاملة .

على المسافرين ان يقرع مختلف الأبواب قبل ان يصل إلى بابه ، ينبغي له

الضرب في جميع العوالم الخارجية حتى يصل أخيراً إلى أعماق المعبد .
لقد تركت عيني تنظران بعيداً ، فترة طويلةً ، قبل أن أغمضهما وأقول :
أأنت هنا ؟

هذا السؤال ، هذا النداء : آه أين هو ؟ ذاب في دموع آلاف الجداول
وغمر العالم في موجة هذا اليقين : هأنذا .

١٣

ان النشيد الذي كان علي أن أغنية ، لم تهتف به شفتاي حتى اليوم ،
لقد امضيتُ أيامي في ضبط أوتار معزفي واراخائها .
لم يتأت لي الوقوعُ على الضرب الصحيح ، فالألفاظ لم تكن متساوقة
جيداً ، غير أنه قد تبقى في قلبي احتضارُ أمنية .
إن البرعمَ لم يتفتح ، بيد ان الهواء ينسمُ قربهِ .
لم أرَ وجهه ، لم أعرُ اذني إلى صوته ، لكنني سمعت خفق خطاه الهادئة
أمام بيتي .

إن نهار حياتي كله قد انقضى ، وأنا أعِدُّ في بيتي مكانَ جلوسه ولكن
المصباح لم يشعل ولا أقدرُ أن أدعوه إلى دخول بيتي .
انني أحيأ على تعلّة لقائه ، بيد أن هذا اللقاء لم يتسق بعد .

١٤

ان رغباتي جمّةً وشكاتي قمينةٌ بالثرء ولكنك تنقذني دوماً برفضٍ
متصلٍ قاسٍ ، وقد حيكت هذه الرحمة القاسية طوال حياتي كلها .
انك تهينني ، يوماً بعد يوم ، لأكون جديراً بهذه العطايا الكبيرة

الساذجة : - السماء والنور والجسد والحياة والفكر - التي تقدمها إليّ عفواً
والتي تقيني مخاطر الرغبة الجامحة .

وإنني لأتخلف حيناً وقد استبدّ بي السأم واستيقظ حيناً آخر فأبادرُ
بالسعي خلف هدفي ، ولكنك تتواري عن وجهي في قسوة .
انك تهينني ، يوماً بعد يوم ، لأكون جديراً بلقائك كله وذلك برفضك
إياي دوماً ، وانقاذك إياي من مخاطر الضعف والرغبة المتقلّبة .

١٥

إنني ماثلاً هنا ، لأهزجَ لك بالأغاني ، ان لي في هذه الغرفة التي
تخصك ، مكاناً اتخذ مجلسي فيه .
ليس لديّ أيّ عمل أقوم به في عالمك ، إن حياتي العقيمة لا تعرف إلا
أن تتسلسل انغماً لا غاية لها .
حين تأزف ساعة صلاتك الصامته في حلقة معبد منتصف الليل ، مرني
يا مولاي ، أمثل أمامك لأغني لك .
حين يُعدّ المعزف الذهبي ، عند هبوب نسيم الصباح ، هب لي شرفاً
استدعائك إياي .

١٦

لقد تلقيت دعوتي إلى عيد هذا الكون ، وهكذا ظفرت حياتي بالبركة .
لقد رأت عيناى وسمعتُ أذناي .
لقد كان نصيبي من هذا العيد ان أضرب على معزفي وقد قمت بكل ما
كان في مقدوري أن أفعل .

وإنني لأسأل الآن : تُرى أيوافي الزمن الذي أستطيع فيه أن أقدم وأنظر
إلى وجهك وأزجي إليك تحيتي الصامتة ؟

١٧

إنني انتظر الحب فحسب ، لأهب نفسي بين يديه ولهذا فقد فات
الوقت ، ولهذا فقد أضحيت مسؤولاً عن مثل هذا التخلي .
انهم يأتون بقوانينهم ونظمهم ليقيدوني ، ولكنني انجو منهم دوماً ، اذ
انني انتظر الحب فحسب لأهب نفسي بين يديه .
يلومني الناس ويرمونني بالاهمال ، انني لا اشك في أنهم محقون في اللوم .
لقد مضى يوم البيع والشراء ، وتمت صفقة الأعمال ، إن الذين
يطالبونني ، عبثاً ، قد انكفأوا غاضبين ، انني انتظر الحب وحده . لأهب
نفسي ، أخيراً ، بين يديه .

١٨

إن شتيت الغمام يزحم بعضه بعضاً ، السماء مظلمة ، آه أيها الحب ، لِمَ
تركنتني وحيداً انتظر أمام الباب ؟ .
في زحمة عمل النهار أكون مع جموع الناس ، بيد أنني في يوم مظلم
موحش كهذا اليوم ، لا أتمنى سواك .
إذا لم ترني وجهك ، وتخلّيت عني ، فإنني لا أدري كيف أمضي هذه
الساعات الطويلة الممطرة .
وأبقى لأتأمل في ظلام السماء المنتشر ، وقلبي الشاكي يرود ، دون
راحة ، مع النسيم .

إن لم تتكلم ، فسأتحمل ، في الحق ، صمتك ، وسأملأ به قلبي .
 سأنتظر ساكناً ، في الليلة المتلامحة النجوم ، ورأسي حانٍ مطرق .
 سيقبل الفجر ، بلا ريب ، وستنقشع الظلمة ، وسيسيل صوتك في
 رعشات مذهب تنسرب عبر السماء .
 حينذاك ، ستساق كلماتك في أغنيات حول أي عش من أعشاشي
 وتتشقق أغنياتك زهوراً في جميع منعطفات غاباتي .

في اليوم الذي تتنور فيه زهرة اللوتس ، فإن فكري وأسفاه ، سيهيم في
 مغامرته دون أن يتاح لي أن أعقله^(١) .
 كانت سلتني فارغة ، فظلت الزهرة مهملة .
 غير أن حزناً كان يستبدُّ بي أحياناً ، فكنت استيقظ من حلمي ،
 مرتعداً وكنت اتنسم الأثر الناعم الذي يتركه العطر العجيب في ريح
 الجنوب .
 كانت هذه النعومة المبهمة تجعل قلبي مريضاً بالرغبة وكان يخيّل إليّ ،
 انني اتقرّى فيها زفرة الصيف المتقد وهو يجهد مستشرفاً كماله .
 لم اكن أعلم أن كل هذا كان دانياً قريباً ، وأن ذلك كان لي ، وأن هذه
 العذوبة الكاملة قد تفتحت في أغوار قلبي .

عليّ أن أدفع زورقي : ان الساعات المضنية تمرُّ على الشاطئ
- وأسفاه - من أجلي .

لقد أتى الربيع الطلقُ ثم ولى ، وأنا الآن مثقلٌ بالزهور الداوية الذابلة ،
انتظر واتخلف .

لقد أضحت الأمواج صخّابة ، ووراء الضفة ، ترتعش الأوراق الصفرة
وتتساقط في الدرب الظليلة .

في أي فراغ تتأمل ؟ ألم تشعر برعشة تجوز الفضاء وتواكب أنغام
النشيد البعيد الذي يتناهى من عُدوة الشاطئ الآخر ؟

في الظلال الممتدة من شهر تموز الممطر ، تسير أنت منسرق الخُطأ ،
كُتوماً كالليل ، متحاشياً كل العسس .

اليوم اغمض الصباح جفنيه ، غير ملتفت إلى نداءٍ ملحاحٍ من ريح
الشرق ، وانتصب شراعٌ صفيقٌ في السماء الصاحية الزرقاء .

لقد خنقت الغابات أغنياتها ، وأوصدت أبواب كل بيت .
في هذا الشارع المقفر ، انت العابر المنفرد ، آه يا رفيقي الوحيد ،
يا حبيبي الأثير ، إن أبواب بيتي قد فُتحت فلا تذهب وتنتسخ كالحلم .

يا رفيقي ، هل كنتَ خارج البيت في هذه الليلة العاصفة ، متابعاً

رحلة حبك العاشقة ؟ ان السماء تنحبُ كالولهي اليائسة .
يا رفيقي ، لم يجد النعاس ، الليلة سبيلاً إلى جفني ، في كل لحظة ،
افتحُ الباب واتقرى الظلمات بعيني .
لا ألمح شيئاً أمامي ، وانني لأحار أين تمتدُ دربك . يا رفيقي ، تُرى
حول أي ضفة مبهمه من النهر الأسود كالمداد ، وفي أي طرف قصي من
الغابة المتوعدة تنشد طريقك لتأتي إليّ ؟

٢٤

إذا انقضى النهار وتوقفت العصافير عن لغوها وانهدتِ الرياح المتعبة ،
فاسدل فوقي قناع الظلام مثلما سربلتِ الأرضَ بسجوف النوم ، وأطبقت في
رأفة وحنان ، أفواف زهرة اللوتس الوانية في غسق الليل .
أبعد الخزي والفقر عن المسافر الذي فرغ مزوده^(١) قبل أن يتم رحلته ،
عن المسافر الذي تهلّلت ثيابه وتعفّرت ، عن المسافر الذي تخاذلت قواه ،
وحَدّد حياته كالزهرة حين يشتملها ليلاً اللطيف الرقيق .

٢٥

في ليلة الضجر ، اسمح لي بأن أستسلم ، دون عناء إلى الرقاد ، ودع
ثقتي تستمسك بك . لا تسمح لفكري المضني بأن يهيىء لك عبادة تافهة .
أنت وحدك الذي يسدل قناع الليل على عيون النهار المتعبة لتتجدد
غضةً جذلي في يقظتها .

(١) المزود : ما يوضع فيه الزاد .

لقد جاء وجلس إلى جانبي ولكنني لم أستيقظ ، فلتحل اللعنة على ذلك الرقاد ، آه يا لي من بائس!
لقد جاء حين كان الليل ساجياً ، وكان معزفه بيده وجعلت أحلامي كلها تناعم أغنياته .

واحسرتي ، لماذا أصبحت ليالي كلها هكذا ضائعة ؟
آه ، لماذا يتوارى عن ناظري دوماً ذاك الذي تدغدغ أنفاسه رقادي ؟

النور ؟ آه أين النور ؟ ليمتلئ النور حياةً من نار الرغبة المتأججة .
هذا هو الصباح ولكن لا ترتعش فيه أي شعلة .
أهذا هو قدرك يا قلبي ؟ آه لعل الموت أفضل لك كثيراً .
ان البؤس يقرع بابك ورسالته إليك هي أن يكون مولاك ساهراً يقظان ،
وان يدعوك إلى موعد الحب ، عبر ظلام الليل .
السماء تغصُّ بركام الغيوم ، والأمطار لا تني أو تفتقر ، لا أدري ما
الذي يجيش في قلبي ولا أعلم ما يعنيه .
إن وميض البرق المفاجئ ، قد أزجى إلى عيني ظلمةً ممتدةً ، وان قلبي
يبحث عن الدرب التي تناديني منها موسيقا الليل .
النور ؟ آه أين النور ؟ ليمتلئ النور حياةً من نار الرغبة المتأججة .
الرعد يتهزّم والرياح تهبُّ عبر المدى مزمجرة ، الليل داجٍ كالحجر الأسود .
لا تدع الساعات تمر في الظلمة ، وأشعل مصباح الحب من قبس حياتك .

ان عقباتي لعنيدة ، وان الألم ليحزُّ في قلبي حين احاول أن اذلها .
 انني احتاج إلى الخلاص فحسب ، بيد انني استشعر الخجل إما تمنيته .
 انني موقنٌ ان في نفسك غنى لا يمكن تقديره وانك أثر رفيق لدي ،
 غير أنني لا أجرو على أن أزيل من غرفتي بهرجة الرياش التي تملؤها .
 ان الكفنَ المسدلَ فوقى هو كفن الترابِ والموت وانني لأكرهه ،
 ولكنني أشده وأجذبه إليّ بشغف ووجد .
 ديوني جمّة وخيبتى متصلةٌ وخجلي ثقیلاً خفيّ ، بيد أنني أرتعش ، حين
 أقبل مطالباً بشروتي ، خشية أن لا تلبي طلبتي .

إن اسمي هو سجنٌ يبكي فيه من أحبسه بين جدرانهِ أنني أعنى دوماً ،
 برفع صرح حول نفسي ، وحين يسمق هذا الصرح ، متطاولاً ، يوماً فيوماً ،
 فإنني أضيع عن ناظري في ظله المظلم ، وجودي الحقيقي .
 وانني لأتبه فخراً بهذا الصرح الكبير ، وأرمم أطرافه بالتراب والرمل ،
 خشية حدوث ثغرة ، مهما تكن صغيرة
 ولكنني ، في كل هذه العناية التي احيط بها اسمي فانني أضيع عن
 ناظري وجودي الحقيقي .

لقد خرجتُ وحيداً ، لأذهب إلى هذا الموعد ، ولكن من الذي يتبعني في الظلمة الصامتة ؟

انني أبتعد متجنباً لقاءه ، غير أنني لم أنجُ من تعقبه ، انه يهيج الغبار بصلفه وزهوه ، ويواكبُ بصوته الصاخب كل كلمة ألهجُ بها .
إنه تلك (الأنثى) الحقيرة ، آه يا مولاي ، إنه لا يعرف الخجل ، ولكنني أخجل من مثولي على بابك بصحبته .

- أيها السجين ، قلْ لي اذن من الذي كَبَلَك بالقيد ؟ وقال السجين :
- إنه معلمي... لقد كنت احسب ان في استطاعتي أن أفوق أي إنسان في هذا العالم ثراءً وسلطاناً وكنت أحتج^(١) ، في مخبأ كنوزي ، كل المال الذي كان عليّ أن أؤديه إلى ملكي ، فلما غلبني النوم ، تمددتُ فوق السرير الذي أعدّ لمعلمي ، فلما استيقظتُ ألفتُني سجيناً في مخبأ كنوزي .

- أيها السجينُ قلْ لي من الذي صنع هذا القيد الذي لا يتحطم ؟
وقال السجينُ :

- أنا الذي صنع هذا القيد ، بعنايتي ، وكنت أحسب ان سلطاني الغلاب سيشدّ العالم الأسير ، مثبتاً إياه ، ومتيحاً لي حرية لا يكدر صفوها شيء .

وهكذا كنت ، لا أني اصنعُ القيد ، ليلاً ونهاراً ، وأسويهِ بنارٍ متأججة
وضربات قاسية ، فما كاد ينتهي العملُ وتتماسك حلقاتُ القيد حتى الفيتني
أنا الذي كُبلتُ به .

٣٢

أولئك الذين يحبونني في هذا العالم ، يحاولون بجميع الوسائل ، أن
يجعلوني بمأمنٍ ، وليس الأمرُ كذلك مع حبك الذي هو أكبر من حبهم ، فانك
تتركني حراً .

انهم لا يجروون أبداً على تركي وحيداً لئلا أنساهم ، ولكن الأيام
تتعاقب ، وأنت لا تبدو البتة ، وعلى أنني لا اذكرك في صلواتي ، وعلى أنني
لا أجذبك للبقاء في قلبي فإن حبك لي مايزال ينتظر حبي .

٣٣

حين متع النهار ، أقبلوا على بيتي وقالوا :

- لن نشغل هنا إلا أصغر غرفة .

ثم قالوا :

- سنمدك بالعون في عبادة ربك ، وسنقبُع ، متواضعين راضين ، بنصيبٍ

من رحمته فحسب .

ثم انتحوا زاويةً من الغرفة وقبعوا فيها ، هادئين .

ولكن ، حين جَنَ الليلُ ، وجدتهم قد انتهكوا ، بجرأة وصخب وجشعٍ

دنيءٍ ، حرمة معبدي المقدس والفيت المذبح سليماً من قرابينه .

أبق لي بعض نفسي فحسب ، حتى يتيسر لي أن أدعوك : يا جماع نفسي .

أبق لي بعض ارادتي فحسب ، حتى يتيسر لي أن أشعر بوجودك إلى جانبي وأن أوافيك مع الأشياء كلها ، وأن أقدم إليك حبي في أي لحظة .
أبق لي بعض نفسي حتى لا يتأتى لي أن أخفيك .
أبق لي تلك الصلة الصغيرة ، صلة حبك ، التي تربطني إلى ارادتك والتي انسابت بغيثك بواسطتها إلى حياتي .

هناك ، حيث لا يلابسُ الفكرُ خوفٌ ، ويكون الرأسُ متلماً إلى العلاء .

هناك ، حيث تكون المعرفة حرة .
هناك ، حيث لم يجزأ العالم بين حواجز ضيقة مشتركة .
هناك ، حيث تنبثق الكلمات من أغوار الاخلاص .
هناك ، حيث الجهد الذي لا ينصبُ ، ويبسط ذراعيه نحو الكمال .
هناك ، حيث لا يضلُّ العقل النيرُ في الصحراء الموحشة من العادات البالية .

هناك ، حيث يتقدمُ الفكرُ - الذي تقوده أنت - في المدى الرحيب من الفكرة والعمل .

أجل ، في نعيم الحرية ، أبتاه ، دُعُ وطني يستيقظ .

هذه صلاتي إليك ، يا مولاي ، اضرب ، اضرب جذور ذلك الفقر في قلبي .

هب لي القوة لا تحمل في هينة ويسر ، آلامي وأفراحي .

هب لي القوة لأجعل قلبي مثمراً في خدماته .

هب لي القوة لأعمل على ألا أتكرّر للفقير وألا أثني ركبتني أمام السلطان المتحدّي .

هب لي القوة لأرقى بفكري بعيداً عن السفاسف اليومية .

هب لي القوة لأضع قوتي ، في شغف ، تحت ارادتك .

كنت أحسب أن رحلتي قد شارفت نهايتها ، حين توصلتُ إلى الحد الأقصى من سلطاني ، وأن الدرب الممتدة أمامي قد سدّت ، وأن ذخيرتي قد نفدت ، وإن الزمن قد أتى ليفيء إلى ظلام صامت .

بيد أنني اكتشفتُ أن ارادتك لا تعرف نهايةً في نفسي ، وحين تذوي الكلمات القديمة في اللسان ، فإن اغنيات جديدةً تتفجّر في القلب وحيث تمحي آثار الأقدام القديمة ، فإن أرضاً جديدة تتراءى بمعجزاتها الرائعة .

أنت الذي أريد ، أنت وحدك ، فليردّ قلبي هذا دون انقطاع .

إن كل لذاتي التي انعم بها ، ليلاً ونهاراً ، هي زائفةٌ حتى اللباب .

وكالليل الذي يخفي في ظلمته رغبة النور في الانبثاق . فان في أعماق شعوري تدوي هذه الصيحة : أنت الذي أريد ، أنت وحدك .
وكما تتشوّف العاصفة إلى نهاية هادئة ، حين تهب بجماع قوتها ، ضدّ الهدوء ، فإن ثورتني ، تهب ضدّ حبك وتدوي منها هذه الصيحة : أنت الذي أريد ، أنت وحدك .

٣٩

حين يكون القلب جاسياً جافاً ، فاهبط عليّ في شؤوب من الرحمة .
حين تفقد الحياة عذوبتها ، فأقبل عليّ في غناء هادر .
حين يرفع العمل الصاحب صوته في كل الأرجاء ، مبعداً إليّ عن هناك ، فتعال إليّ يا سيد الصمت بأمنك وراحتك .
حين يجثم قلبي المعنى ، لانذاً بزائوة ، فادفع الباب يا ملكي ، وأقبل في مهرجان ملكي . حين تُعشي اللذة فكري بسرابها وغبارها ، فتعال إليّ أنت أيها القدس الأوحّد ، أنت أيها اليقظ ، ببرقك ورعدك .

٤٠

آه يا رب ، لم يهطل المطرُ منذ أيامٍ عديدةٍ في قلبي القاحل ، ان الأفق قد غرّي بقسوة ، فليس فيه أيّ شيةٍ صغيرةٍ لسحابةٍ ولا إشارةٍ قريبةٍ إلى ديمةٍ رطبة .
ارسلْ عاصفتك مغيظةً كالحةً ، مفعمةً بالموت ، ان كانت هذه هي رغبتك ، وشقّ جنّات السماء بإلهاب برقك .
ولكن اذكرْ يا مولاي ، اذكرْ ذلك الحرّ المقيت الصامت الشديّد القاسي الذي يتلظى به قلبي اليائس .

ارسلُ الينا من أعلى سمائك ، سحابة العفو الشبيهة بنظرة دامعة من عيني الأم ، حين يكون الأب حائقاً .

٤١

يا حبيبي ، أين تقف خلفهم جميعاً ، موارياً نفسك في الظل ؟ انهم يدفعونك وهم يمرون في الطريق المغبرة ولا يعيرونك أي التفات .

انني أمضي ساعاتٍ مضية وأنا أقدمُ إليك قرابيني ، ولكن العابرين يأتون ليأخذوا زهوري ، زهرة فزهرة ، وعما قريب ستصبحُ سلتي فارغة .

لقد ولّى الصباحُ ، وانقضت الظهيرةُ ، ان عيني مثقلتان بالنعاس في ظلّ المساء ، ان الرجال الذين يؤوبون إلى بيوتهم يخالسونني النظر وبيتسمون فأمتلئ ، خجلاً ، انني اجلسُ مثل الفتاة المتسولة مدانية ذلاذل ثوبي^(١) إلى وجهي وحين يسألونني عما أريد فأنني أغضّ طرفي ولا أجيب .

آه كيف يمكنني ، في الحق ، أن أقول لهم إنك أنت الذي انتظرُ وأنت وعدتني بأن تأتي ؟ كيف أبوح لهم أنني قبلت فقري صداقاً ؟ آه انني أجذب كبريائي إلى حنايا قلبي .

إنني جالسةٌ فوق العشب ، أتأملُ في السماء ، واحلمُ بروعة مجيئك المفاجيء ، تحيطُ بك المشاعلُ وترفُ حول مركبتك أجنحةٌ ذهبيةٌ ، إنهم يقفون على حيد الطريق وقد فغروا أفواههم وهم يرون إليك تتركُ مجلسك وتنتشلني من التراب ، لتضعَ إلى قربك تلك الفتاة المتسولة المهلهلة الثياب ، وهي ترتعشُ خجلاً وزهواً ، كأنها عريشةٌ يجاذبها نسيمُ الصيف .

ولكن الزمن يتجرّم ولا أسمع دوماً ضجة عجال مركبتك ، وتترادفُ

(١) ذلاذل الثوب : أطرافه .

مواكبُ جمّةٌ ، يصحبُها ضجيجُ المجد وجلبته وسحره ، أفلا يوجد اذن سواك
من يود البقاء ، صامتاً ، في الظل ، خلفهم جميعاً ؟ أفلا يوجد إذن سواي من
تود البقاء والانتظار والبكاء وإجهااد قلبي بالأمل العقيم ؟

٤٢

عند منبلج الفجر ، تردّد همس أننا سنبحر في زورقٍ وإنه ليس ثمة
روحٌ في الكون تعلم عن رحلتنا التي لا غاية لها ولا نهاية .
في هذا الخضم الذي لا شاطئ له ، وعلى ابتسامتك الصامته اليقظي ،
فإن اغنياتي قد تمتلئ ، انغماساً ، حرةً كالأمواج ، حرةً من أسر الكلام .
ألم يحن الوقت بعد ؟ ماذا تبقى من العمل هنا ؟ انظر ، إن السماء قد هبطت
إلى الشاطئ ، وعلى النور الناصل ، هفت عصافير البحر ، طائرةٌ نحو أعشاشها .
ألم يحن الوقت للاقلاع ؟ فليغب زورقنا أخيراً ، كأخر شعاع من أشعة
الغروب ، في الليل .

٤٣

كان ذلك يوماً ، لم أكن متهيئاً فيه إلى لقائك ، ولقد وسمت يا ملكي
وأنت تدخل دون دعوةٍ إلى قلبي كشخص من غمار الناس ، مجهولٍ من
نفسي - لقد وسمت بطابع الخلود بعضَ اللحظات العابرة من حياتي .
والآن ، حين أعثر عليها ، مصادفةً وأرى فيها إلى ميسمك فإنني أجدها
مطروحةً في التراب ، منشورةً بين هناءات الأيام العادية المنسية وأحزانها .
إنك لم تهزأ بلبعتي ، لعبة الطفل ، فوق التراب ، وإن خفق الخطأ الذي كان
يتناهى إلى سمعي من غرفة طفولتي ، هو الذي يتجاوب صدهاء بين نجمٍ ونجمٍ .

تلكم هي لذتي : ان أنتظر وأرقب على عذار الطريق حيث يسعى الظل وراء النور ، ويوافي المطرُ في أعقاب الصيف .
ويحييني رسلُ قادمون بالاخبار من سماوات مجهولة ، ثم يغذّون السير في مدى الدرب ، إن حنايا قلبي ممتلئة بالغبطة ، ولهائُ النسيم العابر عبيقُ بالعدوبة .
من الفجر إلى الغروب أقف هنا ، أمام بابي ، انني أعرف ان اللحظة السعيدة ، ستقبل ، فجأةً ، حين يتيسر لي أن أرى .
ومع هذا ، فإنني أبسمُ وأغني ، في وحدتي ، ومع هذا فإن الفضاء معطرُ بشذا الوعد .

ألم تسمعُ خفق خطواته الصامته ، إنه آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، أبداً .
في كل لحظة ، في كل عمر ، في كل يوم وليلة ، هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، أبداً .
لقد غنيتُ أكثر من أغنية ، وعلى أكثر من ضرب ، ولكن كل نغمة منها ، كانت تنادي هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، دوماً .
في الأيام المضمخة بنيسان الضاحي ومن درب الغابة هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، أبداً .
في الليالي العاصفة المظلمة من تموز ، وعلى مركبة السحاب الصاخبة ، هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، أبداً .
اشعرُ بالهم يعقب ألماً ، تلك هي خطاه التي تضغط على قلبي وحين تتألق فرحتي ، ففي اللمسة المذهبة من قدمه .

انني لا ادري من أي الأزمان الخالية أنت تقدم إلى لقائي ، لتكون دوماً أكثر قرباً .

لن تقدر شمسك ونجومك أن تواريك عني إلى الأبد .

كم من صباح ومساءً ، تناهى فيهما خفق خطاك إلى السمع وتسَلَّلَ رسولك إلى قلبي ، وأسرَّ إليَّ نداءه .

انني لا أدري علامَ تبدو حياتي ، اليوم ، مستوفزةً نشوى ، وعلامَ تنسرب إلى قلبي فرحةً راعشة .

وكان الزمن قد قَدِمَ إلي ، لينهي عملي ، إنني استنشي في الفضاء أريجاً لطيفاً يضوع من وجودك العذب .

يكاد الليل أن ينقضي في انتظاره عبثاً ، انني أخشى أن يقدم فجأة ، في الصباح إلى بابي ، وأنا نائمٌ متعبٌ منهوك القوى .

آه أيها الرفاق ، دعوا الطريق لاجبةً أمامه ولا تصدوه .

وإن لم يوقظني خفق خطاه ، فلا تحاولا إيقاظي . أتمنى ألا يُرنقَ نومي بصداح الطير ولا بهينمة النسيم في نور الفجر الزاهي ، دعوني أغفُ ، في دعةٍ وهدوءٍ ، ولو أتى مولاي نفسه فجأة ، ومثل امام بابي .

آه ، يا غفوتي ، أيتها الغفوة الغالية التي تنتظر لمسته فحسب حتى اغيب .

آه ، ان جفني عيني المغمضتين ، لن ينفرجا إلا على نور ابتسامته ، حين يقف امامي كحلمٍ منبثقٍ من ظلمة النوم .

دعوه يظهر امام بصري كأول شعاع وأول شكل بين الأشعة والأشكال .

دعوه يقبلُ بنظرته ، عند أول رعشة من يقظة روحي واجعلوا عودتي
إلى نفسي تعقب ، على الفور ، عودتي إليه .

٤٨

كان الفجر الصامتُ الممتدُ كالبحر ، يرتعشُ بأغنيات الطيور ، وكانت
الزهور جذلى ، على حيد الطريق . ومن فرجات الغيوم ، كانت الاشعةُ
المذهبةُ تبذل خيرها ومع هذا فقد كنا نتخذ سمتنا في الطريق ، لا نغير
انتباهنا لشيء .

ولم نكن ننشدُ أغنية فرحى أو نلهو ، ولم نكن نذهب إلى القرية
لنتكسب ، ولم نكن نتبادل أي كلمة بله أي ابتسامة ، ولم نكن لنتخلف في
الطريق ، فكنا نحثُ خطانا ونغذُ السيرَ والزمنُ يدفعنا .

واحتلت الشمسُ كبدَ السماء ، وجعلت طيور اليمام تهدلُ في الظل ،
وكانت ورقاتُ جافةً تتراقص وتتهاوى في ريح الظهيرة ، وكان الراعي الطفل
يهوم ويحلم في فيء شجرة التين ، وقد استلقيتُ على ضفة الماء ووسدت
اطرافي المرتهكة^(١) على العشب .

وضحك مني رفاقي وأتلعوا رؤوسهم ، وقد ملأهم الاحتقار ثم مضوا دون ان
يصيبوا راحة أو يلقوا نظرهم إلى خلف ، لقد اختفوا في زرقة الفضاء الغائم البعيد .
لقد جازوا سهولاً وفرعوا ربىً ، وضربوا في بقاعٍ من الأرض غريبةٍ نائية .
المجد لك يا كتيبة الابطال ، في الدرب التي لا تنتهي .

لقد غمز الهزءُ مني فنهضت على الاهانة ، بيد أنني لم أجد شيئاً أردُّ
به ، واستسلمت ، وقد شملني خزيٌ هنيئٌ ، إلى ظل فرحةٍ قاتمة .

(١) المرتهكة : المسترخية من التعب .

ان راحة الحلقة الخضراء الموشاة بأشعة الشمس تتسلل كسلى الى قلبي ، لقد نسيتُ لِمَ رحلت وتركت فكري يستسلم دون مقاومة الى شبكة الظلام والاحلام .

ولما فتحت أخيراً عيني واستيقظت من غفوتي ألفتك منتصباً أمامي ، وقد غمرت رقادي بابتسامتك .

لكم خشيتُ أن تكون الطريق طويلةً شاقّةً . وان يكون الجهد المبذول في الوصول إليك صعباً قاسياً .

٤٩

من أعلى عرشك هبطت ، وامام باب كوشي الصغير وقفت .
وغنيت وحدي ، في زاوية ، فتأدّت أغنيتي إلى أذنك ، وهبطت من عل ، ووقفت امام باب كوشي .

ان المغنين في قصرِك كُثُرٌ ، والأغاني ترتلُ في أي ساعة ، غير أنه قد استهواك ذاك الغناء الساذج ، ينشده هذا الراهب الصغير .
وامتزج ايقاعُ شاكٍ خفيضٌ بموسيقا الكون الكبيرة ، فهبطت مع زهرة ، كجائزة سنية ، وقفت امام باب كوشي .

٥٠

لقد مضيت استجدي من باب إلى باب ، على طريق القرية ، حين لاحت مركبتك الذهبية من بعيد كأنها حلمٌ رائعٌ ، وجعلت أرامق بإعجاب ، ذاك الذي كان ملك الملوك .

ورفت تعلاتي فكنت أفكر في أن أيام بؤسي قد انقضت ، وهأنذا أنتظرُ

العطايا العفوية والخيرات الماثورة ، هنا وهناك على التراب .
وتوقفت المركبة حيث كنت انتصبُ ، وصافحتني نظرتك ، فنزلت وأنت
تبتسم ، وشعرت أن حظ حياتي قد أقبل أخيراً ، ومددت فجأة ، يدك
اليمنى ، وقلت : ماذا لديك من عطاء ؟
آه ، أي عبث ملكي في بسطك راحتك الى المتسول لتستجدي منه ! ولقد
ارتبكت وحررت ، ثم تناولت ، في خفة ، حبة قمح صغيرة من جرابي واعطيتك اياها .
ولكن... كم كان عجبي كبيراً ، آخر النهار ، حين وجدت ، وأنا أفرغ
جرابي على الأرض حبة صغيرة من الذهب بين كوم من الحبات الحقيمة
وبكيت أحرّ بكاء ، وتمنيت لو أنني أوتيت الجرأة لأهب لك نفسي كلها .

٥١

دجا الليل ، وانتهى عملنا اليومي ، وكنا نحسب ان آخر ضيف قد
قدم ، الليلة ، وان الأبواب كلها ، في القرية ، قد أوصدت ، بيد أن قائلاً
قال : ان الملك بسبيل القدوم .
فضحكنا وقلنا : حسنٌ غير أن هذا غير ممكن .
وكان يخيل إلينا ان الباب يقرع فكنا نقول : هي الريح ولا شيء ،
سواها .
وأطفأنا المصابيح ، وخلدنا إلى النوم ، بيد أن قائلاً قال : ها هو ذا
الرسول .
فضحكنا وقلنا : بل هي الريح .
وترددت جلبةً ، في موهنٍ من الليل ، فكنا نحسبها ونحن نائمون ،
هزيم الرعد البعيد ، وارتجت الأرض ومادت الجدران ، واضطربنا في رقادنا ،
غير أن قائلاً قال : إن هذا هو ضجيج العجال .

وهمسنا : لا ، بل انه وعيد الغيوم .

وكان الليل طاعياً ، حين قرع الطبل ، وتناهى إلينا صوتٌ يقول :
استيقظوا ولا تضيعوا وقتاً .

وشددنا أيدينا الى قلوبنا ، وارتجفنا هلعاً ، وقال قائل : انظروا ، ها هي
ذي راية الملك .

ونهضنا وجلين وهتفنا : ليس ثمة وقتٌ نضيّعه .

وقدم الملك ، ولكن أين الأنوار ؟ أين الأكاليل ؟ أين العرش الذي يتخذ
مجلسه فوقه ؟

يا للعار! يا للعار الشديد! أين القاعة ؟ وأين الزينة ؟ وقال قائل : ما نفع
النحيب ؟ حيّوه بأيديكم الفارغة واستقبلوه في غرفكم العارية كلها .
افتحوا الأبواب ، ولتتهتف الأبواق ، لقد أتى ملك في موهن من الليل ،
من بيتنا المظلم .

الرعد يتهزّم في السماء ، والحلكة يرعشها البرق ، هاتوا البساط الممزّق
ومدوه في فناء الدار ، لقد أقبل ملكنا فجأة مع العاصفة ، وفي الليلة الرهيبة .

٥٢

كنت اود أن اطلب اليك واستهديك - بيد أنني لم اجرؤ - عقد الزهر
الذي كنت تطوق به جيدك ، وهكذا فقد انتظرت في الصباح رحيلك ، لأجد
اثارةً منه على سريرك ، وكالمتسولة جعلت أستجدي عند الغسق ، ورقة أو
ورقتين من زهرة .

مسكينه أنا ، ماذا لقيت ؟ أي ضمان تركه لي حبك ؟ انه ليس بزهره ،
ولا بقارورة طيب أو عطر ، انه سيفك القوي ، المتألق كاللهيب ، الثقيل
كالصاعقة . ان شعاعة الفجر الفتية ، تتسلّل من النافذة وتتطامن من فوق
سريرك ، وعصفور الصباح يلغو ويتساءل :

- أيتها المرأة ماذا لقيت ؟

لا ، انه ليس بزهرة ولا بقارورة طيب أو عطر ، رباه إنه سيفك الرهيب .
واجلس متأملة ، وأعجب ، أي عطاء منحته ؟ إنني لا أجد مكاناً أواريه
فيه ، واستخذي وأنا بعد طرية العود ، نحيلةً ، أن أحمله معي ، وإنه
ليجرحني وأنا أضمه إلى صدري ومع هذا ، فعليّ أن أحمل في قلبي هذا
الشرف الذي قلدتنيه في عطائك المثل بالآلم .

لن أبلو ، بعد الآن ، أي خوف في الدنيا ، وفي أي خلاف يقوم بيننا
ستكون أنت دوماً المنتصر ، لقد تركت لي الموت رقيقاً ، وسأكلل به
حياتي ، إن سيفك هو معي لأفري به قيودي ، ولن أبلو ، فيما بعد ، أي خوف
في الدنيا .

منذ الآن ، سأعزف عن أي زينة باطلة يا سيد قلبي ، لن اعرف
الانتظار ، ولا البكاء بنجوة من الناس ، لن اعرف التحفظ ولا لطف التكلف ،
لقد اعطيني سيفك لازدان به ، فما لي الآن وزينة الدُمى ؟

٥٣

رائعٌ سوارك المحلّى بالنجوم ، المرصع بآلاف الجواهر المختلفة الألوان ،
ولكنني أجد سيفك أروعَ منه بظبته المحنية الشبيهة بطائر (فيشنو) الالهي ،
وقد بسط جناحيه ، واستوى فوق أشعة الغروب المخضبة الثائرة .

انه يرتعش كأنه آخر جواب . الحياة تنتفض ، وهي في نشوة آلامها ،
انتفاضة الموت الأخيرة ، انه يتألق كأنه شعلة الوجود النقية وهي تلهب
بوميضها المتّقد ، إحساسنا الأرضي .

رائعٌ سوارك المرصع بالجواهر النجمية ، أما سيفك - اه يا سيد الرعد -
فهو مصنوعٌ من جمالٍ أخاذٍ يرهبه النظر والفكر .

لم أسألك شيئاً ولم أخذش أذنك باسمي ، وحين تركتني بقيت صامتة ،
وكنت وحيدة قرب النبع ، حيث بسطت الشجرة ظلها المنحرف ، وقد قفلت
النساء ، عائدات إلى بيوتهن ، بعد أن ملأن جرارهن السمر الترايية ، وكنّ
ينادينني ويهتفن :

- تعالي معنا ، فالفجر قد مضى ، وحان وقت الظهيرة ،
ولكنني كنت اتخلف في فتور ، وأنا مستغرقة في تأملاتٍ مبهمه .
ولم أسمع وقع خطاك ، حين قدمت ، وكانت عيناك حزينتين ، حين
تطامنت نظراتك نحوي وكان صوتك متعباً خفيضاً حين قلت لي :
- آه ، أنا المسافر الظامى .

وانتفضت من أحلامي وتأملاتي وسكبت من جرتي الماء في راحتيك
المضمومتين وكانت الأوراق فوقنا ترتعشُ وطائر (الكوكو) يغرد في الظلمة
الخفية ، وكان شذا زهور (الببلا) يوافينا من منعطف الطريق .
وظللت صامتة خجلى ، حين استوضححتني عن اسمي ، ماذا عملت ، في
الحق ، حتى تتذكرني ؟ ولكن ، إمّا خطر في بالي ، انه قد تيسر لي أن اروي
ظمأك ، فإن هذه الفكرة تهصر قلبي ، وتلفّه بعدوبةٍ ناعمة .
لقد ولّى الصباح ، والطائر يردّد تغريده الرتيب ، واوراق شجر (النيم)
ترتعش فوقي ، وأنا جالسة أتأمل وأتأمل .

لايزال السأم يستبد بقلبك ، ولايزال النعاس يجاذب عينيك .
ألم تسمع بأن الوردة تُزهى رائعة كالملكة ، بين الاشواك ؟ استيقظ ، آه

استيقظ ، ولا تذر الوقت يمر عبثاً .

في نهاية الدرب الوعشاء وفي بلد الوحدة العذراء ، يجلس رفيقي ،
وحيداً فلا تخيب انتظاره ، استيقظ ، آه استيقظ .

إذا خفقَ الفضاء ، وارتعش في حر الهاجرة ، وإذا مدّت الرمال سربالَ
الظما...

أفلا تشعر بالفرح في أعماق قلبك ؟ أفلا يرددُ معزفُ الطريق على وقع
كل خطوة من خطاك موسيقا الألم العذبة ؟

٥٦

وهكذا فان الفرحة التي تحظى بها مني هي مفعمةٌ ، وهكذا فقد هبطتَ
نحوي ، آه يا رب يا مالك السماوات ، لو لم أكن موجودة فأين يتجلى
حبك ؟

لقد اتخذتني شريكاً لك في هذا الغنى كله ، وفي قلبي لاتني سعادتك
تلهو ، ان ارادتك تتجسد دوماً في حياتي...

ولهذا فقد ازيّنتَ بالجمال - أنت يا ملك الملوك - لتأسر قلبي . ولهذا
فإن حبك يذوب في حب حبيبك ، وانك لتبدو هنا حيث يكون اتحاد الاثنين
تاماً .

٥٧

أيها النور ، يا نوري ، أيها النور الذي يغمر الكون أيها النور ، يا قبلة
العيون ، أيها النورُ يا عذوبة القلب .

آه يا حبيبي ، إن النور يرقصُ في مركز حياتي ، ان حبي ، يا حبيبي ،

يتجاوب ، مع دفقة النور . السماوات تنفسح ، والرياح تهبُّ عاتية ، وعلى الأرض تعبر ضحكة .

يا حبيبي ، على بحر النور تبسط الفراشة جناحيها ، وعلى ذرى أمواج النور يتلألأ الزنبق والياسمين .

يا حبيبي ، النور يذرُّ الذهب فوق كل غيمة ، وينثر الجواهر في جودٍ وخصبٍ وانسابٍ غبطةً من ورقة إلى ورقة ، يا حبيبي ، وامتد جبورٌ متصلٌ لا حدَّ له .
ان نهر السماء قد فاض على الضفاف ، وجازت موجة الفرح كلها الحفافي .

٥٨

فلتسقُ في نشيدي الأخير كلُّ انغام الفرح ، الفرح الذي يهيب بالأرض ان تمرع العشب الغزير الخصب ، الفرح الذي يجعلُ هذين التوأمين : الموت والحياة ، يتراقصان ، في الأرض الرحيبة ، الفرح الذي يسوق العاصفة ، وهو يهزُّ الحياة كلها بضحكة ، الفرح الذي يفيء إلى دموعه ، في زهرة (لوتس) الألم المنورة الحمراء ، الفرح الذي ينفذ كلَّ ما لديه إلى التراب ولا يعرفُ أيَّ كلمة .

٥٩

أجل يا حبيب القلب ، إنني أعلم ذلك ، إن هو إلا حُبُّك ، هذا النور المذهب الذي يرقص فوق الأوراق ، وتلك الغيوم الكسلى التي تسعى في السماء ، وذلك النسيم العابرُ الذي يترك رطوبته فوق جبيني .
إن نور الصباح قد غسل عينيّ ، تلك هي رسالتك الى قلبي ، فانحنى طلعك من عل ، وغابت عينك في عيني ولا مس قلبي قدميك .

على شاطئ، الدنى غير المتناهية يجتمع أطفال ، السماء غير المتناهية تنفسح ، هادئة فوق رؤوسهم ، والموج الموار يصطخب . على شاطئ الدنى غير المتناهية ، يجتمع اطفال ، هاتفين راقصين .

انهم يبنون بيوتهم من الرمل ، ويلهون بالاصداق الفارغة ، انهم يصنعون من الأوراق الجافة قواربهم ، ثم يدفعونها باسمين ، إلى المدى العميق ، على شاطئ، الدنى يفرع اطفال إلى اللعب .

ويشربُ البحر مرتفعاً ، مطلقاً ضحكة ، ويشعشع وهو شاحب بسمة الشاطئ ، وتغني الأمواج المترعة بالموت للأطفال أغنيات خاوية المعنى ، كأنها أم تهدد طفلها في المهد ، ويلعب البحر مع الأطفال ، ويشعشع وهو شاحب ، بسمة الشاطئ .

على شاطئ الدنى غير المتناهية يجتمع اطفال ، وتهيم العاصفة في السماء الخالية من الدروب ، لقد غرقت سفن في الماء ، دون ان تخلف أثراً ، وترود المنية ، ويلهو أطفال .

على شاطئ، الدنى غير المتناهية ، يلتئم أكبر جمع غفير من الأطفال .

- ان النعاس يرفرف على عيني الطفل الصغير ، - من يدري من أين قد وافى ؟

- أجل ، لقد قيل إنه كان يسكن في قرية الجن بين أفياء الغابة التي تضيء فيها بنور رقيق ، دويبات القطرب ، حيث يتفتح برعمان حيان ،

نشوةً وطرباً ، من هناك ، اقبل النعاس ليثم عيني الطفل الصغير .
 - ان الابتسامة تتألق على شفتي الطفل الصغير - حين يغفو - من يدري
 أنى قد ولدت ؟
 - اجل ، لقد قيل ان شعاعاً فتياً شاحباً قد انسلّ من الهلال فمسّ
 أطراف غمامة واهية من غمام الخريف ، هناك في حلم الفجر المخضّل
 بالندى ، ولدت الابتسامة المتألقة على شفتي الطفل حين يغفو .
 - ان النضرة العذبة الريّا تترقرق على أطراف الطفل الصغير - من يدري
 أين كانت خبيئةً من قبل ، أمدأ طويلاً ؟
 - أجل ، حين كانت الأم في ريق الصبا ، كانت ترقد ، وكانت تمتد
 وتتسلّل إلى قلبها ، بغموض المحبة الرقيق الصامت تلك النضرة العذبة الريّا
 التي تترقرق ، الآن ، على اطراف الطفل الصغير .

٦٢

متى احمّل إليك دُمىً ملونةً ، أدرك لماذا يلعب هذا المزيج من
 الألوان فوق الغيوم وعلى صفحة المساء ، ولماذا وشّيت الازاهير بالألوان -
 متى احمّل إليك دُمىً ملونة .
 متى انشدك لترقص ، أعرف حقاً ، لماذا تنسرب الموسيقى بين
 الأغصان ، ولماذا ترقيق الأمواج أصواتها المؤتلفة في قلب الأرض الصاغية -
 متى انشدك لترقص .
 متى أقدم الأشياء العذبة إلى يديك الجشعتين ، أدرك لماذا يكمن
 الشهد في أكمّام الزهر ، ولماذا تمتلئ الشمار خفيةً بهذا الرحيق السائغ ، -
 متى أقدم الأشياء العذبة إلى يديك الجشعتين .
 متى الشم محياك لأجعلك تبتمسم ، يا طفلي الحبيب . أفهم أي فرحة

تتسلل من السماء إلى رآد الضحى ، وأي لذة يزجيها نسيم الصيف إلى جسدي - متى أثمر محياك لأحملك على الابتسام .

٦٣

لقد عرفتني باصدقاء اجهلهم ، وادخلتني في منازل لا عهد لي بها من قبل ، وقد استقدمت البعيدَ فأدنيته وأخيتَ الغريب .
ان قلبي لَيَجِبُ ، حين ألفي أن عليّ أن أغادر مسكني فأنسى ، حينذاك ، أن القديم يمكثُ في الجديد ، وانك أنت أيضاً تمكثُ هناك .
عبر الولادة أو الموت ، في هذا العالم او في عوالم أخرى ، وحيث تقودني أنت فإنك أنت الرفيقُ الوحيدُ لحياتي اللامتناهية الذي يربط قلبي ، دوماً ، بأواصر الفرح إلى الأشياء الخارقة .
إن من يعرفك ليس بغريبٍ أو عدوٍ ، فليس ثمة بابٌ مغلقٌ ، آه استجب هذا الدعاء : لا تحرمني ذلك الحظَّ بأن ألمسَ واحداً بين اولئك اللاهين الكثيرين .

٦٤

على عدوة النهر الموحش ، وبين الأعشاب الطويلة سألتها :
- أيتها الفتاة ، إلى أين تذهبين ، واقيةً ، بمعطفك شعلة مصباحك ؟ ان بيتي لمظلمٌ مقفرٌ ، ألا أعيريني نورك .
ورامقتني بعينيها الكئيبتين ، وحدقتُ إليّ عند الغروب وقالت :
- لقد أقبلتُ نحو النهر لاستودع التيارَ مصباحي ، حين ينطفئ ، أختر شعاعٍ من أشعة الشمس في المغرب .

ولبثت وحيداً بين الأعشاب الطويلة ، أتأمل في تلك الشعلة الوانية التي
لا تني تحبو على الموج وفي صمت الحلقة الداجية ، سألتها :
- ان الأنوار كلها قد شعت ، إلى أين تذهبين بمصباحك ؟ ان بيتي
لمظلمٌ مقفرٌ ، ألا أعيريني نورك .
ورامقتني بعينيها الكئيبتين ولبثت مترددة ، لحظة ، ثم قالت :
- لقد جئت لأهدي مصباحي إلى السماء .
وبقيت ، ثمة ، أتأمل في تلك الشعلة وهي تذوي شيئاً فشيئاً في
الفراغ .

وفي ظلمة منتصف ليل غاب قمره سألتها :
- أيتها الفتاة عمّ تبحثين هكذا وأنت تحملين مصباحك قريباً من قلبك ؟
إن بيتي لمظلمٌ مقفرٌ ألا أعيريني نورك .
وتوقفت لحظة ثم فكرت وحدتني في الظلام وقالت :
- لقد حملت نوري هذا لأشترك في عيد المصباح .
ولبثت ، ثمة ، أتأمل في مصباحها الصغير يغيب شيئاً فشيئاً بين الأنوار .

٦٥

يا رب ، أيّ شراب الهي ترجوه من تلك الكأس الطافحة ، كأس حياتي .
يا شاعري ، أهي متعتك في أن ترى إبداعك بعيني وان تصغي صامتاً إلى
الحانك المنسجمة الأبدية على كفاف أذني^(١) ؟
إن عالمك يسلسل الكلمات إلى فكري فيجتنحها فرحك بالنعم ، وإنك
تستسلم إليّ حباً ووجداً ، وتجد في ذاتي عذوبتك الكاملة .

(١) كفاف الأذن : طرفها .

ان التي تسكن ، دوماً ، أغوار حياتي ، في ملس الظلام^(١) وشحوب
النور ، ان التي لم تسفر قناعها في نور الصباح ، ستغدو ، هديتي الأخيرة
إليك ، يارب ، وهي مَشْحَة بنشيدي الأخير .
ان الكلمات قد تودّدت إليها ، بيد أنها لم تستأثر بها ، ومدّ إليها
الإقناع يديه المتأججتين عبثاً .
وكنّت أتقل من بلد إلى بلد ، وأنا أحملها في شغاف قلبي ، وقد مار
حولها مدّ حياتي وجزره .
إنها تهيمن ملكةً على أفكارى وأعمالى ورقادي وأحلامي بيد أنها تنتبذ
مكانها منعزلة وحيدة .
كثيرون هم الذين طرّفوا بابي ، وسألوا عنها ، ثم عادوا يائسين .
لم يرَ احد وجهها ، وانها لتنتظر ، في وحدتها ، مقدمك لتتعرف
عليها .

أنت السماء وأنت العش أيضاً .
آه ، أنت البديع ، هنا في العش يحبس حبك الروح مع الألوان والأنغام
والطيوب .
ها قد وافى الصباح وفي يمينه سلّة ذهبيةً مثقلة باكليل الجمال لتزين به
الأرض في صمت .

(١) ملس الظلام : بين المغرب والعتمة .

ها قد اقبل المساء ، من دروب عذراء ، إلى المروج المنعزلة المقفرة
من القطعان ، حاملاً في جرتة الذهبية شراباً رطباً من السلام ، شراباً اغترفه
من ضفة بحر الراحة الغربي .

ولكن ، هناك ، حيث تنفسح السماء دون حدود ، لتستطيع الروح ان
تنبسط محلقة ، هناك تزهى الروعة ناصعةً بيضاء . ليس ثمة نهار ولا ليل ،
لا شكل ولا لون ليس ثمة كلام أبداً ، أبداً .

٦٨

على هذه الأرض التي أقيم فيها ينحدر شعاعك ، منبسط الذراعين ، ثم
يقف أمام بابي ، مدى نهار حياتي ليقطف شيات الغيوم ويزجيتها إلى
قدميك . تلك الغيوم المغزولة من عبراتي وزفراتي وأغنياتني .

إنك تسدل ، بلذة ناعمة ، وشاح الغيوم النديّ على صدرك المطرز
بالنجوم ثم تلقه وتطويه في شتيت الأشكال ، وتسبغ عليه ألواناً قلقةً
متغيرة .

إنه لخفيف ، لينٌ ، مليسٌ ، نديٌّ بالدموع ، قاتمٌ ، ولهذا فقد شغفت به
حباً ، أنت النقيُّ الصافي ، ولهذا فانك تخفي بظله الحنون ، نورك الأبيض
السامي .

٦٩

إن نهر الحياة نفسه الذي ينساب في عروقي ، ليلاً ونهاراً ، هو الذي
ينساب في الكون ويرقص على ايّاق موزون .

انها تلك الحياة نفسها التي تُنبِتُ فرحَها فوق أديم الأرض أعشاباً لا

عدادَ لها وتتدفقُ أمواجاً هادرة من الأوراق والزهور .

انها تلك الحياة نفسها التي يهددها المد والجزرُ في مهد بحر الولادة والموت .

أشعر بأن اعضائي قد تمجدتْ بلمسةٍ من عالم تلك الحياة ، وانني لفخورٌ بخفةِ حياة الأجيال وهي تتراقصُ ، الآن ، في دمي .

٧٠

هل يُتاحُ لك أن تبتهجَ بتذوق طلاوة ذلك اللحن ، وأن ترتمي وتغيب وتتكسرَ في عاصفة تلك الفرحة الهائلة .

كل شيءٍ يغدُ السير ، دون توقف أو تطلُّعٍ إلى خلفٍ ، دون أن يتسنى لأي قدرةٍ ان تعيِّقه . كل شيءٍ يغدُ السير .

واقبلتِ المواسمُ هازجةً عابرةً ، وخطاها تتابعُ إيقاع تلك الموسيقى المسرعة المتعبة ، وتسلسلت ألوانٌ وأنغامٌ وعطورٌ وشلالاتٌ لا نهائيةٌ ، منهمرةٌ في تلك الفرحة الثرة التي تتفرق وتستسلم ثم تموت في كل لحظة .

٧١

لئن وجب علي أن انثر الفيض والسخاء كثيراً ، واهفو ، في كل اتجاهٍ ، ما ذلك سوى (ماياك) .

إنك تضع حاجزاً على كيائكِ نفسه ، ثم تنادي نفسك المنفصلة في آلاف النغمات ، ان انقسامك هذا قد تجسد في كياني .

ان غناءك ينشال عبر السماوات ، في دموعٍ ملونةٍ وابتسامات ، في مخاوف وتعلاتٍ . وارتفعت الأمواج ثم تطامنت ، وانتسخت أحلامٌ ثم

التأمت ، ان في نفسي يشق اندحار كيائك .

يلوّن تعاقب الليل والنهار حجابك الذي اقمته باصباغ شتية ، وخلف ذلك ، يبدو مجلسك وقد حيك من منحنيات عجيبة خفية ، عازفاً عن جميع الخطوط القاسية المستقيمة .

من مهرجاننا الكبير تنفسح السماء ، ومن نعمتي ونعمتك يهتز الفضاء كله ، وتترادف الأعمار كلها ونحن نلهو في لعبة الاستخفاء ، نظهر ونختبئ .

٧٢

انه نفسه ذلك الودود القريب ، الذي يوقظ كياني بلمسته العميقة المبهمة .

وهو نفسه الذي يهرق جذلة في عيني ويدق وهو مبتهج ، على أوتار قلبي أوزاناً مختلفة من الطرب والألم .

وهو نفسه الذي ينسج تلك (المايا) في أصباغ زائلة ، ذهبية ، فضية ، زرقاء ، خضراء ، ويتيح من طيات النسيج ، رؤية قدمه ، فأنسى نفسي ، في لمسة منها . وتمضي الأيام وتمر الأعمار ، وانه ليظل نفسه ذلك الذي يعرش قلبي باسم من الأسماء ، بأسلوب من الأساليب ، بنقلة من نقلات الفرح والحزن .

٧٣

ليس الخلاص ، في رأيي ، بالزهد ، إنني أشعر بضمة الحرية في ألف رباط من اللذائذ .

إنك لتريق من أجلي سلسال خمرك المنعشة المشعشة ، بمختلف

الألوان والعطور حتى ليطفح منها كوبي الخزفي .
سينير كوني بشعلتك مائةً من شتيت المصاييح ثم يضعُها في مذبح
معبدك .
لا ، لن أغلق أبداً أبواب حواسي ، ان لذائذ البصر والسمع واللمس
سوف تنتظم لذتك .
أجل ، إن أوهامي كلها سوف تحترق في ألقة الفرخ وإن رغباتي كلها
سوف تؤتي أكلها ثماراً من الحب .

٧٤

لقد مضى النهار ، وزحف الظل فوق الأرض ، وحان وقت ورودي النهر
لأملأ جرّتي .
ان نغم السماء نافذ الصبر من موسيقا الماء الكنيبة ، آه انه يناديني في
الظلام ، ليس ثمة أحداً في الدرب ، الريح تهب ، وفوق صقال النهر تحبو
رعشات .
لا أدري ان كنت سأعود إلى البيت ، ولا أعلم أي لقاءٍ عابرٍ يتاح لي ، هناك ،
قرب معبر النهر ، وفي الزورق الصغير ، يعزف الرجل المجهول على العود .

٧٥

إن عطايك لنا ، نحن الزائلين الفانين ، تفي بحاجاتنا كلها ومع هذا
فإنها تسارع في العودة إليك ، تامةً غير منقوصة .
إن النهر يؤدي عمله اليومي ، وإنه ليمضي مسرعاً نحو الحقبول
والقرى ، ولكن جدولُه لا يني يلتوي ليفسل قدميك .

إن الزهرة تفعمُ الجوَّ بأريجها الشذيّ ، بيد أن قصارى جهدها هو أن تمنحك نفسها .

إن عبادتك لا تفقر الكون .

ان كلمات الشاعر تزجي إلى الناس المعاني التي تروق لهم ، ولكن معناها الأخير يتجلّى في الإشارة إليك .

٧٦

يا سيد حياتي ، هل أقفُ يوماً فيوماً أمامك وجهاً لوجه ؟

يا سيد الأكوان ، هل أقفُ أمامك ، ويداي مضمومتان ووجهي قبالة وجهك ؟

تحت سمانك الرحيبة ، وفي صمتٍ وانفراد ، هل أقفُ بين الجموع

الدائبة الساعية امامك وجهاً لوجه حاملاً قلبي المتواضع ؟

في هذا العالم المضني الذي يعج بالجهد والكفاح هل أقفُ أمامك وجهاً

لوجه ؟

وحين انتهي من عملي في هذه الدنيا ، يا ملك الملوك هل أقفُ وحيداً

صامتاً أمامك وجهاً لوجه ؟

٧٧

أجل ، إنني أعرفك كربّ لي ، فأنتبذ مكاناً منعزلاً .

- ولكنني لا أعرفك ملكاً لذاتي فاقترّب منك ، انني أعرفك كأبٍ فاجشو

عند قدميك - ولا أشدُّ على راحتك كما أشدُّ على راحة صديق .

حيث تطأ الأرض وحيث تهب لي نفسك ، كما لو كانت لي فأنني لا

أقف ، هناك أضمك إلى قلبي وأتخذك رفيقاً لي .

أنت الأخ بين اخوتي ، ولكنني لا أكرث لهم ، ولا أقاسمهم ارباحي ،
وبذا فاني أقاسمك ذاتي كلها .
انني أعزف ، في اللذة والألم ، عن الناس ، وبذلك أظل الى جانبك .
انني اتردد في التخلي عن حياتي ، وهكذا فاني اغوص في مياه الحياة
الزاهرة .

٧٨

حين كان خلق الكون جديداً ، وكانت النجوم تتوأمضُ في روائها
البكر ، عقد الآلهة اجتماعهم في السماء وأنشدوا : آه ، يا لمنظر الكمال! يا
للفرحة النقية!
ولكن أحد الآلهة هتف بغتةً : يخيل إليّ ان ثمة ثلثة في هذه السلسلة
من النور وان نجماً من هذه النجوم قد ضاع ، وانبت وترٌ ذهبي من معزف
الآلهة ، فقرّ غناؤهم وشرعوا ييكون وجلين :
- أجل لقد كان ذلك النجم أروع النجوم وكان مجد السماوات كلها .
ومنذ ذلك اليوم ، والبحث لا يني يدور عليه ، ولا تأتلي الحسرة تنتقل
من واحد الى آخر ، فقد خسر العالم به هناءه الوحيد .
ومع هذا فان النجوم تبتسم ، في صمت الليل العميق ، وتتهامس :
- ان البحث عنه غير مجدٍ ، ان الكمال الدائم المتصل هو في كل مكان .

٧٩

ان لم يكن من نصيبي أن ألتقي بك في هذه الحياة ، فذرني أشعر اذن
بانني أفقد مرآك دوماً ، شعوراً لا انساه لحظةً واحدةً واطركني احمل عذاب

ذلك الحزن ، في أحلامي وفي ساعات يقظتي .

حين تمر أيامي ، بين الساعين وراء أرزاقهم ، وتمتليء يداي بأرباحي اليومية فذرني أشعرُ بأنني لم أربح شيئاً . شعوراً لا أنساه لحظة واحدة . ودعني أحملُ عذاب ذلك الحزن في أحلامي وساعات يقظتي .
حين أقف ، على حيد الطريق ، متعباً لاهثاً ، وحين أسوي مضجعي من التراب ، فذرني اشعرُ دوماً بأن المرحلة الكبرى ماتزالُ امامي ، شعوراً لا أنساه لحظة واحدة ، ودعني احملُ عذاب ذلك الحزن في أحلامي وساعات يقظتي .

وحين تزددان غرفي . وتتعالى أغاني الناي ، وتترددُ هناك الضحكة ، فذرني اشعرُ دوماً بأنني لم أدعك إلى منزلي ، شعوراً لا أنساه لحظة واحدة ، ودعني احملُ عذاب ذلك الحزن في أحلامي وساعات يقظتي .

٨٠

إنني كقزعة^(١) من غيم ، تهيم عبثاً في سماء الخريف .
- إيه يا شمسي ، يا ذات المجد الدائم ، إن لمستك لما تبددُ ضبابي ، ولهذا فإنني اتحد مع نورك ، ولهذا فإنني أحصي الشهور والسنين التي تفصلني عنك .

إذا كانت تلك بغيتك ، وكانت تلك لعبتك ، فاقبض اذن على ذلك الفراغ الشارد من كياني ولونه بالتهاويل ، واطله بالذهب . ودعه يرفرف مع الريح الهيمي ثم يتفطر في معجزات شتى .
وإما طاب لك من جديد انتهاء هذه اللعبة في الليل ، فإنني أذوب وأمحي

(١) القزعة : القطعة من الغيم .

في الظلام ، وقد أغيب في ابتسامة الفجر الأبيض . في طراوة ذلك النقاء
الصافي .

٨١

كم بكيت في أيام الكسل على الزمن الضائع ، بيد انه غير مضيع أبداً يا
رب ، فقد قبضت يدك على كل لحظة من لحظات حياتي .
إنك تغذي - وأنت متوارٍ في قلب الأشياء - البذرة حتى تنبت ، والبرعم
حتى ينور والزهرة الناضجة حتى تؤتي أكلها .
والمّ بي التعب ، فأغفيت على سرير الكسل ، وأنا أتصور أن العمل كله قد
انتهى ، وحين أسفر الصباح استيقظت فالفيت حديقتي ملأى بالمفاتن والزهور .

٨٢

ان الزمن غير متناه في يدك ، يا رب ، وليس ثمة أحداً يحصي
دقائقك .
ان الأيام والليالي تتعاقب ، والأعمار كالزهور تتفتح وتذوي ، لقد
عرفت كيف تنتظر .
ان القرون تترادف ليتيسر لها ان تهب أسباب الكمال لزهرة نحيلة
وحشية .
ليس لدينا وقت نضيعه ، ولأنه ليس لدينا وقت ، فعلياً أن نسعى
لنهتبل فرص حظوظنا ، واننا لأفقر من ان يتاح لنا ان نتخلف .
وهكذا فإن الزمن يمضي ، فيما أتركه أنا لكل شاكٍ يدعيه ، ورغم ذلك
فإن مذبحك يظل عارياً خالياً من القرايين .

وفي المساء أحتُ الخطُ لنلا أجد رتاج بابك موصداً ، ومع هذا فإنني
أجد أن الوقت لم يفت بعد .

٨٣

أماه ، سأضع من أجلك عقدَ لآلئٍ يلتئم من دموع حزني .
ان النجوم جعلت تفري هالاتها المنيرة وتريقها فوق قدميك ، ولكن
عطائي يود أن يطوق عنقك .
ان الغنى والشهرة ينبثقان منك ، وانه لموكل إليك منحهما أو ردهما ،
غير أن حزني يخصني أنا وحدي ، وحين أقدمه إليك قرباناً ، تكافئني أنت
بعذوبتك .

٨٤

هو ألمُ الفراقِ الذي ينتشر في الكونِ كله ، ويبعث اشكالا لا عداد لها
في السماء اللانهائية .
هو حزنُ الفراقِ الذي يرنو صامتاً ، في هدأة الليل ، من نجم إلى
نجم ، والذي يوقظ القيثارة بين الأوراق المتهامسة ، في ظلمة تموز
الممطرة .
هو ذلك الألم الجارف الذي يمتلئ ، محبةً ورغبةً ، ترحاً وفرحاً ، في
بيوت البشر ، إنه هو نفسه الذي يذوبُ ، دوماً ، في قلبي أنا الشاعر ، ثم
يتسلسلُ أغاريداً وأناشيداً .

حين غادر المحاربون قصر مولا هم ، أين أخفوا سلطانهم وأين كانت
 دروعهم واسلحتهم ؟
 انهم يبدون مساكين لاغبين ، تتساقط فوقهم السهام غَدَقَةً^(١) متدركة ،
 حين غادروا قصر الرب .
 وحين عاد المحاربون الى قصر الرب ، أين أخفوا سلطانهم ؟
 لقد القوا السيف ، ورموا بالقوس والسهم ، كان السلام يظللُ جباههم ،
 مخلفين وراءهم ثمار حياتهم ، يوم عادوا إلى قصر مولا هم .

أيها الموتُ ، ان خادمك مائلٌ أمام بابي ، لقد جاز البحر المجهول ،
 حاملاً نداءك إلى بيتي .
 الليلُ مظلمٌ ، وقلبي واجفٌ ، ومع ذلك فإنني سوف أمسك بالمصباح ،
 وأفتحُ الباب ثم أرحّب به ، إنه رسولك ذلك الواقف أمام بابي .
 سأعظمه بدموعي ويدي المنبسطتين ، سأعظمه ، غامراً قدميه بكنز
 قلبي .
 وسيؤوب برسالته التائهة ، سافحاً ظلاً قاتماً على فجري ، وفي بيتي
 المنعزل لن يبقى سوى نفسي اليائسة أقدمها ، كأسمى هبةٍ إليك .

(١) غَدَقَة : غزيرة .

في ترقب يائس ، سأذهبُ للبحث عنها في كل زوايا غرفتي ، غير أنني لن أعثر عليها .

إن بيتي لصغيرٌ ، وما يخرجُ منه مرةً لن يتيسر أرجاعه .
ولكن قصرك يا رب ، فسيحُ الجنبات ، وبينما كنت ابحتُ عنها ،
ألفيتني انتهيت الى بابك .
إنني أقفُ تحت القبة الذهبية من سمانك المسائية لأراق وجهك بعيني
المليئتين بالرغبة .

لقد وصلت إلى شاطئ الأبدية ، حيث لا يمحي شيء ، لا أمل ، لا
هناءة ، ولا ذكرى وجه يترقرق عبر الدموع .
آه ، ألا أغمرُ حياتي الفارغة في هذا البحر وغص بها في امتداد
اعماقه ، دعني اشعرُ مرةً ان تلك العذوبة المفقودة هي شائعة في الكون
كله .

يا آلهة المعبد المهدوم ، ان أوتار المعزف (فينا) المقطوعة لن تهزج
بعد الآن بحمدك وأن الأجراس ، في المساء ، لن تغري أحداً بعبادتك .
الفضاء حولك مستغرقٌ في صمت .

في بيتك الحزين تنسُم ريحُ الربيع الهيمي ، انها تنقلُ اخبار الزهور -
الزهور التي لن تُزجى أبداً إلى عبادتك .

إن عابذك القديم يهيم دوماً خلف نعمة ماتزال محرمةً عليه ، وفي
المساء حين تذوب الأنوار والظلال في ملس الغروب ، فإنه يعود حزيناً إلى
معبدك المهدوم ، وفي قلبه سغب .

ان بعض أيام الأعياد تقدم إليك في صمت يا الهة المعبد المهذوم ، ان
بعض ليالي العبادة تمضي دون ان يضاء المصباح .
ان كثيراً من الصور الجديدة قد سواها فنانون مهرة ، بيد ان نهر
النسيان سيجرفها حين يأزف وقتها .
ولكنك ، تبقي أنت ، يا آلهة المعبد المهذوم ، المهجور إلى الأبد .

٨٩

غير متاح لي الكلام المجلجل ولا الألفاظ الصاخبة ، كذلك يريد ربي ،
سأفرغ اذن إلى الهمس ويتسلسل ، منذ الآن ، حديث قلبي في وشوشات
أغنية .
يتدافع الناس إلى سوق الملك ، البائعون والشارون كلهم هناك ، أما أنا
فقد صُرفتُ في منتصف النهار وفي زحمة العمل .
فلتنور الزهور اذن في حديقتي ، ولو لم يحن أوانها ، ولتملاً نحلات
الظهيرة الفضاء بطينها الكسول .
لقد سلخت ساعاتٍ عديدة في نضال مع الخير والشر وانه ليلذ الآن ،
لرفيق أيامي الخاوية ان ينوط قلبي به ، ولا أعلم ماذا تعني تلك الدعوة
المفاجئة لتناقضٍ عقيم .

٩٠

أي هدية تقدمها إلى الموت يوم يقدم ليقرع بابك ؟
آه ، سأضع امام زائري كأس حياتي المترعة ولن أدعه يعود فارغ اليدين .
كل قطوف كرومي العذبة من أيام خريفي وليالي صيفي ، كل حصاد

حياتي الدؤوب وجناها سوف أضعه أمامه ، حين ينتهي أجل أيامي ، يوم
يقدم الموت ليقرع بابي .

٩١

آه أنت ، يا منتهى حياتي الأسمى ، أيها الموت ، يا موتي ، تعال
وأهمس في أذني .

يوماً بعد يوم ، سهرت في انتظارك ، من أجلك ، تذوقت هناءة الحياة
وعانيت عذابها .

انني كلي ، كل ما أملك ، كل ما اتعلّل به ، كل حبي ، كل ذلك قد مرّ
مبهماً نحوك ، حسبي النظرة الأخيرة من عينيك حتى تصبح حياتي في
حوزتك دوماً .

لقد ضفروا الزهور ، وأعدّوا الاكليل للزوج العروس ، وبعد الزفاف
تغادر العروس منزلها ساعيةً إلى مولها ، وحيدةً في عزلة الليل .

٩٢

أنا أعلم بأنه سيوافي يوم ، أضيق فيه هذه الأرض عن ناظري ، وان
الحياة ستغادرني ، في صمتٍ ، بعد أن تسدل على عيني الستار الأخير .

ومع هذا فإن النجوم ستتلامح ساهرةً في الليل ، وسيسفر الفجر كما
أسفر أمس ، وستمتلئ الساعات ، كأموج البحر ، تحمل اللذات والآلام .

وحين أفكر في انقضاء لحظات عمري ، تتلاشى حواجز هذه اللحظات ،
ويتراءى لي فينور الموت عالمك بكنوزه اللطيفة ، أحقر منزلٍ فيه عزيزٌ
وأخفض عيشٍ فيه كريم .

أما الخيرات التي تقت إلى احتيازها عبثاً ، والشروات التي احتجنتها
فدعها تذهب مني .

دعني اتعلق بالخيرات الحقة فحسب ، الخيرات التي تجانفت عنها
واحتقرتها دوماً .

٩٣

لقد أذن لي بالرحيل . فتمنوا لي يا اخوتي سفرأ سعيداً ، ساعد كل
شيء ثم آخذ أدراجي واهياً للرحيل .

ها هي ذي مفاتيح بابي ، أعيدها إليكم ، متخلياً عن جميع حقوقي في
بيتي ، ولكن زودوني ، عند الرحيل بكلمات حلوة .

لقد كنا متجاورين أمداً طويلاً . ولقد تلقيت منكم أكثر مما كان في
استطاعتي ان أعطيكم . والآن ، فإن النهار قد طلع ، والمصباح الذي اضاء
زاويتي المظلمة . قد نفذ نوره ، وتناهى إلي نداء وأنا اهياً للظعن
ورحيل .

٩٤

أزف الترحل . فتمنوا لي ، الآن ، يا رفاقي حظاً طيباً ، ان السماء
خضيباً بحمرة الفجر ، ودربي تنفسح رائحة .

لا تسألوني ، ماذا احمل معي ، سأبدأ رحلتي . ويدي فارغتان ، وقلبي
مفعم بالانتظار .

سأنزين بإكليل عرسي فقد نضوت ثوب السائح الأحمر الأغبر ، أما
فكري فلا يستشعر الخوف وإن تكن الطريق محفوفة بالأخطار .

في نهاية رحلتي ، سيطل نجم السماء وستعلو نغمات أغاريد الغروب
الشاكية من القباب الملكية .

٩٥

لم أع اللحظة التي جاوزت فيها وصيد الحياة .
أي قدرة جعلتني افتتح على ذلك السر الوسيط مثل برعم الغاب الذي
يتفتح عند منتصف الليل .

وحين صافح النور عيني ، في الصباح ، شعرت بأنني لست غريباً عن
هذه الأرض ، وان ذلك المغلق المجهول الذي لا شكل له ولا اسم ، كان
يضميني بين ذراعيه ، بادياً في اهاب أُمي .

وكذلك ، عندما يحين الموت ، فإن المجهول ينحسر أمامي كأنني
أعرفه منذ الأزل ، ولأنني أكلف بالحياة ، فسأكلف بالموت أيضاً .
ان الطفل يبكي ، حين تنحيه أمه عن ثديها الأيمن ، ولكنه يجد في
اللحظة التالية سلواه في ثديها الأيسر .

٩٦

حين أرحل من هنا ، فلتكن كلمتي عند الوداع : ان ما رأيته لا يمكن
ادراكه والوصول إليه .

لقد تذوقتُ الشهدَ الخفي من زهرة (اللوتس) التي تبسط أوراقها على
خضَمَ النور ، فكان ذلك يمناً وبركةً عليّ ، لتكن تلك كلمتي عند الوداع .
لقد لهوتُ في قصرٍ شتيت الأشكال ، وثمة بصُرتُ بذلك الذي لا ينتظمه
شكل .

ان اعضاء جسمي كله قد جاذبتها رعدةً بلمسة ذاك الذي لا يمكن
لمسه ، واذا كان على الأجل ان يوافي ، فليواف ، تلك هي كلمتي عند
الوداع .

٩٧

حين كنت ألهو معك ، لم أسألك قط من أنت ، ولم أكن أعرفُ الخجلَ
ولا الخوفَ . كانت حياتي تهدر هوجاء .
عند منبلج الفجر ، كنتَ توقظني من غفوتي ، كأثر رفيقٍ لدي ، وكنت
تقودُني ، ونحن نعدو من غابٍ إلى غاب .
في تلك الأيام لم يكن يكرثني معرفةٌ معاني الأغاريد التي كنت تنشدها
لي ، وكان صوتي يلهج بالأنغام وقلبي يرقص طرباً على ايقاعها .
والآن ، وقد مرّت ساعةُ اللهو ، فما هي تلك الرؤيا المفاجئة التي تعرض
لي ؟ ان الكونَ بطرفه المتطامن إلى قدميك ، يقف اجلالاً لك مع كل نجومه
الصامته .

٩٨

سأزينك بالأسلاب ، باكاليل هزيمتي . ليس في استطاعتي ، أن انجو
وأنا غير مغلوب .
وفي الحق ، انني أتوقع ، في يقينٍ ، هزيمة كبريائي ، وأعرفُ أن حياتي
في ذروة ألمها ستحطم حدودها ، وان قلبي الخاوي سيجهش في موسيقاه
كقصبة جوفاء ، وان الحجر سيحور الى دموع .
أعرف ، في يقين ، ان مائة افواف التويج من زهرة اللوتس لن تظَلَّ

دوماً مغلقة ، ولكنها ستفتَح عن شهدها الخفي .
في السماء الزرقاء عينُ ترامقني ، وتدعوني في صمت ، لن يتبقَى لي
شيءٌ ، أي شيء ، وعند قدميك سأحظى بالموت الكامل .

٩٩

حين اترك دفّة سفينتي ، أدرك أن الوقت قد أزف لتمسك بها أنت ،
وأن ما يجب عمله سيتم وشيكاً ، فلا جدوى من الألم .
فأضمُّ يديك خاضعاً يا قلبي ، واقبل بهزيمتك راضياً صامتاً ، واعتبر
انه من حسن حظك ان تجلسَ هادئاً حيث وضعت .
ان المصابيح لا تألو تنطفئ ، على أي هينمةٍ من هينمات الريح ، وحين
اجهدُ في اشعالها فانني لا اقتأ أنسى سواها .
بيد أنني سأكون في هذه المرة حكيماً ، وسأنتظر في الظلمة ، ماداً
بساطي على الأرض ، وحين يروق لك يا مولاي ، فتعال في صمتٍ واتخذ
مجلسك هنا .

١٠٠

انني اغوصُ في أغوارِ خضمّ الأشكال ، آملاً ان أظفرَ باللولؤةِ الكاملةِ
التي لا شكل لها .
لن ابحر بعد الآن من مرفأٍ إلى مرفأٍ ، على ذلك الزورق الذي
حطّمته العاصفةُ ، لقد مضت الأيام البعيدة التي كان دأبي فيها مغالبة
الأمواج .
أما الآن فانني اتشوف إلى أن أموت لدى من لا يموت .

وفي ردهة المقابلة ، قرب الهاوية التي لا قرار لها ، حيث تتناهى
موسيقا لا نغم لها فأنني سأمسك بمعزف حياتي .
سأضرب عليه لحن الخلود ، وحين تملو شهقته الأخيرة ، دعني أضغ
معزفي الساكت على قدم الصمت .

١٠١

لقد بحثت عنك ، عمري كله ، بأغنياتي ، فهي التي قادتني من باب إلى
باب ، وبها شعرت بما حولي ، وأنا اتقرى دنيائي وأبحث عنها .
أن أغنياتي هي التي علمتني ما تلقنت من دروس ، هي التي دلّني على
الدروب الخبيثة وازجت إلى ناظري بعض النجوم المناسبة على أفق قلبي .
لقد قادتني طوال النهار ، إلي البقعة المبهمة من اللذة والألم ، والآن ،
وقد حلّ المساء ، واستوفت رحلتي نهايتها ، ترى إلى باب أي قصر
تقودني ؟

١٠٢

أجل ، لقد زهوت أمام الناس ، بأنني حظيت بمعرفتك ، انهم ليستبينون
صورتك في آثاري كلها ، انهم يقبلون ويسألونني : من هذا ؟ ولا أدري سوى
أن أجيب :

- حقاً لا أستطيع أن أقول .

انهم يتناولونني باللوم ، ثم ينكفون في احتقار ، أما أنت فتظل ، ثمة ،
والابتسام يرف على شفئك .

لقد تحدثت عنك في أغاني لا تبلى جدتها فانزاح السر عن قلبي
وتجلى ، انهم يقبلون ويسألونني :

- قل لنا كل ما تضمنت من معان .

ولا أدري سوى أن أجيب :

- ترى من يدري ماذا تعني ؟

انهم يبتسمون ثم ينكفنون ، في احتقار كبير ، وتظل أنت ، ثمة ،
والابتسام يرف على شفئك .

١٠٣

يا رب ، لتتجه حواسي كلها ، لتلامس هذا الكون عند قدميك ، تحيةً
أخيرةً لك .

وكفمامة تموز التي تتطامن ، وهي تنوء بصوبها الدفيق^(١) ، لينحن
فكري أمام بابك ، تحيةً أخيرةً لك .

للتلثم أنغام أغنياتي في وزن مَسَّق واحد ، لتنصب في خضم الصمت ،
تحيةً أخيرةً لك .

وكسرب مهاجر من الطيور ، التي تحن وتهفو ، في صبرٍ نافذ ، ليلاً
ونهاراً ، إلى أعشاشها التي تركتها في الجبل ، دع حياتي ، يا رب تتخذ
سمتها نحو مقرها الأخير ، تحيةً أخيرةً لك .

(١) صوب الغمام : المطر .

جَنِّي التِّمَارِ

١

مُرْني ، ابادر بقطف ثماري كلها ، لأجلبها إلى حديقتك ، في سلال
 ملأى ، ولو كان بعضها قد فسد وبعضها ما يزال فجاً .
 ١١ فالموسم مثقلٌ بروعته ، ونائي الراعي يستمرىء النجوى في الظل .
 مُرْني أنصب الشراعَ في النهر .
 فنسيمُ آذار يجاذبُ همساتٍ من الأمواج الوانية .
 لقد نفضت الحديقة جماع روحها ، وأقبل في ساعة المساء الحزينة ،
 نداءً من بيتك إلى الشاطئ المذهب بأشعة الشمس الغاربة .

٢

كانت ، حياتي ، في عُفرة صباها ، شبيهة بالزهرة التي يتهاوى من
 تويجها ورقةً أو ورقتان ، ولا تشعر بخسارها البتة ، إِمَّا جاء نسيم الربيع
 يستجدي على بابها .
 والآن ، وقد استشرف الشباب نهايته ، فقد أضحت حياتي شبيهةً

بالثمرة التي لا تفضن بشيء : انها تنتظر لتسلم نفسها جميعاً مع كل ما تنوء به من حلاوة .

٣

ترى أوجد عيد الصيف ، من أجل الازاهير المنورة ؟ ام الزوراق الميتة ، أم الازاهير الذابلة ؟

ترى أيتلاءم غناء البحر مع تلاطم أواذيه المزبدة فحسب ؟

أفلا يغني أيضاً مع الأمواج الهادئة ؟

ان البساط الذي يقف فوقه ملكي قد رُصّع بالجواهر ، بيد أن الأرض المتواضعة تنتظر صابرة ، قدميه تمسّانها .

قلائل أولئك العقلاء العظماء الذين يجلسون حول مولاي ، بيد أن مولاي مدّ ذراعيه على البسطاء واتخذني خادماً له دوماً .

٤

لقد استيقظتُ ، فألفيتُ رسالته قادمة مع الصباح .

لا اعلم ماذا كانت تقول ، فلم يؤت لي أن أتعلّم القراءة .

سأدع الرجل العالم عاكفاً على كتبه ، ولن اضايقه أبداً ، تُراه يستطيع

أن يفهم ما تعني الرسالة ؟

دعني ألمسها بجبيني وأشدّها الى قلبي .

حين يمتدّ الليل ، ساكناً ، وتسري النجوم ، نجماً في اثر نجم ، سأفتح

الرسالة على ركبتَي وألوذ بالصمت .

ستلونها عليّ الأوراق المتهامسة ، عالياً ، وسينغمها لي الجدول الهادر

وستغنيها لي النجوم العاقلة السبعة من السماء .
لم يتأت لي أن أحظى بما أبحث عنه ، لم أستطع أن أفهم ما تشوف الى
معرفته ، ولكن هذه الرسالة التي لم تتم لي قراءتها ، قد خففت من أعبائي ،
وأحالت أفكارى الى أغنيات .

٥

كان في استطاعة حفنة رمال أن تخفي عني علامتك ، حين كنت لأفقه
معناها .
أما الآن ، بعد أن اضحيت أوسع معرفة فإنني استجليها في كل شيء كان
يواريها عني من قبل .
فهي التي تتلون فوق أفواف الزهر ، وتتألق على زبد الأمواج ، وتزهى
في قنن الجبال .
لقد نحيت وجهي عنك ، ولذا فقد جعلت أقرأ رسائلك ، عرساً ، دون
أن أفهم معانيها .

٦

أنى تكن الدروب معبدة ، أضلّ طريقي .
في المياه الممتدة ، وفي زرقة السماء لا يوجد أثر مرسوم يُقتفى .
الممر مظلل بأجنحة الطيور ، بجذى النجوم ، بأزاهير المواسم
المتعاقبة .
وإنني لأسائل قلبي عما إذا كانت دماؤه تستبين معالم الدرب الخفية .

وأسفاه ، لن أطيق المكوث في الدار ، فالمسكن لم يعد مسكني بعد
الآن . إنَّ الغريب الأبدي يناديني ، وهو سائرٌ في مدى الدروب .
إنَّ خفق خطاه يقرع صدري ويؤلمني .
الريح تهبُّ ، والبحرينن .
سأترك مشاغلي ووساوسي كلّها لألحقَ بذلك الموجِ التائه ، فإنَّ الغريب
يناديني وهو يسعى في مدى الدرب .

يا قلبي... كن متحفّزاً للانطلاق وذُرْ أولئك الذين عليهم أن يتخلفوا .
لقد تعالى نداءٌ باسمك في سماء الفجر .
لا تنتظر أحداً .
إنَّ البرعم يتوق الى الليل والندى ، غير أنَّ الزهرة المتفتحة تنادي النور
ليخلصها . حطّم قيودك ، أيّها القلب ، وانطلق .

حين تخلفتُ بينَ كنوزي المحتجّة^(١) ، كنت أشعر بأنني أشبه بالدودة
التي تتغذى في الظلام ، ضمن الثمرة التي ولدت فيها .
سأترك هذا السجن الفاني .

(١) المحتجّة : المختزنة .

لأأريد الطمأنينة العَفَنَة ، فإنني أسعى للبحث عن شبابٍ دائم . سأقذف
بكلّ شيءٍ ، لا يتلائم مع حياتي ، بكلّ خفيفٍ كضحكتي .
سأعدو عبر الزمن ، فعلى مركبتك ، يا قلبي ، يرقص الشاعر الذي يغني
تائهاً هائماً .

١٠

لقد أمسكتَ بيدي وقذتني إلى عرشٍ ثمّ أجلسني أمام الناس كلّهم الى
جانبك ، واستشعرتُ من ذلك الخجلَ ، فلم أقدر أن أريم أو أسير في
طريقي ، مستريباً ، ومقدراً كلّ خطوة أخطوها خشيةً أن أطأ على شوكةٍ من
أشواك سخطهم .
وتحرّرتُ أخيراً .

ودهم الخطبُ ودوى بوق الإهانة ، وتداعى عرشي على الثرى .
وانفسحت الدروبُ أمامي .
وامتلأت أجنحتي رغبةً في السماء . سأمضي محلّقاً لأنضمّ الى نجوم
منتصف الليل وأغوص في الظلّ العميق .
إنني شبيه بالغمامة التي تطاردها ريح الصّيف ، حتّى إذا أضحت سليبةً
من تاجها الذهبي ، شالت صاعقة كالسيّف فوق سلسلة من البروق .
في فرحةٍ يائسةٍ سأركض في درب المنبوذين المغبرة ، مقترباً ، شيئاً
فشيئاً ، من لقائك النهائي .

إنّ الطفل ليجد أمّه حين يغادر أحشاءها .
وكذلك ، حين غادرتك ، ورميتُ بعيداً عن وصيد بيتك . ألفتني حرّاً
في النظر الى وجهك .

إنّها لاتزيّني إلاّ لتسخر منّي ، هذه السلسلةُ الثمينةُ التي تخصّني .
 إنّها لتؤلّمني حين تطوّق عنقي ، وإنّها لتخنقني حين أحاول نزعها .
 إنّها تتشبّث بعنقي ، وتُخرس أغنياتي .
 إن أمكنني أن أهبها ليدك ، ياربّ ، فقد أنجو .

خذها منّي ، وعوضاً عنها ، شدّني اليك بإكليل ، فأنا أخجل أن أمثل أمامك ، وفي عنقي هذه السلسلة الثمينة .

كان نهر (الجومنا) يسيلُ صافياً متدفّقاً في الوادي ، تهصّره ضفافُهُ الناتئة .
 وكانت الرُبى الظليلة بالأشجار ، الملاى بأخاديد السيول ، تتدوّر حواليه .
 وكان المعلّم الأكبر (غوفيندا) جالساً على صخرة ، يتلو صحفَهُ ، حين
 قدّم تلميذه (راغونات) المعتدّ بثرائه وانحنى أمامه قائلاً :

- إنني أقدم اليك هديتي المتواضعة ، إنّها غير جديرة بقبولك .
 ولما استوفى كلامه ، وضع أمام المعلّم زَوْجِي أساور مذهّبة ، مرصّعين
 بأحجار كريمة .

وتناول المعلّم سواراً وأداره حول إصبعه . فنفضت الجواهر أنوارها البراقة .
 وعلى حين غرة ، امّلس السوارُ من يده ، ثمّ تدحرج ووقع في النهر .
 وصاح راغونات : وأسفاه !
 ثمّ قفز الى عباب الماء .

وأرخى المعلّم ناظريه الى كتابه ، وحفظ الماء ماكان قد حازه وتابع
 جريّه .

وكان النهار يجنح الى النزول ، حين عاد (راغونات) متعباً مبللاً ، الى أستاذه .

وقال له وهو يلهث : قد أستطيع ، مع ذلك ، العثور عليه ، إن أشرت الى المكان الذي وقع فيه .

وحينئذ رفع المعلمُ السَّوَارَ الآخر ، ورمى به الى النهر قائلاً : إنه هناك .

١٣

إنَّ السَّيرَ هوَ في الإلتقاء بك ، كلَّ لحظة ، يارفيقَ السَّفر .

هو في الغناء على خفق خطاك .

إنَّ من لامسته أنفاسك لايمرّ ، لوأذاً ، بالشاطئ .

إنه يبسط للريح شراعَه الخفَّاقَ ويمخر عباب الماء الهادر .

إنَّ من يترك أبوابَه مفتوحة ثمَّ يجوز عتباتها يظفر بتحيّتك .

إنَّه لايجلس ليحصي أرباحه أو يأسى على خسارة .

إنَّ وجيب قلبه يساقو مَشْيَتَه ، ولهذا فإنَّك تسايره خطوةً فخطوة ،

يارفيقَ السَّفر .

١٤

إنَّ نصيبي من متاع هذه الدنيا سوف يأتي من يديك ، كذلك كان وعدك .

ولهذا فإنَّ نورك يتلألأ فوق دموعي .

إنني أتردّد في إتباع الآخرين خشية أن أفوتك حيث تنتظرني ، عند

منعطف الطَّريق لتكون دليلي .

سأصرّ على السَّير في طريقي ، حتّى يغريك جنوني نفسه بالقدوم الى بابي .

ذلك لأنني نلتُ وعدك بأن نصيبي من متاع هذه الدنيا سوف يأتي من يدك .

١٥

إنّ كلامك بسيط أيها المعلّم ، غير أنّ كلام الذين يتحدثون باسمك ليس ببسيط .

إنني أعي صوتَ نجومك وصمتَ أشجارك .

إنني أعلم بأن قلبي يودّ أن يتفتّح كالزهرة ، وإنّ حياتي قد أفعمت من ينبوعٍ خفيّ .

إنّ أغانيك الشبيهة بالطيور القادمة من الأرض المنعزلة الكاسية بالثلج ، ترفّ فوق قلبي ، لتبني لها أعشاشاً تكون فيها بنجوةٍ من حرّ نيسان . وإنني لمغبط بانتظار الموسم السعيد .

١٦

كانوا يعرفون الطّريق ، ويتّخذون أدراجهم بحثاً عنك في مدى الدرب الضيقة ، أمّا أنا ، فقد كنت أدلج في الليل ، هائماً ضارباً في الأرض القصيّة ، لأنني كنت جاهلاً .

ولم أكن قد أوتيت قدراً كافياً من التبصر حتّى أخشاك في الظّلمة ، ولهذا فقد ألقيتني ، مصادفةً ، أمام عتبة بابك .

لقد ثناني العاقل وأمرني بالعودة ، لأنني لم أسلك الدرب الضيقة .

وكنْتُ بسبيل الرحيل ، والشك يجاذبني ، حين احتجزتني وضممتني بشدة اليك ، فأضحت سورة غضبهم ، كلّ يوم ، أشدّ عنفاً .

لقد أمسكتُ بمصباحي الأرضي وصرختُ وأنا أغادرُ البيت :
- تعالوا أيها الأطفال ، سأنير دربكم .

لقد كان الليل داجياً حين عدت ، مخلفاً الدرب في صمتها وصارخاً :
- أنيري أيتها النار الإلهية دربي ، فإن مصباحي الأرضي محطّم ملقى على
التراب .

لا ، ليس في استطاعتك أن تحيلَ البراعم الى أزهار . هزّ البرعم ،
اضربه ، فلن تكونَ لك القدرة على جعله زهرة .
إن لمُسْتَك تفسده ، إنك تمزق أفواهه وتذروها على التراب .
ولكن لن يتراءى أيّ لونٍ ولن يضوع أي أريج . آه ، لن يكون في
استطاعتك أن تُحيلَ البرعمَ الى زهرة .
إن الذي ينورَ البرعم ، يتأتى له ذلك في يسر . إنّه يرامقهُ بنظرةٍ
فيتمشّى رحيقُ الحياة في عروقه . وتبسط الزهرة ، على لهائه ، أجنحتها
وتتمايل على هينة الريح .
وتتقد ألوانها كتعلاتِ القلب ، ويشي أريجها بسرّها العذب .
إن الذي ينورَ البرعم ، يتأتى له ذلك في يسر .

حين قطف (سوداس) البستاني من حفاف بركته زهرة (اللوتس)

الأخيرة ، الناجية من غوائل الشتاء ، قَدِم الى باب القصر لبييعها إلى الملك .

والتقى ثَمّة بمسافر استوضحه قائلاً : ماثلن هذه الزهرة الباقية ؟ فإنني أريد تقديمها الى الربّ (بوذا) .

وأجاب (سوداس) : إن نقدتني (ماشاً) ذهبيّة واحدة فهي لك .
وقَبِلَ المُسافرُ .

في تلك اللحظة خرج الملك ورغب في شراء الزهرة ، إذ كان بسبيل الذهاب ليرى الربّ (بوذا) وقد ألقى أنّ هذه الزهرة التي نورّت في الشتاء ستكون هديّة ثمينة تُزجى الى قدمي بوذا .

ولمّا أفصح البُستانيّ بأنّه قد عُرض عليه (ماشاً) ذهبيّة واحدة ، وعده الملك بعشر ، غير أنّ المسافر ضاعف الثمن .

وحينئذ انحنى للبستانيّ وقال : لأستطيع أن أبيع زهرتي .

فقد خيّل اليه ، على حرصه ، بأنه سينال ربحاً أوفى من الربّ (بوذا) نفسه الذي تنافسا من أجله .

وفي الظلّ الصامت ، من غابة العنباء المشتجرة ، خلف أسوار المدينة ، كان (سوداس) واقفاً أمام الربّ (بوذا) الذي يتفرّق فوق شفّتيه صمت الحب ، ويتلأأ في عينيه سلام يماثل نجمة الصّبح الوضيئة في فصل الخريف المغسول بالندى .

ورفع (سوداس) طرفه الى وجه (بوذا) ووضع زهرة (اللوّس) فوق قدميه ، وحنى رأسه حتّى دانى التراب .

وابتسم (بوذا) وسأله : ماهي أمنيّتك ؟

وصرخ (سوداس) : لمسةً صغيرةً من قدميك .

أيها الليل ، أيها الليل الممتشح بالسّواد ، اجعلني شاعرك .
 لقد وقف بعضهم ، معتصماً بالسكوت ، في ظلك ، طوال الأجيال .
 دعني اردّد أغانيهم .

خذني على مركبتك التي تسعى ، دون عجال ، قافزة دون ضجّة ، من
 كونٍ الى كونٍ ، أيه أيها الليل ، أيها الملك في قصر الزمن ، أنت يابديع
 السّواد .

لقد انسريتُ ، في خفّة ، الى فناء دارك بعض الأفكار المتسائلة ، ثمّ
 طافت حول دارك التي لا يشعُ فيها مصباح ، تريد جواباً عن أسئلتها .
 من بعض قلوب أصماها^(١) سهم الفرحة الذي فوقته^(٢) يدُ المجهول ،
 انطلقت أناشيدُ الحبور وشقّت الظلام حتّى تناهت الى أغواره .
 لقد صوّبتُ هذه الأرواح اليقظى بصرها الى نور النجوم وأخذها العجب
 وهي ترى الى الكنوز التي عثرت عليها فجأة .
 إيه أيها الليل ، اجعلني شاعرها ، شاعر صمتك الذي لا يسبر كنهه .

سألتقي بالحياة في كياني ، يوماً ما ، بالفرحة التي تختبئ في حياتي ،
 رغم أن الأيام تعفّر دربي بغبارها التافه .
 لقد استجليتها في البروق ، وأقبل عليّ لهاثها المتردّد فعطّر أفكاري
 لحظة .

(١) أصماها : أصابها .

(٢) فوق السهم : سدّده .

سألتقي يوماً ، بالفرحة ، خارج كياني ، بالفرحة التي تكمن وراء حاجز
النور ، وسأنتبذ مكاناً في الوحدة الغامرة ، حيث تتراءى الأشياء كلّها كما
سواها خالقها .

٢٢

هذا الصّباح الخريفي ، مترعٌ بالنّور ، وإذا أضحت أغانيك طُرفة^(١)
تعبه ، فأعطني نايك لحظة . سألهو به كما يروق لي ، تارةً على ركبتني ،
وتارةً على شفتي ، وتارةً أخرى أوسده العشب الى جانبي .
غير أنني في صمت السّماء المهيب ، سأقطف أزهاراً وأضفر منها أكاليلَ
لأغطيّ بها . سأفعمه بالعطور ، سأزجي اليه عبادتي ، وأنا أحمل مصباحاً منيراً .
وفي الليل سأعود اليك لأودِعَكَ إِيّاه .
وستنفخ أنت فيه موسيقا منتصف الليل ، حين يسعى الهلالُ المنفردُ ،
هائماً بين النجوم .

٢٣

إنّ روح الشّاعر ترقص وتترفرف فوق أمواج الحياة ، بين هدير الأوازي
وزفيف الرياح^(٢) .
والآن ، بعد أن غربت الشّمس ، وتدانت السماء المكفّهرة ، من البحر
كما تتدانى أهداب طويلة من عيونٍ متعبة ، فقد أزفت الساعة التي يترك فيها
الشّاعر قلمه .

(١) الطرف : المتقلب .

(٢) زفيف الرياح : صوتها .

الليل داج ، وأنت تخذل في نومك الى صمتٍ روحي . إيه يالْم الحب ،
استيقظ ، فأنا لأدري كيف أفتح الباب وأنا واقفٌ أمامه .
السَّاعات تنتظر والنجوم ساهرة والريح ساكنة والصَّمت ثقيلٌ تنوء به
روحي .
استيقظ أيها الحب استيقظ ، واملاً كأسِي الفارغة ، وتعال هزَّ الليلَ
بلهاتٍ أغنية .

إنَّ عصفور الصَّباح يلغو .
كيف عرف بأنَّ الفجر سينبلج ، فيما يلفَّ ماردُ الليل السَّماء بطيلسانه
البارد الأسود ؟
قلْ يا عصفور الصَّباح كيف وجد الرسول المنبثق من الشَّرق طريقه عبر
ليل السَّماء وليل الأوراق حتَّى تناهى الى أحلامك ؟
إنَّ العالم لم يكن ليصدقك وأنت تصرخ : لقد أشرقت الشَّمس وولَّى الليل .
أيها النائم ، أفق .
احسر عن جبينك ، انتظاراً لمقدم الشَّعاع الأوَّل المبارك من النور ،
وغنَّ مع عصفور الصَّباح في تدفِّقِ طروب .

إنَّ المتسول السَّاكن في إهابي قد رفع يديه الهزيلتين نحو السَّماء

الخالية من النجوم وهتف في اذن الليل بصوته الساعب .
 إن صلواته قد هفت نحو الظلمة العمياء القاتمة كرباً هابطاً منتصباً في
 سماءٍ موحشةٍ تعجّ بالأمانى الضائعة .
 وماتت صرخة الرغبة على شفا هوة اليأس ، وأخذ عصفورٌ نائحٌ يدور
 حول عشه المهجور .
 ولكن... حين ألقى الصّباح مراسيه على سيف^(١) الشرق فإنّ المتسول
 الساكن في إهابي قفز صارخاً :
 - مباركٌ أنا ، فالليل الأصمّ قد أنكرني ، وخزائنه أضحت خاوية .
 وتابع هاتفاً :
 - إيه أيتها الحياة ، إيه أيتها النور ، إنكما ثمينان ، وثمينَةٌ أيضاً تلك
 الفرحة التي عرفتكما أخيراً .

٢٧

كان (ساناتان) يداعب سبّحته وهو واقف على شاطئ نهر (الغانج)
 حين قدّم اليه برهمي في ثياب لبيسة^(٢) وقال له : انجدي فإنني فقير .
 وأجاب (ساناتان) : لم يبق لديّ سوى وعاء الصدقات ، فقد وزعت كلّ
 ما كان في حوزتي .
 وقال البرهمي : ولكنّ ربّي (شيفا) تراءى لي في الحلم ونصحني بأن
 أقصدك .
 وتذكّر (ساناتان) ، فجأةً ، أنه كان قد عثر على حجر لا يقدر بثمن ، بين
 حصي الشاطئ ، وأخفاه في الرمل ، وهو يحسب أنّه قد يضحى ذا نفع لأحدٍ ما

(١) السيف : السّاحل .

(٢) اللبسة : البالية من اللبس .

وأشار بإصبعه الى مكانه للبرهمي الذي أخرجه وهو يعجب .
واقتعد البرهمي الأرض ، وحيداً يفكر حتى اختفت الشمس خلف
الأشجار وقاد الرعاة قطعانهم الى الحظيرة .
وحينئذ نهض قائماً وتقدم ، بتمهل ، من (ساناتان) وقال له : أيها
المعلم ، هب لي أحقر ذرة من ذلك الثراء الذي يزدري ثراء العالم كله .
والقى بالحجر الثمين في الماء .

٢٨

يوماً بعدَ يوم ، كنتُ أقدمُ الى بابك ، بيدي الضّارعتين ، أطلب اليك
واستزيدك .
وقد أعطيتني ثم أعطيتني ، بقدرِ ضئيلٍ تارةً ، وبسخاءٍ مفاجئٍ تارةً أخرى .
وقد تناولت بعض هباتك وتركت بعضها يتهاوى ، وكان بعض منها تنوء به
يدي ، وصنعت من بعضها الآخر دمي حطمتها بعد أن برمتُ بها ، حتى قامت من
حطام عطايك وهباتك أكوام وراتك عن نظري وهصر الإنتظار المستمر قلبي .
« خذ آه خذ » تلك هي صيحة قلبي الآن .

بدّد كل ما يحمله هذا الوعاء ، وعاء المتسوّل ، وأطفئ ذلك المصباح
الذي يمسك به السّاهر اللجوج . اقبض على يدي وارفعني فوق تلك الأكوام من
عطايك التي لاتني تتراكم حتى أصل الى الامتداد المقفر من وجودك المنزوي .

٢٩

لقد وضعتني بين المغلوبين .
إنني أعلم أنه ليس لي أن أربح ولا أن أنكفي ، عن حلبة اللعب .

سأغوص في البركة وإن عرفت بأنّي سأنتهي الى قاعها .
سأقامر بلعبة تفضي الى خسارتي .
سأقامر بكل ماأملك ، حتّى أفقد آخر درهم عندي . سأقامر بكياني
نفسه ، ثم أفكر بأنني سأربح من خلال خسارتي نفسها .

٣٠

إنّ بسمّة الحبور كانت تشيع في السّماء حين كسّوتَ روعي برث
التياب وبعثتَ بها لتستجدي على الدرب .
لقد كانت تذهبُ من بابِ الى بابٍ ، وغالباً ماكان يحدث لها أنّ وعاءها
مايكاد يمتلئ حتّى يُسرق ما فيه .
وفي نهاية نهارٍ متعب ، أقبلتُ الى بابِ قصرِكَ ورفعتُ وعاءها الحقيّر
وحيئنذ أتيتَ وأمسكتَ بيدها وأجلستها على العرش الى جانبك .

٣١

طلب الرّب (بوذا) الى تلاميذه حين كانت المجاعة تستبد بمدينة
(شرافاستي) :
- من الذي سيعني بإطعام الجائعين ؟
وخفض الثري (راتناكار) رأسه قائلاً : إنّ إطعام الجائعين يتطلّب مالاً
يزيد كثيراً عن ثروتي كلّها .
وقال (جاييس) قائد جيش الملك : إنني أبذل دمي ، مسروراً ، غير أنه
لايوجد طعام كافٍ في بيتي .
وتنهّد (دارمابال) الذي يملك مراعي فسيحة وقال : إنّ إله الرياح قد

جعل حقولي جافة ولا أدري كيف سأسدّد ضرائبي الى الملك .
وحينئذ نهضت (سوبريا) ابنة المتسول ، وانحنت أمام الجميع وقالت
في تواضع : سأطعم هؤلاء الجائعين .
وصرخ الجميع في عجب : ولكن كيف تأملين أن تتمكني من تحقيق
مبتغاك ؟

وقالت (سوبريا) : إنني أفقر إنسان بينكم ، هذه هي قوتي ، أما المال
والخيرات فسأجدها في كل بيت من بيوتكم .

٣٢

لقد كان ملكي مجهولاً لديّ ، وهكذا فقد جرّوت ، حين طُلبَ اليّ أداء
الضريبة ، أن أفكر في التّواري ، تاركاً ديوني غير مسدّدة .
لقد هربتُ بعيداً ، مُخلفاً عملَ يومي وأحلامَ ليلي .
ولكنّ طلباته كانت تلاحقني في كل زفرة تتردّد في لهاتي .
غير أنني علمتُ بأنني معروفٌ لديه وإنّ كلّ ما في حوزتي لا يخصني .
أما الآن ، فإنني أتشوّف الى أن أضع مالي كلّهُ أمام قدميه ، وأن يكون
لي نصيب في كلّ مكانٍ من مملكته .

٣٣

حين فكّرت في أن أنحت لك مثلاً للعبادة مقتبساً من حياتي ، فقد
أحضرت ترابي ورغباتي وأوهامي الملونة وأحلامي كلّها .
حين طلبت اليك أن تخلق من حياتي مثلاً مقتبساً من قلبك ليتسوّق لي
أن أحبك ، فقد أحضرت نارك وقوتك وحقيقتك وحبك وسلامك .

قال الحاجب لِمَلِكِهِ : مولاي إِنَّ القَدَيْسَ (ناروتام) قد أنف أن يدخل
معبدك الملكي .

إِنَّهُ يَتَرَنَّم بِحَمْدِ رَبِّهِ والدعاء له ، في ظلِّ أشجار الدَّرُوبِ الفسيحة ،
والمعبدُ خالٍ من المتعبدين .

إنهم يتدافعون ويتحلّقون القديس كأسرابِ النحل التي تتحلّقُ زهرة
اللوتس البيضاء ، عازفةً عن الجفنة المذهبة المملأى بالشهد .

وأُسرع الملك كاظماً غيظه ، الى حيث اتّخذ (ناروتام) مجلسه فوق
العشبِ وسأله : ابتاه ، لِمَ هجرتَ معبدي ذا القبة الذهبية وجلستَ فوق
التراب لتدعو الى محبة الرب ؟

فقال (ناروتام) : لأنّ الرب لا يوجد هناك ، في معبدك .
وزوى الملك ما بين عينيه وأجاب : أفلا تعلم أنه قد بُذل عشرون مليون
قطعة ذهبية لإنشاء هذه الطُرفة الفنية ، وأنها قد أعدت لعبادة الله ،
واستلزمت طقوساً ثمينة ؟

وقال (ناروتام) : بلى أنا أعلم . لقد كان ذلك في العام الذي فزع فيه
الى بابك ألوف من رعاياك يطلبون العون عبثاً ، بعد أن دهمت النار بيوتهم ،
فتساءل الرب : أيبني لي هذا المخلوق التّعسُّ معبداً ، ولايقدرُ أن يقدم الى
إخوانه المأوى ؟

وهكذا اتّخذ الرب مكانه لدى أولئك الذين لأمأوى لهم في ظلِّ أشجار
الدروب الفسيحة .

إِنَّ هَذَا المعبدَ ، هذا الزَبَدَ المذهب هو فارغ ، إلّا من بخور الخيلاء
الذي يوضوع فيه .

وصرخ الملك غاضباً : اخرج من أرضي .

فأجاب القديس في هدوء : أجل ، اخرجني من حيث أخرجت أنت من قبل ربّي .

٣٥

البوق جائئٌ في التراب .
الريحُ متعبَةٌ والنورُ ميتٌ .
آه أيها اليوم المشؤوم .
تعالوا أيها المناضلون ، أنتم يامن تحملون الألوية . أيها المغنون ،
أقبلوا بأناشيد الحرب .
تعالوا أيها الحجاج المغذّون في السّير ، المسرعون في الرّحيل .
إنّ البوق جائئٌ في التراب ينتظرنا .
كنت أحمل ، وأنا في طريقي الى المعبد ، قرابين المساء ، وكنت
أبحث عن مكان راحة أفيء اليه ، بعد عناء عملٍ نهارٍ أغبر ، وكنت آملُ أن
أجدَ بلسمًا لجراحي ، وماءً طهوراً لثيابي الملوثة حين ألفت بوقك وقد
توسّد التراب .
أفلم تأنِ السّاعة التي أشعل فيها مصباح الليل .
أفلا يهدد الليلُ النجوم بغناؤه .
إليه أيتها الوردة المخضبة بالدم ، إنّ الأعشاب المنومة قد اصفرّت
وصوّحت .
كنت موقناً بأن ضلالاتي قد مضت ، وأن ديوني قد سُدّدت ، حين
اكتشفتُ ، فجأةً ، بوقك وقد توسّد التراب .
اضرب قلبي الناعس بسحر شبابك .
دع فرحة حياتي تلتهب كالشعلة .

دُعْ سَهَامَ الْفَجْرِ تَنْفِذَ فِي قَلْبِ اللَّيْلِ ، وَلْتَهْزَ رَعِشَةُ الْوَجَلِ إِهَابَ الضَّلَالِ
وَالْجُمُودِ .

لَقَدْ جُنْتُ لِأَرْفَعَ بَوْقَكَ مِنَ التَّرَابِ .
لَنْ يَسْتُولِيَ النَّوْمَ عَلَيَّ أَبَدًا ، سَأَتَّخِذُ سَمْتِي ، مَاشِيًا بَيْنَ سَيُولِ السَّهَامِ .
سَيُخَفِّئُ إِلَيَّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَيُوتِهِمْ وَيُلْزِمُ جَانِبِي ، وَسَيَأْخُذُ بَعْضُهُمْ فِي
الْبِكَاءِ .

سَيَهْتَزُّ آخَرُونَ فِي رِقَادِهِمْ وَسَيَصْرُخُونَ فِي أَحْلَامِهِمُ الْمَرْعَبَةِ .
فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ سَيَدْوِي بَوْقُكَ .
لَقَدْ سَأَلْتُكَ الْأَمْنَ وَلَمْ أَلْقِ سِوَى الْهُوَانِ .
وَالآنَ سَأُمِثِلُ أَمَامَكَ فَأَعْنِي عَلَى ارْتِدَادِ دُرْعِي وَتَقَلِّدِ سِلَاحِي .
دُعْ ضَرْبَاتِ الْمَحَنِ الْقَاسِيَةِ تَضْرِمُ النَّارَ فِي حَيَاتِي .
ذُرْ قَلْبِي يَخْفِقُ فِي الْأَلَمِ بِدَوِيِّ النُّصْرِ .
سَتَرْتَفَعُ عِنْدُكَ ، يَدَايِ الْخَاوِيَتَانِ بِبَوْقِكَ .

٣٦

حِينَ شَالُوا فِي فَرَحَتِهِمُ الْمَجْنُونَةَ ، وَخَلًّا لِيلُوثُوا بِهِ ثُوبَكَ ، آهَ ، أَيُّهَا
الْبَدِيعُ ، فَإِنَّ قَلْبِي قَدْ تَفَطَّرَ أَلْمًا .
وَصَرَخْتُ وَقُلْتُ لَهُ : أَمْسِكْ بِسُوطِ الْعَذَابِ وَاحْكَمْ عَلَيْهِمْ .
وَكَانَ نُورُ الصَّبَاحِ يَسْفَعُ تِلْكَ الْعَيُونَ الْمَحْمَرَّةَ بِفَجْورِ لَيْلَتِهِمْ . وَاسْتَقْبَلَ
بَسْتَانَ السَّوْسَنِ الْأَبْيَضَ لِهَائِثِهِمُ الْمَحْرَقِ ، وَجَعَلَتْ النُّجُومُ تَتَأَمَّلُ ، عَبْرَ أَعْمَاقِ
الظُّلْمَةِ الْمُقَدَّسَةِ ، فِي فَسَقِهِمْ ، فَسَقِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَنَاولُونَ وَخَلًّا
لِيلُوثُوا بِهِ ثُوبَكَ ، آهَ أَيُّهَا الْبَدِيعُ .
وَكَانَ مَجْلِسُ عَدْلِكَ ، يَسْمُو فِي بَسْتَانِ الْأَرَاهِيرِ ، فِي رَبِيعٍ مَخْضَلٍّ

بألحان الطيور ، على سيف الأنهار الظليل ، حيث يتجاوب همس الأشجار مع همس الأمواج .

إيه أيها الحبيب ، لقد نضبت نفوسهم من الرأفة ، وهم سادرون في ضلالهم .
لقد داروا في الظلام لينتزعو حليك ويزينوا به شهواتهم وحين ضربوك وعذبوك ، تصدّع قلبي ألماً ، وصرختُ قائلاً : أمسك بسيفك أيها الحبيب وعاقبهم .

بيد أن عدلك كان ساهراً .

لقد ذُرفت دموعُ أمّ على تحديهم ، بيد أن رحمة الحبّ الخالدة قد وارت في جراحها أسلحةً تمرّدهم .

وكان عقابك لهم يتّسق في ذلك الألم الصامت من الحبّ اليقظان ، وفي تلك الحمرة المترققة من الطهر ، وفي تلك الدّموع التي يسفحها المحزون في الليل ، وفي ذلك النور الشاحب المنسكب من فجر الغفران .

آه أيها الرهيب ، إنهم في جشعهم المتماذي ، قد تجاوزوا ذات ليلة حدودهم فحطّموا أبواب بيتك لينهبوا ما لديك .

ولكنّ عبء أسلابهم أضحى ثقيلاً فلم يقدرُوا أن يحملوها بل أن يحركوها ، حينئذ صرختُ قائلاً : اغفر لهم آه ، أيها الرهيب .

وانتشر غُفرانك في عواصف زعزعتهم وبعثرت أسلابهم في التراب .

لقد كان غفرانك في الصّاعقة ، في الأمطار الدّامية . في الغضب المخضّب المنثال من الشّمس الغاربة .

كان (ابوغوبتا) تلميذ (بوذا) يتوسّد التراب ، مضطجعاً وظهره الى سور مدينة (ماتورا) .

وكانت المصابيح كلّها مطفأةً ، والأبواب كلّها موصدةً ، والنجوم كلّها خبيئةً في سماءٍ غائمةٍ من شهر آب .

لمن هذه الأقدام التي يوسوس حليها ويلامس صدره عفواً ؟
لقد استيقظ مرتعشاً ، وفجأ نورٌ يشعّ من مصباح امرأة ، عينيه الطّافحتين بالفقران .

كانت راقصةً مزينةً بالجواهر ، ملتفةً بمعطفٍ حائلٍ الزرقة ، وكانت ثملةً بخمر صباها .

وطامت مصباحها ، فرأت وجهاً فتياً ذا قسمات جميلة بادية التقشّف .
وقالت المرأة : اغفر لي أيّها النّاسك الفتى ، أفلا تقبل الى بيتي فيأهل بك ؟
إنّ الأرض المغبرة لاتليق بك فراشاً .

وأجابها النّاسك : على رسلك أيّتها المرأة ، حين يآزف الزّمن ، فإنني سأتي اليك .

وانشقّ الليل الأسود ، فجأة ، عن وميضٍ برقٍ . وأقبلت العاصفة من الأفق راعدةً ، فارتجفت المرأة رعباً .

وكانت أغصان الأشجار النّامية على حيد الدّرب تتشّني ببراعمها .
وكانت أنغام النّاي الجدلى تهزج بعيداً مع نسيمات الربيع الدّافئة .
وكان سكّان المدينة قد فزعوا الى الغابة احتفالاً بعيد الأزاهير .
وكان القمر يتأمّل ، من مشارف السّماء ، في ظلال المدينة الصّامّة .
وكان النّاسك الفتى يسير في الطّريق المقفرة ، وفوق رأسه كانت الطّيور المتّيمة حبّاً تغرّد على عذّبات أغصان العنباء شكاتها اليقظى .
وجاز (اوبوغوبتا) بابَ المدينة وانتصب أمام السّور .
من هي تلك المرأة المضطّجعة ، بحذاء قدميه ، في ظلّ السّور ، المصابة

بالطّاعون الأسود ، المنقولة بمحفّة ، سريعاً ، الى خارج المدينة ، وجسمها
ملطّخٌ بالجراح ؟

وجلس النَّاسك الى جانبها ، وأمسك برأسها وأراحه على ركبتيه وبَلَلْ
شفتيها بالماء ، ولفَّ جسمها بالضّماد ، وسألته المرأة : من أنت أيّها
الرحيم ؟
فأجابها النَّاسك الفتى : لقد أظف الزمن الذي أزورك فيه ، وها أنذا
أمامك .

٣٨

إنّ الحب الذي يجمع بيننا ، يا حبيبي ، ليس عبثاً بسيطاً .
مرّة تلو المرّة ، عصفت بي ليالي الرياح المزمجرة ، مطفنةٌ مصباحي ،
تجمّعت الشّكوك السوداء لتمحو النجوم كلّها من سمائي .
مرّة تلو المرّة ، تحطّمت السدودُ لتدع فيضَ الماء يجرف حصادي ،
ومزقَ اليأسُ والنحيبُ ، أطراف سمائي .
وقد تعلّمت أنّ ضربات الألم تتردّد في حبّك ، ولا تتردّد في جمود
المنية البارد .

٣٩

وينشقّ الحائطُ ، ويتسلّل النورُ ، تلك الضحكة الالهية .
أيّها النصر ، إليه أيّها النور .
إنّ قلب الليل طعينٌ .
إقطع بسيف شعلتك عقدة الشك والرغبات الواهنة .

أيها النصر .

تعال أنت الذي لا يهدأ أواره .

تعال أيها الرهيب في بياضك الناصع .

إيه أيها النور ، إن قرع طبلك يواكب مشية النار ، والشعلة الحمراء قد

رفعت الى العلاء ، والموت يُحتضر في روعة راعشة .

٤٠

أيها اللهب ، يا أخي ، إنني أغني لك أغنية النصر .

أنت صورة خضيبية متألنة للحرية المخيفة .

إنك تمد ذراعيك الى السماء وتمس بأناملك الشائرة ، أوتار المعزف .

إن موسيقا رقصتك لرائعة .

حين تنتهي أيامي ، وتفتح الأبواب ، فإنك ستحرق أوتار يدي ورجلي ،

حتى تصير الى رماد .

سيتحد جسمي بك ويؤلف معه كلاً واحداً ، وستعصف زعازع جنونك

بقلبي ، وستفجر في دفقة واحدة ، الحرارة المحرقة ، التي كانت تكمن في

حياتي ، وتنحو اليك لتمتزج بشعلتك .

٤١

الملاح يتهياً في الخارج لركوب البحر الهائج ، تحت جناح الليل .

القلوع تنن ، على جذب الريح الغضوب التي تملأ أشرعتها .

وتمزقت السماء بمخالب الليل ، وتطامنت فوق البحر وبشت فيه سم

المخاوف السوداء .

الأمواج تنفض ذراها نحو الحلقة الداجية ، والملاحُ يتهياً في الخارج
ليركب البحر الهائج .

لا أعلم أيّ موعدٍ ينتظر الملاح في الخارج وهو يُرعى الليل ببياضٍ
مفاجيء من أشرعته .

لا أدري أيّ شاطئٍ يرسو عليه أخيراً ليصل الى الحديقة الصامتة ، حيث
ينير المصباح ، فيلقى تلك التي تنتظره وهي تقعد التراب .

الى أي هدف يسعى قاربه الذي لايهاب العاصفة والظلام ؟
تراه مثقلاً بالجواهر واللالء ؟

لا . إن الملاح لا يحمل معه كنوزاً ، بل يحمل زهرة بيضاء في يده
وأغنيةً على شفّتيه .

ليقدّمهما الى تلك التي تسهر وحدها في الليل ، مع مصباحها المنير .

إنّها تسكنُ في كوخها القائم على الطريق .

وغدائرها تنوس في الريح وتخفي عينيها .

العاصفةُ تعول عبر الأبواب المحطّمة ويترنّح النور في مصباحها ، مريقاً
ظلاله فوق الجدران .

إنّها لتسمعه في زفيف الريح ، يناديها باسمها ، هي ذات الاسم
المجهول .

منذ زمنٍ طويلٍ أقلع الملاح .

ينبغي مرورُ زمنٍ طويلٍ حتّى يسفر الفجر ويقرع بابها .

لن تُضرب الطبول ولن يعلم أحد .

ولكن سيفعم النورُ الدارَ وسيضحى التراب مباركاً سعيداً .

ستتلاشى الشكوك كلّها ، في صمتٍ ، حين يصل الملاح الى
الشاطئ .

إنني أتعلّق بتلك العوامة الحيّة ، بجسدي ، لأعبر بها ذلك النهر الضيق
 من أعوامي الأرضيّة وسأتركه حين تتم النقلة .
 وبعد ذلك ؟
 لأدري ما إذا كان النور واليقظة سيتشابهان هناك .
 إنّ المجهول هو الحرّية الدائمة .
 إنه لا يعرف الرّحمة في حبّه .
 وإنّه ليحطّم الصّدقة ليعثر على اللؤلؤة في سجنها المظلم .
 أفلا تحلم في الأيام الخالية وتبكيها أيّها القلب المسكين ؟
 افرح فإنّ أيّاماً لك هي بسبيل القدوم .
 آه أيّها الحاج ، لقد دقت الساعة .
 هاقد أقبل الزمن الذي تأخذ فيه أدراجك .
 سيحسر لك عن وجهه ، مرة أخرى ، وستلّفي نفسك أمامه .

بنى الملك (بمبيسار) فوق ضريح (بوذا) مذبحاً من المرمر الأبيض
 تمجيداً لذكراه .
 وفي المساء كانت الزوجات والفتيات في بيت الملك يقبلن كلّهن
 بقرايين الزهر ويشعلن المصابيح . ولمّا تسلّم ابن الملك العرش غمر في
 عهده نحلة أبيه بسيولٍ من الدماء وأرث بكتبه المقدّسه نيران المحارق .
 وكان يوم الخريف يحترق .
 ودنت ساعة العبادة في السّماء .

ورامقت في هدوء (شريماتي) وصيفة الملك المؤتمة بمذهب الرب
(بوذا) ، فيما كانت تغسل بالماء المقدس وتضع فوق الطبق مصابيح وبراعم
بيضاء ريًا ، رامقت بعينيهما الكئيبتين وجه المَلِكَة .

وارتعشت الملكة خوفاً وقالت : أفلا تعلمين أيتها الفتاة الرعناء أن
الموت هو عقاب من يتَّجه بعبادته الى مذبح (بوذا) ؟
تلك هي إرادة الملك .

وانحنى (شريماتي) ساجدةً أمام الملكة ، ولمّا جازت الباب انتصبت
واقفة أمام (أميتا) زوج ابن الملك الجديدة .

وكانت الزّوج الجديدة تضفر شعرها الطويل الفاحم ، وقد أراحت على
ركبتيهما مرآة مذهبة مليسة الصّقال ، وجعلت ترسم علامة السعد الحمراء على
مفرق شعرها .

وارتجفت يداها حين لمحت الفتاة وصرخت قائلة : أي خطر رهيب
تسوقينه إليّ ، اغربي عن وجهي الآن .

وكانت الأميرة (شوكلا) جالسة أمام النافذة وهي تطالع ، على نور
الشمس الغاربة ، كتاباً في الحب ، وجاذبتها رعدة حين بصرت بالفتاة أمام
الباب ، حاملةً قرابينها المقدسة .

وسقط الكتاب من ركبتيهما وهمست في اذن (شريماتي) :

- لا تُسرعي الى حتفك أيتها المرأة الجريئة .

وكانت شريماتي تدور من باب الى باب .

وكانت ترفع يديها هاتفَةً : إيه يانساء الملك أسرعن ، لقد أظف وقت
عبادة الرب .

وأغلق بعضهن الباب في وجهها وأهانها بعضهن الآخر .

وكانت أشعة النهار الأخيرة تذوي فوق قبة برج القصر البرونزية .

وكانت ظلالاً داكنة تتجمّع في أطراف الدروب ، وعلت جلبة المدينة ، ودوى

طبل معبد (شيفا) مؤذناً بساعة صلاة العشاء .

وكانت النجوم ترفّ بالنور في عتمة مساءٍ خريفيّ عميقٍ كبحيرة صافية ، حين ارتجف حراس الحديقة الملكية وهم يشاهدون عبر الأشجار المتواشجة صفّاً من المصابيح تتلألأ في مذبح (بوذا) .

وخفّوا مسرعين وقد شرّعوا سيوفهم وأخذوا يصرخون :

- من أنت أيّها المجنون الذي يتحدّى الموت ؟

وأجاب صوت عذب : أنا (شريماتي) خادم الرب بوذا .

وبعد لحظة صبغ دم قلبها بخضابه الأحمر المرمّر البارد .

وفي هدأة النجوم كانت تذوي أشعة آخر مصابيح العبادة أمام المذبح .

٤٤

إنّ هذا اليوم الذي يفصل بيني وبينك يشير إلينا إشارة الوداع .

وأرعى الليل سدوله على وجهه ، وأخفى المصباح الوحيد الذي ينير في

غرفتي .

لقد دخل خادمك الأسمر ، دون ضجة ، ومدّ بساط الزوجية لتتخذ

مجلسك فوقه ، وتخلو إليّ في صمت الكون ، حتّى ينقضي الليل .

٤٥

لقد مرّ الليل فوق سرير الحزن . لقد استبدّ التعب بعيني . إنّ قلبي

المثقل لمّا يستعد لاستقبال الفجر بأفراحه الجمّة .

أسدل ستاراً على ذلك النور العاري . أقص عني ذلك البريق الساطع ،

وابعد عني رقصة الحياة .

فليسربلني وشاحك ذو الظلمة الناعمة بطياته ، وليسربل ألمي
ويحجبه ، لحظةً ، من عناء هذا الكون .

٤٦

لقد مرّ الزمن الذي كان في مقدوري أن أعيد إليها كلّ ما كنت أتلّقاه .
إنّ ليلها قد لقي فجره ، وقد أمسكتُ بها يداك . سأجلب ، اليك أنت ،
عرفاني وهباتي التي كنتُ أخصّها بها .
إنني قادمٌ اليك ، لتمنحها مغفرتك ، وإنّها لتتشفع بالآلام والإهانات التي
تلقتّها .
إنني أزجي الى خدمتك ، هذه الزهرات ، زهرات حبي التي تظل
مبرعمة ، فيما تنتظر هي أن تتفتح .

٤٧

لقد عثرتُ في صندوقها الصغير على بعض رسائلني مخبأةً بعناية - تلك
قبضةً من الدمى الصغيرة التي تلهو بها ذاكرتها .
لقد حاولت بقلبي واجف ، أن تنجو بهذه التفاهات من نهر الزمن
الجارف ، وقالت : إنّها لي ، لي وحدي ، آه ، لم يبقَ إنسان يطالب بها ،
ليدفع ثمناً لها تلك العناية العاشقة ، فلما تزال خبيثةً هنا حتّى الآن .
إنّ في هذا العالم - لابدّ - حباً ينقذها من النسيان التام ، كما أنقذ
حبّها ، بعناية العاشقة الحنون ، تلك الرسائل .

أَيْتَهَا المرأة ، اجلبي لحياتي البائسة الجمال والنظام ، كما كنتِ
تجلينَ ذلك لمنزلي وأنتِ حية .
اكنسي غبار السّاحات وأوساخها . املاي الجرار الفارغة . ورتبي كلّ ما
أضحى مهملاً .
ثمّ افتحي الباب الدّاخلي ، في المذبح ، وأشعلي الشموع ، ولنتلاقَ ،
في صمتٍ ، هناك أمام ربّنا .

مولايّ ، لقد أضحى الألم كبيراً . حين تمّ ضبط الأوتار وموآلفتها .
ابدأ بموسيقاك ، ودعني أنسَ فيها الألم ، اجعلني استشعر الجمال فيما
كان يدور بخلدك خلال الأيّام القاسية .
إنّ الليل الذي يتضاءل ويُمحي ، يمكث متأخراً على أبوابي ، دعه
يتلاشّ في أغنيات .
دع قلبك ، يامعلّمي ، يتسلسل على أوتار حياتي ، في نغماتٍ تتنزل
من نجومك .

في بريق لحظة خاطفة ، استجلبتُ عظمةَ خلقك في حياتي ، هذا الخلق
الذي يتسلسل ، عبر الموت من كونٍ الى كونٍ .
لقد بكيتُ على اتّصاعي ، وأنا ألفي حياتي رهنَ ساعاتٍ لامعنى لها ،

بيدَ أنني حين أراها بين يديك ، أعلم بأنها أجدى كثيراً من أن تُبعثر بين
الظلال .

٥١

إنني أعلم بأن الشمس ستوافيني ، ذاتَ يوم ، في غروبٍ داكنٍ ،
بوداعها الأخير .

سينفخ الرعاة في ناياتهم ، متفئين أشجار التين ، وسترعى القطعان
عند منحدر النهر فيما تترادف أيامي في الظلام .

ويهفو هذا الدعاء مني : تُراني أستطيع أن أعلم ، قبل أن أغادر الأرض ،
لِمَ أخذتني بين ذراعيها ؟

علامَ حدثني صمتُ لياليها عن النجوم ؟ ، علامَ برَّعَ شعاع نهارها ،
بقبلته ، زهرة خواطري ؟

ترى هل يتأتى لي ، قبل الرحيل ، أن أتخلف واستريح الى نغمي
الأخير ، حتّى أتمم به موسيقاه ، وأن يشعّ المصباح حتّى استجلي وجهك ،
وأن يضفر الإكليل حتّى أزينك به ؟

٥٢

ماهي تلك الموسيقى التي تهذهد الكونَ بإيقاعها ؟

إننا لنضحك حين يتردّد صداها فوق ذروة الحياة ، ونرتجف هلعاً حين
تنكفى، الى الظلمة .

ومع هذا ، فإنّ هذا النغم هو نفسه الذي يقبل وينأى على وزن هذه
الموسيقا الخالدة .

إنَّكَ تخفي كنزك ، وإننا لنصرخ : إننا قد سُرِقنا .
ولكن سواء عليك أشددت راحتك أم بسطتها ، كما تشاء ، فإنَّ الربح والخسار متماثلان .
إنَّكَ في لهوك مع نفسك تخسر وتربح معاً .

٥٣

لقد لثمتُ هذا الكون بعيني وجسمي كلّه ، وأدخلته قلبي بطيَّاته التي لاحصر لها ، وسفحت فوق أيامه ولياليه شتى الأفكار ، حتَّى التأم الكون مع حياتي في كلّ واحدٍ - وإنني لأكلف بحياتي لأنني أعبد نور السَّماء الكامن في نفسي .
إذا كانت مغادرة هذا الكون حقيقةً كحقيقة الشغف به ، فينبغي أن يكون ثمة تفسير لكل لقاء أو فراقٍ في الحياة .
وإذا كان على الحب أن يحظى بالخبرة من الموت ، فإنَّ حشرة هذه الخيبة سوف تقرض كلّ شيءٍ وسوف تذوي النجوم نفسها وتمسي مظلمة .

٥٤

قالت لي الغمامة : سأمحي .
وقال الليل : سأغيب في الفجر المضطرم .
وقال الألم : سألوذ بصمتٍ عميقٍ كآثارِ خطاه .
وأجابت حياتي : سأموت وأنا في منتهى الكمال .
وقالت الأرض : إنَّ أنوارِي تلثم أفكارك في كلّ لحظة .
وقال الحب : وتمضي الأيام ولكنني أنتظر .
وقال الموت : سأقود زورق حياتك عبر البحر .

كان الشّاعر (توليسداس) يتخَطَّر ، وهو مستغرق في أفكاره ، قرب نهر (الغانج) ، في ذلك المكان المنعزل الذي يحرق فيه الموتى ، فَبَصُرَ بِامْرَأَةٍ ، اتَّخَذَتْ مَجْلِسَهَا إِلَى جَانِبِ قَدَمِي جَثْمَانِ زَوْجِهَا ، وَقَدْ لَفَّ بَرْدَاءُ زَاهٍ كَأَنَّهُ ثَوْبُ عُرْسٍ .

وَلَمَّا رَأَتْهُ ، نَهَضَتْ ثُمَّ جَثَّتْ سَاجِدَةً لَهُ وَقَالَتْ :
مولاي اسمح لي أن أتبع زوجي الى السَّمَاءِ محفوفةً ببركتك .
وَأَجَابَ (توليسداس) : فِيمَ الْعَجَلَةِ يَا بَنِيَّتِي ؟ أَلَا تَخْصُ هَذِهِ الْأَرْضَ ذَاكَ
الَّذِي سَمَّكَ ^(١) السَّمَاءَ ؟

وَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : إِنِّي لَا أَهْفُو إِلَى السَّمَاءِ وَلَكِنِّي أُرِيدُ زَوْجِي .
وَابْتَسَمَ (توليسداس) وَقَالَ : ارْجِعِي إِلَى بَيْتِكَ يَا بَنِيَّتِي فَسَوْفَ تَلْقَيْنِ
زَوْجَكَ قَبْلَ أَنْ يَنْصَرِمَ الشَّهْرُ .

وَعَادَتِ الْمَرْأَةُ بِأَمَلٍ بِهِيجٍ ، وَجَعَلَ (توليسداس) يُوَافِيهَا ، كُلَّ يَوْمٍ ،
وَيَهَبُ لَهَا الْخَوَاطِرَ السَّامِيَةَ لِتَفَكَّرَ فِيهَا ، حَتَّى جَاءَ يَوْمٌ امْتَلَأَ فِيهِ قَلْبُهَا وَأَفْعَمَ
بِالْحُبِّ الْإِلَهِيِّ ، وَكَانَ الشَّهْرُ يَوْشِكُ أَنْ يَنْتَهِيَ ، حِينَ جَاءَ جِيرَانُهَا
مُسْتَفْهِمِينَ : أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ هَلْ لَقِيتِ زَوْجَكَ ؟

وَأَجَابَتِ الْأَيِّمُ بِاسْمَةٍ : لَقَدْ لَقَيْتُهُ .

وَالْحَفَوا فِي سَوَالِهِمْ : وَلَكِنْ أَيْنَ هُوَ ؟

فَرَدَّتْ عَلَيْهِمْ : إِنَّهُ فِي قَلْبِي يَقِيمُ سَيِّدِي وَحْدَهُ .

(١) سمك السماء : رفعها .

لقد جئتِ ، لتمكثي لحظةً الى جانبي ، فلمستني واشعرتني سرّ المرأة الكبير الكامن في قلب الخلق نفسه .

إنّها نفسها تلك التي تُعيد دوماً الى الربّ أمواج عذوبتها الفياضة . إنّها الجمال المتّصل الجدة ، الدائم الشّباب في الطبيعة . إنّها ترقص مع الجداول المزبدة المتدفّقة ، وتغني مع نور الفجر ، وتنقع ظمأ الأرض بموجاتها الهادرة . لقد تجسّد فيها الوحدة والخلود معاً ، لتنبثق في فرحة لا يمكن أن يعقل جماحها ، ثمّ تنصبّ في ألم الحب .

تُرى من هي تلك المرأة التي تسكن قلبي ، تلك المرأة البائسة دوماً ؟
لقد غازلتها ولم أستطع أن أستميلها اليّ .
لقد زينتها بالأكاليل وتغرّلت بمحاسنها .
وتلاّلت إبتسامةً في محياها ثمّ انطفأت .
وصرخت المرأة الحزينة : لا يداخني أيّ سرور منك .
وشريتُ لها خواتم ثمينة ووهبت لها مروحةً مرصعةً بالجواهر ، وسويت لها سريراً ممّوهاً بالذهب .

وترقرق نور الرضا في عينيها ، لحظةً ، ثمّ تلاشى .
وصرخت المرأة الحزينة : لا أجد أيّ سرور في هذه الأشياء .
وأجلستها في مركبة النّصر ، ثمّ سرت بها بين أطراف الأرض .
وتهاوت الى قدميها قلوبٌ متيمةٌ ، وتناهت رعود التصفيق الى السّماء .
وشعّت الخيلاء في نظرتها ، لحظةً ، ثمّ غامت الدموع في عينيها .

وصرخت المرأة الحزينة : لأجد أي متعة في الظفر والغلاب .
 وسألتها : اذكري لي من تنتظرين ؟
 وقالت : انتظر ذاك الذي لا يعرف اسمه .
 وانقضت أيام وصرخت المرأة : متى يأتي حبيبي ذاك الذي لأعرفه
 البتة ، حتى تتصل معرفتي به الى الأبد ؟

٥٨

لك ذلك الشعاع الذي يتفجر من الظلمات ، ولك تلك الطيبة التي تنبت
 في القلب المضمن بالكفاح .
 لك الدار المنفسحة للجميع ، ولك الحب الذي يهتف في ميدان المعركة .
 لك العطاء الذي يظل ربحاً حين تتراءى الأشياء كلها ضائعة ، ولك الحياة
 التي تسيل في هوة الموت .
 لك تلك السماء المتوارية خلف التراب ، وتظل أنت هناك من أجلي ،
 من أجل الجميع .

٥٩

حين أنوء بمشقة الطريق وظماً اليوم القاحل ، وحين تفرش طيوف
 ساعات الغروب ظلالها فوق حياتي فلا أهفو الى صوتك فحسب أيها الرفيق ،
 ولكن أهفو الى لمستك .
 إن في قلبي فرعاً . إنه يحمل عبء غناه الذي لم يمنحه إتيك .
 مدّ يدك ، عبر الظلام لأتمسك بها وأملأها وأحفظها ، دعني أشعر
 بلمستها في الإمتداد المتصل من وحدتي .

هتَفَ شذا البرعم قائلاً : آه ، إنَّ النهار السَّعيد ، نهار الربيع يمضي ،
وأنا حبيس الأفواف .

- أيَّها الشيء الصغير البسيط ، استمسك بشجاعتك .

إنَّ كلَّ صلة لك سوف تنبَت ، سيتنوَّر البرعم زهرة وحين يخترم الموتُ
حياتك الملأى ، فإنَّ الربيع نفسه سوف يبعثك مرَّة أخرى .

وتملِّم الشذا قلقاً من البرعم وصرخ : آه ، إنَّ السَّاعات تمضي ،
ولا أدري حتَّى الآن أنَّى أتَّجه ، وأيَّ شيء أبغي .

- أيَّها الشيء الصغير البسيط استمسك بشجاعتك .

إنَّ نسيم الربيع قد سبق رغبتك ، ولن ينقضي النّهار قبل أن تتمم
وجودك .

وتراءى المستقبل للشذا غامضاً فصرخ يائساً : آه ؛ إن تراءت حياتي
خالية من أيّ معنى ، فمن المسؤول عن هذا الخطأ ؟

من يقدر أن يقول لي : لِمَ وجدت ؟

- أيَّها الشيء البسيط استمسك بشجاعتك .

إنَّ الفجر المكتمل قريب ، حيث تبرز حياتك بالحياة الأبدية ، وحيث
تدرك أخيراً تفسير وجودك .

ربّاه ، إنَّها ماتزال طفلة .

إنَّها تركض حول قصرِكَ وتلعب ، ثمَّ تحاول أن تجعل منك أيضاً دمية
من دماها .

إنها لاتلقي بالاً الى غدائرها تترامى مشعثةً ولا إلى ثيابها المهمة
تنزلق مغبرةً ، الى الأرض .

إنها تغفوحين تخاطبها ولاتجيب البتة ، وتملّس الزهرة التي تهبها لها ،
صباحاً ، من راحتها وتقع فوق التراب .

وحين تهبّ العاصفة ويكفهر وجه السماء ، فإنها تستيقظ ، وترمي
بدميتها أرضاً ، وتتمسك بك ، مذعورة .

إنها تخشى أن تقصر في خدمتك .

ولكنك ترامقها ، باسماً ، فيما هي تلهو .

إنك تعرفها .

هذه الطفلة الجالسة فوق التراب ، إنها عروسك المقدرة لك ، أما لعبها
فسوف يهدأ ويحور حباً عميقاً .

٦٢

هتفت قطرة الندى :

- أيتها الشَّمس ، أي شيء - عدا السماء - يستطيع أن يسع صورتك ؟

إنني أحلم بك ولكنني لأطمع بأن تتاح لي خدمتك .

وأضافت وهي تبكي :

- إنني أصغر من أن أحتويك ، أيتها الملكة العظيمة ، فحياتي كلّها

دموع .

وأجابت الشَّمس :

- إنني أضيء السماء غير المحدودة ، ولكنني أستطيع أن أقدم نفسي

الى أصغر قطرة من الندى ، وهكذا ، فإنني أضحي قبساً من النور يملوك ،
وتضحى حياتك الصغيرة كأساً ضاحكة .

ليس لي ذلك الحبّ الذي لا يعرف الحدود ، ويعدو مستشرفاً حتفَه في لحظة ، كالخمر المزبدة التي تحطّم آنيّتها . هبّ لي ذلك الندى النقي كمطرِك الذي يبارك الأرض العطشى ويملأ جرار البيت الفخاريّة .

هبّ لي ذلك الحبّ الذي يوَدّ أن ينفذ الى أغوار الوجود .

ثمّ ينساب من ثمّة ، نسغاً خفياً ، في أغصان شجرة الحياة ، ليبعث القمار والأزهار .

هبّ لي ذلك الحبّ الذي يسريل القلب بالأمن .

لقد غابت الشّمس خلف الشّاطىء الغربيّ من النهر ، في قلبِ أدغال الغابة .

وساق النّسّاك الفتیان القطعانَ الى الحظائر ، ولمّا جلسوا حول النّار ليصفوا الى المعلّم (غوماتا) أقبل فتى غريب وأهدى الى المعلّم زهوراً وفاكهةً ، وانحنى أمامه حتّى دانى قدميه ، وخاطبه بصوتٍ ناعمٍ كأغرودة عصفور : مولاي ، لقد قدمت اليك لتقودني الى نهج الحقيقة السّامية .

إنني أدعى (ساتيا كاما) .

وقال المعلّم : لتظلّلك البركة ، أي مذهب تعتنق يا بنيّ فإنّ البرهمي وحده هو الذي يتشوّف الى الحكمة السّامية .

وأجاب الفتى : إنني لا أعرف أيّ نحلةٍ أنميّ إليها ، سأقصد أُمّي وأستوضحها .

ولمّا استوفى (ساتيا كاما) كلامه ، عاد أدراجه وخاض النهر الضّحل ،

ثم آتخذ سمته نحو كوخ أمه الصغير الذي يقوم في طرف الصحراء الرملية المتراصة على حدود القرية الغافية .

وكان نور المصباح النحيل يضيء الغرفة ، وكانت أمه منتصبه أمام الباب تنتظر في الظلام عودة ابنها .

وضمته الى صدرها ولثمت شعره ، واستوضحته عن زيارته للمعلم فسألها : ما اسم أبي يأمي العزيزة ؟ لقد قال لي المعلم (غوماتا) إن للبرهمي وحده الحق في نشدان الحكمة الخالدة .

وغضت المرأة طرفها وهمست قائلة : لقد كنت في صباي فقيرة ، فخدمت عدة أسياد وقد تلقفك حين ولدت يا حبيبي ، ساعدا أمك (جابالا) ، أمك التي لم تحظ بزواج قط .

وكانت أشعة الشمس الباكرا ، تتلألأ فوق عذبات الأغصان من غابة الصومعة . وكان المريدون ، بشعرهم المشعث المطلول برطوبة الفجر ، قد اتخذوا مجلسهم في ظل الشجرة الهرمة ، قبالة معلمهم . ومثل (ساتيا كاما) أمامه .

وجثا أمام الحكيم حتى داني قدميه ، ولاذ بالصمت ، فسأله المعلم الأكبر : الى أي نحلة تنمي ؟

فقال : مولاي إنني لأدري ، ولقد أجابت أمي حين استوضحتها ذلك قائلة : إنني خدمت عدة أسياد في صباي وقد تلقفك حين ولدت ، ساعدا أمك (جابالا) ، أمك التي لم تحظ بزواج قط .

وارتفع همس شبيه بطنين النحل الهائج حين يُعبث بخليته ، وثار المريدون غضباً من سفه هذا الفتى المجهول النجار والمذهب .

ونفض المعلم (غوماتا) من مجلسه ، وبسط للفتى ذراعيه ، ثم ضمّه الى صدره وقال له ، أنت أفضل البراهمة يابني ، لأنك تحمل في عطفك أنبل ارث من الحقيقة .

لعلّه يوجد في هذه المدينة بيت واحد ، يفتح بابه ، في هذا الصّباح ، ويظلّ كذلك الى الأبد ، حين تلمسه شمس الشّروق ، حيث تتم رسالة النور الشّارد .
لقد تفتّحت الأزهار في الحداثق ، وبين وشيع الشّجر ، فلعلّه يوجد ،
ثمّه قلب واحد قد ألفى فيها ، هذا الصّباح ، الهبة التي ظفر بها في رحلته
منذ العصور الخالية .

أيّها القلب ، اصغ . إنّ في هذا النّاي تنسرب موسيقا الأزهار البريّة
والأوراق المؤتلفة والأمواه المتألّثة ، تنساب موسيقا الظلال المرنّانة
المتجاوبة مع رفيف أجنحة النحل .
لقد نسل النّاي بسمّته من شفة رفيقي ثمّ سلسلها في حياتي .

دوماً ، تقف أنت وحيداً بعيداً عن أغنيات المتماوجة .
إنّ موجات أنغامي تغمر قدميك ، بيد أنني لأدري كيف أصل اليهما .
إنّ ما أعزفه لك هو موسيقا نائية جداً .
إنه ألم الفراق الذي استحال الى نغم ، إنه ينساب من النّاي الذي أنفخ
فيه .
إنني أنتظر السّاعة التي يجوز فيها قاربك الماء . ويرسو على
الشّاطئ ، حيث تمسك يدك بهذا النّاي .

في هذا الصّباح ، فتحت ، فجأة نافذة قلبي ، النافذة التي تراقب قلبك .
لقد تولّتي الدهشة وأنا أفاجأ بالاسم الذي عرفتنى به ، مسطوراً على ورقات
نيسان ، وأزاهيره .

وجعلت أنتظر صامتاً .

لقد انحسر ، في لحظة ، الستار الذي يفصل بين أناشيدي وأناشيدك .
وألفيت أنّ شعاع صباحك كان مفعماً بأناشيدي الخرساء التي لم أترنّم
بها بعد ، وقد فكّرت في أنني سأجيد تعلّمها وأنا بين قدميك ، وطفقت
انتظر صامتاً .

لقد كنت في مركز قلبي ، ولهذا فإنها لم تعثر عليك قط حين هفا قلبي هائماً .
لقد تواريت أنت عن حبي وعزفت عن آخر آمالي التي واكبتها دوماً .
كنت الفرح العميق في لهو شبابي ، وحين كنت مشغولاً بلهوي مرّ
الفرح ومضى .

لقد غيّت لي في كلّ نشوة من حياتي ، غير أنني نسيت أن أغني لك .

حين ترفع مصباحك في السماء فإنه يريق نوره على وجهي ويتطامن ظلّه فوقك .
وحين أرفع مصباح الحب في قلبي ، فإنّ نوره ينسكب فوقك ، وأقع
أنا ، في الظل ، وحيداً .

إيه أيتها الأمواج التي تلتهم السماء ، الأمواج المتلألئة بالنور والحياة
 الدفافة ، الأمواج التي لاتني تثب ، فرحاً في جزرٍ ومدً .
 لقد هُدهدت النجوم بها ، وانجذبت أفكارٌ غميسةٌ بشتى الألوان الى
 الأغوار العميقة ، ثم انسربت على شواطئ الحياة .
 وتسامى الميلاد والموت ، وتهاويا على إيقاعها ، وبسط عصفور البحر
 الذي يرهب روعي ، جناحيه ليشدو نشوته .

لقد هلت الفرحة مسرعة من جميع أطراف الكون لتسوي جسمي .
 لقد قبّلتها أشعة السماوات ثم قبّلتها حتى استفاقت الى الحياة .
 إن أزاهير الصيف المولي سريعا ، قد تنهدت في أنفاسها وغنت وسوسة
 المياه ، وهيمنة الرياح في حركاتها .
 إن الألوان المتقدمة من الغيوم والغابات قد انثالت الى حياتها ، وداعت
 موسيقا الأشياء كلها أعضاءها لتمنحها إهاب الجمال .
 إنها عروسي ، وقد أشعلت مصباحها في بيتي .

إن الربيع بأوراقه وأزاهيره قد ملاً أعطافي .
 فيه يطن النحل ، طوال الصباح ، وفيه تلعب الرياح وانية كسلى مع
 الظلال .

وتفجّر من قلب قلبي نبعٌ شهبي .
 إنّ عينيّ تغتسلان فيه بنشوةٍ ، كما يغتسل الفجر في الندى ، وترتعش
 الحياة في أعضائي كلّها كأنها أوتار المعزف المرناة .
 أما تهيم وحيداً ، ياعاشقَ أيامي الخالدة ، على شاطئٍ حياتي ، حيث
 تصطبّخ الأمواج ؟
 أما ترفرف أحلامي حوالياً كأنها طيورٌ ذات أجنحة ملوّنة من النور ؟
 أليست هذه أغانيك التي أسمع أصداها في الأغوار المظلمة من
 كياني ؟
 من يستطيع ، غيرك ، أن ينصت لهدير الساعات العجلى التي ترنّ ،
 اليوم ، في عروقي ؟ ويصغي الى الخطأ الجذلى التي ترقص في صدري ؟
 ويسمع ضجيجَ الحياة الصاخبة التي تختلج في كياني كلّهُ ؟

٧٤

لقد أنبَتَتْ كلَّ صلةٍ لي وسُدّدت ديوني كلّها ، وفتح بابي لأذهب منه ،
 واضرب في الدروب كلّها .
 إنهم يجلسون القرفصاء في زاويتهم ، ويغزلون النسيج من ساعاتهم
 الشاحبة ، إنهم يحصون نقودهم في الأرض ويهتفون لي لأعود .
 غير أنني صقلت سيفي ولبست درعي ، وأما حصاني فقد نفذ صبره وهو
 يتحفّز للتقريب^(١) والعدو .
 سأمضي من ثمّ ، لأفتح مملكتي .

(١) تقريب الحصان : ركضه .

لقد كان ذلك ، يوم قدمت الى أرضك ، وأنا عريان ، لأحمل اسماً وفي لهاتي صرخةً منتجة .

صوتي اليوم جذلانُ ، فيما تقف أنت ، يارب ، جانباً لتفسح لي مكاناً أستطيع فيه أن أملاً حياتي .

وحين أزجي أناشيدي اليك كقرايين ، فإنني استشعر أملاً خفياً بأن الناس سوف يقبلون إليّ ويحبونني بسببها .

إنك تحب أن تكتشف بأنني أحب هذا الكون الذي قدتني اليه .

لقد كنت أقبع ، خجلاً ، بظل الأمن ، أما الآن ، بعد أن شالت نشوة الفرح قلبي الى قمّتها فإنني اتمسك بصخرة اضطرابها العاتية .

لقد كنت انتبذ ، وأنا وحيد ، مكاناً في بيتي الذي كنت أجده أصغر من أن يسع زائراً واحداً ، والآن بعد أن فتح بابي بفرحة عفوية فإنني أجد ثمة مكاناً لك وللعالم كله .

وكنت أسير حذراً معنياً بجسمي ، مضمخاً أطرافه بالعطر ، مزيناً إياه ، والآن ، بعد أن رمت بي عاصفة الفرح الى التراب ، فإنني أضحك عالياً ، وأندحرج كالطفل على الأرض ، حتى الأمس قدميك .

إنّ الكون كلّهُ لك ، دوماً وأبداً .
 ولأنه ليس لديك رغبة ياملكي ، فإنّك لاتجد متعة في ثرائك .
 فكأنّ هذا الثراء لم يكن موجوداً قط .
 لهذا ، فإنّك تمنحني ، عبر الزمن الوئيد ، كلّ مايخصّك ، وتحتل من
 نفسي دوماً مملكتك .
 يوماً فيوماً تطلب الى قلبي شروق شمسك وتلفي حبّك منحوتاً من صورة
 حياتي .

لقد وهبت للطير أنغاماً ، وإنها لتبادلك أنغامها .
 لقد وهبت لي الصّوت فحسب ، ولكن إن استنشدتني غنيت لك .
 لقد جعلت النّسائم خفيفة ، لتنتلق في خدمتها ، ووضعت في يدي عبناً
 لا أتخفّف منه بنفسي ، وفي النهاية ظفرت بالحرية المطلقة ، فيما أنا
 أخدمك .
 لقد خلقت ارضك وملأت ظلالها بألقة النور .
 وعندئذ توقفت وتركتني فوق التراب ، صفر اليدين ، ليتسنّى لك أن
 تخلق سماءك .
 إنّك تزجي العطايا الى كلّ شيء في الأرض ، أما أنا ، فإنّك تطلب إليّ .
 إنّ حصاد حياتي ينضج في الشّمس ، وتحت وابل المطر ، حتّى يتيسّر
 لي أن أحصد ممّا زرعت أكثر ممّا زرعت أنت ، فيمتلئ قلبك هناء ، ياسيد
 الأهرام الذهبية .

دعني أتقدّم بصلاتي ، لا لأكون بمنجى من الأخطار ، ولكن لأقابلها
وجهاً لوجه دون وجل .

لا لأسأل التفريج عن ألمي ، ولكن ليكون لي الجَد على تحمّله .
لا لأنتظر حليفاً لي في معركة الحياة ، ولكن لأنتظر العون من قوّتي
نفسها .

لا لأتوسّل في رعب شديد ، بغية النجاة ، ولكن لأتعلّل بالصبر حتّى
أظفر بحرّيتي .

هيّء لي ، يارب ، ألا أكون جباناً ، لا استشعر بنعمتك إلا حين أصيب
النجاح فحسب ، - بل دعني أظفر بضمة يدك في خذلاني .

٨٠

لم تكن لتتعرّف على نفسك حين كنت تمكث وحيداً ، والريح التي
كانت تعدو من أدنى الشاطئ الى أقصاه لم تكن توافيك بأي نداءٍ تائه .
لقد جئت فاستفتت أنت ، وازدهرت السّماء بالأنوار .

لقد جعلتني أفتّح في شتيت الأزاهير ، وهددتني في مهد شتيت
الأشكال ، وأخفيتني في المنيّة ، ثمّ ألفتني من جديد في الحياة .
لقد جئت فوجب قلبك وترادف الألم والفرح اليك .

لقد لمستني فكانت رعشة الحبّ .
ولكنّ قبساً من الخجل ينساب في عينيّ ، وتنسرب في صدري رجفة

الخوف ويعتام وجهي ظلّ الكآبة ، وأبكي حين لا أستطيع رؤيتك .
ومع هذا فأنا أبلو الظماً الذي لا تنفع غلّته ، ظمأ قلبك الى نظرة مني ،
أبلو الظماً الذي ينادي على بابي ، على ترداد ضربات الشّمس المشرقة .

٨١

أنت أيتها السّاهر ، الدهر كلّه ، إنك تصغي الى خفق خطواتي المقتربة .
فيما تتجمّع فرحتك في سدفة الفجر ، لتتفجّر من ثمّ في انتفاضة النور .
كلّما اقتربت منك ازداد التوثّب في رقصة البحر .
إنّ دنيك غصنٌ من النور يملأ راحتك ، ولكن سماءك هي في قلبي
الخفي ، ولهذا فإنّ براعمه تتفتّح في يسر على حبّ خجول .

٨٢

سأهزج بإسمك ، وأنا جالسٌ وحيداً بين ظلال أفكار الصّامّة .
سأهزج به غير مشفوع بكلام ، سألفظه دون سبب .
إنني شبيه بالطفّل الذي ينادي أمّه مائة مرّة ، وهو سعيد بأن يتأتّى له
ترديد كلمة : أمّاه .

٨٣

- ١ -

أشعر بأنّ النجوم كلّها تتلألأ في كياني .
إنّ الكون يجيش في حياتي كأنه السّيل .

إنّ الزهور تتنوّر في كياني .
إنّ شباب الأرض والماء ، يسمو في قلبي كأنه بخور المجامر ، ولهات
الوجود كلّ يتردّد ضمن أفكارٍ كما يتردّد في ثوب الناي .

-٢-

حين يغفو الكون فإنني أقدم الى بابك .
النجوم صامتةٌ ، وإنني لأفرق من أن أغني .
إنّي انتظر وأسهر حتّى يجوز طيفك شرفة الليل ثم انكفى ، راجعاً وقلبي
مترع .
وفي الفجر ، أغني على عذارِ الدرب .
ويقف المسافرون فجأة لينظروا في وجهي : إنهم يحسبون أنني ناديت
كلّاً منهم باسمه .

-٣-

دعني قريباً منك ، منتبهاً الى رغباتك ثمّ ذرني أجبّ مملكتك ، ملبياً
نداءك .
لا تدعني أتزايل فاتهاوى وأغيب في هوة الضجر .
ولا تجعل حياتي مجدبةً بالفراغ والبطالة .
ولا تدع الشكوك تكتنفي بغبار اللذات .
ولا تتركني أضرب في دروب عديدة لأظفر بأشياء جمّة .
ولا تذّر قلبي خاضعاً لنير الكثيرين .
ولكن دع رأسي يشمخ عالياً في شجاعة وكبرياء ، بأن أضحي
خادمك .

الملاحون

أفما تأدّت الى سمعك ، من بعيد ، جلبّة الموت ؟
 وذلك النداء المنساب من أمواج النار والغيوم المسمومة ؟
 - نداء القبطان الى الملاح لينحو بالسّفينة وجهة الشاطئ الذي لا اسم له ؟
 فإنّ الزمن قد تغيّر - الزمن الساكن على الشاطئ .
 حيث تُشرى البضاعة القديمة نفسها وتُباع في حلقة لا نهاية لها .
 حيث تتهاوى الأشياء الميّتة في نضوب الحقيقة وفراغها .
 إنهم يستفيقون مرتعشين في خوفٍ مفاجئ ، ثمّ يستفهمون .
 أيّها الرفاق ، إلام تشير السّاعة التي دقّت ؟
 ومتى يوافي التّهار ؟
 لقد محت الغيوم كلّ نجم - فمن يستطيع أن يستجلي اصبع الفجر التي
 توميء ؟
 إنهم يخفّون سراعاً ، ممسكين بمجازيفهم ، هاجرين مضاجعهم .
 وتبتهل الأم وتراقبُ الزّوج الباب .
 تمّة نحيب الوداع يتعالى الى السّماء ، وثمة صوت القبطان في الظّلمة :
 - أيّها الملاحون ، تعالوا ، فإنّ فترة مكوثنا في الميناء قد انقضت .
 إنّ شياطين الكون السّود قد حطّموا سدودهم .
 ومع هذا ، أيّها الملاحون ، الزموا أمكنتكم ، وداروا الألمَ المبارك في
 نفوسكم إلى من تتّجهون باللوم يا إخوتي ، احنوا رؤوسكم ، تلك كانت
 خطيئتكُم ، وكانت خطيئتنا .
 إنّ اتّقاد الغضب المؤرث في قلب الله طوال الأجيال ، وجبن الضّعيف

وتحدّي القوي ونهم السّادر في الرخاء وضغينة الخائب وكبرياء العرق وإهانة الانسان لأخيه الانسان .

كلّ ذلك أّحال سلّم الرب الى عاصفة نكباء غاضبة .

فلينقسم قلب العاصفة كقشرة الثمرة النّاضجة وليقذف برعوده .

انهوا جلبة لومكم وثنائكم .

وفي هدوء الدعاء الصّامت المنعقد على جباهكم ، جدّفوا وجهة الشّاطئ الذي لا اسم له .

لقد بلونا الشرور والخطايا كلّ يوم وعرفنا الموت .

إنّها تعبر دنيانا بضحكتها المتلألئة كالبرق ، كأنّها غيوم ساخرة .

ولكنّها توقّفت ، فجأة ، فتمّت المعجزة .

واضطر الرجال الى النهوض صارخين في وجهها

- إنّنا لانخشاك ، أيتها الهولة ، إنّنا نعيش كلّ يوم في التّغلب عليك .

سنموت على إيماننا بأنّ السلم حق والخير حق وإنّ الواحد الأحد

الخالد حق .

إذا لم يكن الحي الباقي خبيثاً في قلب الموت نفسه .

وإذا لم تكن الحكمة الجذلى منبثقة من غمد الألم .

وإذا لم تمت الخطيئة من ذيووعها نفسه .

وإذا لم يتهاو الصلف تحت عبء زينته .

فمن أين اذن يهلّ ذلك الأمل الذي يهيب بالرجال أن يهجروا بيوتهم

كأنهم النجوم التي تسعى الى انطفائها في نور الفجر ؟

ترى أتذهب هدرأ قيمة دماء الشهداء ودموع الأمّهات في تراب

الأرض ، أفلا تُشرى الجتّة بثمانها ؟

وفي السّاعة التي يقطع فيها الانسان عُراه الفانية ، أفلا تتجلّى له

اللانهاية آنذاك ؟

نشيد الهزيمة

لقد أمرني سيدي فيما كنت أقف على حيد الدرب بأن أغني نشيد
 الهزيمة ، فهذه هي العروس التي يتودّد لها :
 لقد أسدلت على وجهها خماراً أسوداً لتخفيه عن الناس ولكنّ جوهره
 تتلأل في الليل على صدرها .
 إنّ النهار يهملها ، ولكنّ ليل الرب ينتظرها بمصابيح المنيرة وأزاهيره
 الريا بالندى .
 إنّها صامتة ، غصيص الطرف . لقد تركت دارها خلفها ، وتناهى من
 دارها أنين مع الرّيح .
 ولكنّ النجوم تغني ، نشيد الحب الخالد للوجه الذي زيّنه الخجل
 والألم .
 إنّ الباب قد انفسح عن الغرفة الوحيدة ، وتردّد النداء وخفق قلب الليل
 وجلأ على الموعد القادم .

غفران

إنّ الذين يسيرون في دروب الكبرياء ، ويدوسون بنعالهم على الحياة
 المتواضعة ، ويغطّون خضرة الأرض الغضة بآثار أقدامهم الملوّثة بالدّماء .
 دعهم يارب يفرحوا ويقدموا اليك الثّناء ، فإنّ اليوم يومهم .

ولكنني أشكر لك بأن جعلت نصيبي بين البسطاء الذين يتألمون
وينوؤون بعبء الحكم ، ويوارون وجوههم ويكفكون دموعهم في الظلام .
إن كلّ رعدة من ألمهم ، قد خفقت في الأعماق المستسرة من الليل ،
وكلّ إهانة قد قابلوها بمثل صمتك الكبير .
إن الغد هو لهؤلاء .
آه ، أيتها الشَّمس ، اشرقي في القلوب الدامية التي تتفتح زهراً في
الصباح ، ولتنقلب شعلات الكبرياء الزاهية الى رماد .

البُستاني

الخادم : حنانيكِ يا ملكتي! ورفقاً بخادمك .
 الملكة : لقد انفضَّ السَّامر ، وذهب خدَّامي كلَّهم ، لِمَ قدمتَ في هذه
 السَّاعة المتأخِّرة ؟

الخادم : إن دوري يبدأ ، حين ينتهي دور الآخريين . جئت أسألك أيَّ عمل
 تبقى ليقوم به خادمك الأخير ؟

الملكة : ماذا تتوقع أن أكلفك به في مثل هذا الوقت المتأخَّر ؟

الخادم : اجعليني بستانياً في حديقة أزهيرك .

الملكة : يا لهذا الجنون!

الخادم : سأتخلَّى عن أيَّ عملٍ آخر .

سأرمي برماحي وسيوفي ، في التراب . لا تبعثي بي الى ساحاتٍ
 قصية ، ولا تطلبي اليّ فتوحاتٍ جديدة ، ولكن اجعليني بستانياً في
 حديقة أزهيرك .

الملكة : وأيَّ عملٍ ستنهض به ثمة ؟

الخادم : سأقصر نفسي على خدمتك في أيَّام فراغك .

سأحتفظ بعشب الدّرب ندياً طرياً ، حيث تمرّين صباحاً ، وحيث
تنعم قدمك في كلّ خطوة من حُطّاك ببركة الورد المتشوّف إلى
الموت .

سأهزّك وأنت في أرجوحة بين أغصان (السابتابارنا) فيما يسعى
القمر المبكّر ، للثم ثوبك من بين فرجات الأوراق .
سأملأ السراج الذي يضيء قرب سريرك ، بزيتٍ شدي ، سأحلي
مسند قدمك بتزييناتٍ رائعةٍ من صباغ الصندل ومزاج الزعفران .

الملكة : وماذا ترجو من مكافأة على ذلك ؟

الخادم : أن يؤذن لي بأن أمسك بين يدي ، بجمع راحتيك الشبيهتين ببرعمين
من زهر (اللوتس) وأن أطوق معصمك ، بأساور من زهر . وأن أصبغ
أخمص قدميك بخضابٍ أحمر من أوراق (الآشوكا) وأن أمسح
عنهما بقبلاتي ما قد يعلق بهما من ذرات الغبار .

الملكة : أيّها الخادم لقد استجيب دعاؤك . وستضحى بستانى حديقة
أزاهيري .

٢

إيه أيّها الشاعِر! إنّ المساء ليدنو ، وإنّ شعرك ليخطّه الشيب .
ترى هل طرقت أسماعك وأنت في استغراقتك المنزوية ، رسالة الآخرة ؟
وقال الشاعِر : إنه المساء ، وإنني لأصيح السّمع ، فلعلّ أحداً ينادي
من القرية ، وإن يكن الوقت متأخراً .

وأجيل نظري فلعلّي أن أرى الى قلبين شابين شاردين يلتقيان والى
زوجين من العيون المتّقدة يستجديان نغماً من الموسيقى يحطّم صمّهما
ويتحدّث إليهما .

تُرى من ذا الذي يَمُوجُ لهما ، أغانيهما العاطفية إن ظلمت أنا جالساً
على شاطئ الحياة ، أتأمل في الموت وفي ما بعد الحياة ؟
إنَّ أوَّلَ نجم من نجوم السَّماء قد أفل .

ووهج المشعل الجنائزي ، أخذ يخبو رويداً رويداً ، على ضفّة النهر
الصّامت .

وأخذتُ بنات آوى تعوي ، في جوقَةٍ واحدةٍ ، من فناء الدّار المقفرة ،
على ضوء القمر الشّاحب .

تري لو أنّ عابر سبيل ، هجر منزله ، وقدم الى هنا ، ليتأمل الى الليل
ويصغي ، مُطرقَ الرأس ، الى وشوشة الظّلام ، فمن ذا الذي يهمس في أذنيه
أسرارَ الحياة ، إن أقفلت أنا أبوابي ، محاولاً تحرير ذاتي من الروابط الفانية ؟
لا يضيرني إن وخط الشيب شعري .

فأنا دوماً ، شابٌ فتى أو شيخٌ همٌّ ، كأصغر شاب وأكبر شيخ في القرية .
لبعضهم ابتسامةٌ عذبةٌ ساذجةٌ ، ولبعضهم عينٌ تبرق خبثاً . لهؤلاء
دموع تبهر ضوءَ النهار ، ولأولئك دموعٌ تختبئ في العتمة .

كلّهم بحاجة إليّ ، إنني لا أجد وقتاً للتفكير في ما بعد الحياة .
إنّ عمري هو من عمر الجميع ، فما يضيرني أن وخط الشيب شعري ؟

٣

ألقيتُ شبكتي ، صباحاً ، في البحر .
واستخرجت ، من لُجّة المظلم ، طُرفاً ذات شكلٍ عجيبٍ وجمالٍ
غريبٍ ، كان بعضها يتوامض كابتسامة وبعضها يتلألأ كدموعٍ ، وبعضها
يحمّر كوجنتي عروس .

ولمّا إبت ، بصيد اليوم الى البيت ، كانت حبيبتني قد اتّخذت مجلسها

في الحديقة ، وهي تنزع ، في فتورٍ ، أفواف زهرةٍ .

وجاذبني التردد ، لحظة ، ثمَ ازجيتُ الى قدميها ، ماظفرت به ، وظللتُ معتصماً بالصمت .

وحدّرتُ اليه نظرةً ، وقالتُ : ماهذه الأشياء الغريبة ؟ لأدري لأي شيء تصلح .

وجعلت أفكر ، خجلاً ، مطرق الرأس ، في أنني لم أناضل قط للفوز بها ، ولم اشتريها من السوق ، فليست بهدايا جديدة بها ، وحينئذ أخذت أبدوها ، طوال الليل ، واحدة تلو الأخرى ، في الطريق .
وفي الصّباح ، قدم مسافرون ، وجعلوا يلتقطونها ، ثمَ ذهبوا بها الى بلادٍ نائية .

٤

وا أسفاه! لِمَ بنوا بيتي على حافة الطريق المفضية الى سوق المدينة ؟

إنهم يرسون قواربهم المثقلة ، قرب أشجاري .

إنّهم يقدمون ويذهبون ويهيّمون وفق هواهم .

إنني أجلس وأرمقهم ، ويمضي وقتي .

ليس في ميسوري أن أطردهم ، وكذلك تنقضي أيامي .

يتردّد خفق خطاهم ، ليل نهار ، أمام بابي .

عبثاً أصرخ : إنني لأعرفكم .

إنّ بعضهم لتعرفه أنا ملي ، وبعضهم ليعرفه أنفي ، ويبدو أنّ الدم في

عروقي يعرفهم ، وإنّ بعضهم لتستجليه أحلامي .

ليس في ميسوري أن أطردهم ، إنني أناديهم وأخاطبهم : ليدخل بيتي

من يشاء منكم ، أجل ، فليدخل .

وفي الصّباح يرئُ النّاقوس في المعبد .

ويقدمون وسلالهم في أيديهم .

أقدامهم مزهرةٌ مخضبةٌ ، وعلى وجوههم يتترقق أول شعاع من أشعة الفجر .

ليس في ميسوري أن أطردهم ، إنني أناديهم وأخاطبهم : تعالوا الى حديقتي لتقطفوا زهراً ، تعالوا .

ويرئُ النّاقوس ، ظهرأ ، على باب القصر .

لأدري لماذا يدعون عملهم ، ويتخفّون قرب سياج حديقتي .

إنّ الزهر المعلق بشعرهم شاحبٌ ذابلٌ ، وإنّ الأنغام في ناياتهم مضنيّة .

ليس في ميسوري أن أطردهم ، إنني أناديهم : إنّ في أشجاري رطب . تعالوا أيها الرّفاق .

وفي الليل ، تغني الجدادج ، في الغابات

من ذا الذي يقدم ، ونيدأ ، الى بابي ويقرعه في لطف ؟

إنني أرى الوجه ، في غموضٍ ، لم تتردّد أي كلمة .

ويسربل هدوء السّماء كلّ شيء .

ليس في ميسوري أن أطرّد ضيفي الصّامت ، إنني أحدّق الى وجهه في

الظلام ، وتمر ساعات الأحلام .

٥

أنا لا أظفر بالراحة .

أنا ظامئ الى الأشياء البعيدة المنال .

إنّ روحي تهفو ، تواقّة ، الى لمس طرف المدى المظلم .

إِيَّاهُ الْمَجْهُولُ الْبَعِيدُ وَرَاءَ الْأَفْقِ ، يَاللِنْدَاءِ الْمَوْجِعُ الْمُنْسَابُ مِنْ نَايِكَ .
أَنَا أَنْسَى ، أَنْسَى دَوْمًا أَنْنِي لَا أَمْلِكُ جَنَاحًا لِأَطِيرَ ، وَإِنَّنِي مُقَيَّدٌ دَوْمًا
بِهَذَا الْمَكَانِ .

إِنَّنِي مُتَّقِدُ الشَّوْقِ ، يَقْظَانُ ، أَنَا غَرِيبٌ فِي أَرْضٍ عَجِيبَةٍ .
إِنَّ زَفْرَاتِكَ تَتَنَاهَى إِلَيَّ ، لِتَهْمَسَ فِي أُذُنِي أَمَلًا مُسْتَحِيلًا .
إِنَّ صَوْتَكَ يَعْرِفُهُ قَلْبِي كَمَا لَوْ كَانَ قَلْبُهُ .

أَيُّهَا الْمَجْهُولُ الْبَعِيدُ ، يَاللِنْدَاءِ الْمَوْجِعُ الْمُنْسَابُ مِنْ نَايِكَ!
لَمَّا أَنْسَى ، أَنْسَى دَوْمًا أَنْنِي لَا أَعْرِفُ الطَّرِيقَ وَأَنْنِي لَا أَمْتَلِكُ جَوَادًا
مُجْتَاحًا .

أَنَا لَا أَظْفَرُ بِالطَّمَأْنِينَةِ .
أَنَا شَارِدٌ ، أَهِيمُ فِي قَلْبِي .
فِي الضَّبَابِ الْمَشْمَسُ ، مِنْ السَّاعَاتِ الضَّجْرَةِ ، مَا أَبْهَى مَرَآكَ الْعَظِيمِ
يَتَجَلَّى فِي زُرْقَةِ السَّمَاءِ !

أَيُّهَا الْمَجْهُولُ الْبَعِيدُ ، يَاللِنْدَاءِ الْمَوْجِعُ الْمُنْسَابُ مِنْ نَايِكَ!
إِنَّنِي أَنْسَى ، أَنْسَى دَوْمًا ، أَنَّ الْأَبْوَابَ كُلَّهَا مَوْصَدَةٌ فِي الْبَيْتِ الَّذِي
أَفْرَعُ فِيهِ إِلَى وَحْدَتِي .

٦

كَانَ الْعَصْفُورُ الْأَلِيفُ فِي قَفْصٍ ، وَكَانَ الْعَصْفُورُ الطَّلِيقُ فِي الْغَابَةِ .
وَهَيَّا لِهَما الْقَدْرُ - حِينَ أَزِفَ الْوَقْتُ - أَنْ يَلْتَقِيَا .
وَصَرَخَ الْعَصْفُورُ الطَّلِيقُ : آه . يَا حَبِيبِي ، لِنَنْطَلِقْ طَائِرِينَ إِلَى الْغَابَةِ .
وَهَمَسَ عَصْفُورُ الْقَفْصِ : تَعَالَ إِلَى هُنَا ، نَسْتَمِرُّ الْعَيْشَ مَعًا فِي
الْقَفْصِ .

وأجاب العصفور الطليق : أين المكان الذي أبسط فيه جناحي بين هذه
القضبان ؟
وهتف عصفور القفص : وأسفاه ، قد لايتأتى لي أن أعرف أنى أخط في
الفضاء .

وصرخ العصفور الطليق : يا حبيبي ، هلاً لغوت بأغاني الغابات ؟
وقال عصفور القفص : الزم جانبي ، سأعلمك أصول الإنشاد .
وهتف عصفور الغابات : لا ، لا ، لا يمكن أن تلقن الأغاني بالتعليم .
وقال عصفور القفص : واحسرتاه ، إنني لأحذق أغاني الغابات .
إنّ حبّهما يذكّيه الشوق ، ولكنهما لا يستطيعان البتة أن يطيرا معاً ،
جناحاً يساوق جناحاً .
إنهما يتسارقان النظر ، من خلال قضبان القفص ، ويتشوفان عبثاً الى
أن يعرف الواحد منهما الآخر .

ويصفق كلاهما بجناحيه ، شغفاً ، ويغني : تعال يا حبيبي ، اقترب مني .
ويهتف العصفور الطليق : لأقدر ، إنني أفرق من أبواب القفص المغلقة .
ويهمس عصفور القفص : وأسفاه إنّ جناحي عاجزان ميتان .

٧

أما ، إنّ الأمير الفتى سيمر أمام بابنا ، فكيف يتيسر لي أن أعنى
بعملي ، في هذا الصّباح ؟
علميني كيف أضفر شعري ، قولي لي أي ثوب ينبغي أن أردي ؟
أمّاه ، لماذا تنظرين إليّ في دهشة ؟
أنا أعلم جيّداً أنه لن يرشق بنظرة نافذتي ، وأعلم أنه سيغيب عن
ناظري ، في طرفة عين .

وَأَنْ زَفَرَاتِ نَايَه سَتْتَنَاهِي إِلَيَّ ، مُتَحَبَّةٌ مِنْ بَعِيدٍ .

غَيْرَ أَنَّ الْأَمِيرَ الْفَتَى سَيَمُرُ ، أَمَامَ بَابِنَا ، وَسَأَزَيْنَ لِهَذِهِ اللَّحْظَةَ بِأَجْمَلِ مَا عِنْدِي .

أَمَّا هُ ، لَقَدْ مَرَّ الْأَمِيرُ الْفَتَى ، أَمَامَ بَابِنَا ، وَشَمْسُ الصَّبَاحِ تَشَعُّ عَلَى مَرْكَبَتِهِ .

وَحَسَرْتُ خُمَارِي عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ نَزَعْتُ عَقْدَ الْيَاقُوتِ مِنْ عُنُقِي وَرَمَيْتُ بِهِ فِي طَرِيقِهِ .

أَمَّا هُ لِمَ تَنْظُرِينَ إِلَيَّ فِي دَهْشَةٍ ؟
أَنَا أَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّهُ لَمْ يَلْتَقِطْ عَقْدِي وَأَعْلَمُ أَنَّ عَقْدِي قَدْ تَحَطَّمَتْ تَحْتَ عَجَلَاتِ مَرْكَبَتِهِ ، مَخْلَفًا بَقْعَةً حُمْرَاءَ عَلَى التَّرَابِ ، فَلَمْ يَعِدْ أَحَدٌ بِالْهَدِيَّةِ الَّتِي قَدَّمْتُ ، وَلَا مِنْ آثَرَتِهِ بِهَا .

غَيْرَ أَنَّ الْأَمِيرَ الْفَتَى مَرَّ ، أَمَامَ بَابِنَا ، وَرَمَيْتُ فِي دَرَبِهِ بِحُلِيِّ صَدْرِي .

٨

حِينَ انْطَفَأَ السَّرَاجُ قَرَبَ سَرِيرِي ، اسْتَيْقَظْتُ مَعَ الْعَصَافِيرِ الْمُبَكَّرَةِ وَجَلَسْتُ إِلَى جَانِبِ نَافِذَتِي الْمَشْرَعَةِ .

وَعَلَى شَعْرِي الْمَشَعَثِ ، إِكْلِيلٌ مِنَ الْوَرْدِ الْغَضِ .

لَقَدْ أَقْبَلَ الْمَسَافِرُ الْفَتَى وَمَرَّ عَلَى الطَّرِيقِ فِي الضَّبَابِ النَّدِيِّ مِنَ الْفَجْرِ .

وَكَانَ عَقْدُ اللَّالِيءِ يَطُوقُ عُنُقَهُ وَأَشَعَّةُ الشَّمْسِ تَتَلَأَلَأُ عَلَى تَاجِهِ ، وَتَوَقَّفَ أَمَامَ بَابِي ، وَسَأَلَنِي فِي نِدَاءٍ لَاهِفٍ : أَيْنَ هِيَ ؟ .

وَمَنْعَنِي الْخَجَلُ مِنْ أَنْ أَقُولَ لَهُ : أَنَا هِيَ ، أَيُّهَا الْمَسَافِرُ الْفَتَى ، أَنَا هِيَ .
وَحَلَّتِ الْعَتَمَةُ ، وَلَمْ يَكُنِ السَّرَاجُ قَدْ أَشْعَلَ .

وجعلت أضفر شعري ، في ذهول .
لقد أقبل المسافر الفتى على مركبته في ألق الشمسِ الغاربة .
وكانت جيادة مرغيةً الأشداق ولباسه مكسواً بالغبار .
وانتصب أمام بابي وسألني بصوتٍ واهنٍ : أين هي ؟
ومنعني الخجل من أن أقول له : أنا هي أيها المسافر اللاغب أنا هي .
وكان ذلك ، في ليلة من ليالي نيسان وكان السراج يضيء في
حجرتي .
وكان نسيم الجنوب يهينم ناعماً ، والبيغاء الصخابة تنام في قفصها .
وكان ثوبي ، يبدو في لون حنجرة الطاووس ، ومعطفي الأخضر كأنه
العشب الطري .
وجلست على الأرض ، قرب النافذة ، أرقب الطريق المقفرة .
وعبر الليل البهيم ، كنت أغغم في همسٍ متصل : أنا هي ، أيها
المسافر اليائس ، أنا هي .

٩

حين أمضي ، ليلاً ، وحيدةً الى موعد حبيبي فإن العصافير لا تشدو ،
والرياح لا تنسم ، وتخلد البيوت على جانبي الطريق الى الصمت .
إنه خلخالي الذي أضحي ثقيلاً في كل خطوة أخطوها ، وإنني لاستشعر
الخجل .
وحين أجلس الى شرفتي وأنصت لعلّي أن أسمع وقع أقدامه ، فإن
الأوراق لا تتهامس على الأشجار ، ويسكن الماء في النهر ، كأنه سيف توسد
ركبتي حارس غافٍ .
ذاك قلبي الذي يشتد وجيبه دون أن أدري كيف أجعله يهدأ ،

وحين يرتعش جسدي ، ويفتر جفناي ، وتسدل السَّحَب خمارها على
النجوم .

تلك هي الحلية التي تتواضع فوق صدري ، وتريق ألفتها فلا أدري كيف أداريها .

١٠

أيتها العروس اتركي عملك وأنصتي فقد أقبل الضيف .
أستمعين ؟ إنه يهزّ ، في رفق ، الكتيفة^(١) التي يوصد بها الباب .
حذارٍ من أن تعلو وسوسة خلخالكِ ، حذارٍ من أن تسرف خطاك في
تعجلها الى لقياء .

أيتها العروس ، ذري عملك ، فقد أقبل الضيف ، في المساء .
لا . أيتها المرأة ، ليس هو بنسمة روح ، فلا تخافي .
إنه قمر نيسان في تمامه ، إن الظلال شاحبة في فناء الدار والسّماء
تتألاً من علّ .

أسدلي خمارك على وجهك ، إن تعين عليك أن تفعل ذلك ، واحملي
السراج الى الباب ، إن استشعرت الخوف .
لا ، ليس هو بنسمة روح ، أيتها المرأة ، فلا تخافي .
لاتقولي له أيّ كلمة ، إن جاذبك الخجل ، وقفي الى جانب الباب حين
تجتمعين اليه .

وإن أزجى اليك أسنلةً ، فغُضّي - إذا شئت - طرفكِ في صمت .
لا تدعي أساورك تهزّجُ ، حين تدعيه يدخل والسراج في يدك .
لا تكلميه إن كنت خجلى .

(١) الكتيفة : قطعة من حديد أو خشب يعلق بها الباب .

أَيَّتْهَا الْمَرْأَةُ ، أَلَمْ تَنْهِيَ عَمَلِكِ ؟ إِنصِتِي ، لَقَدْ قَدِمَ الضَّيْفُ ، أَلَمْ تَشْعَلِي
السَّرَاجَ فِي الْحَظِيرَةِ ؟
أَلَمْ تَهَيِّئِي سَلَّةَ الْقُرْبَانِ لَصَلَاةِ الْمَسَاءِ ؟
أَلَمْ تَضْعِي عِلَامَةَ السَّعْدِ الْحُمْرَاءِ عَلَى مَفْرَقِ شَعْرِكَ وَتَتَزَيَّنِي لِمَقْدَمِ اللَّيْلِ ؟
إِيَّاهُ أَيَّتْهَا الْمَرْأَةُ ، أَتَسْمَعِينَ ؟ لَقَدْ قَدِمَ الضَّيْفُ .
دَعِي عَمَلِكِ .

١١

تَعَالِي كَمَا أَنْتِ وَلَا تَتَلَكَّنِي فِي زِينَتِكَ .
إِذَا انْحَلَّتْ غَدِيرَةٌ مِنْ غَدَائِرِكَ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ مَفْرَقُ شَعْرِكَ سَوِيًّا ، إِذَا
كَانَتْ شَرَائِطُ صَدْرِكَ غَيْرَ مَنْوُطَةٍ ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْكَ .
تَعَالِي كَمَا أَنْتِ وَلَا تَتَلَكَّنِي فِي زِينَتِكَ .
تَعَالِي بَخْطًا عَاجِلَةً ، فَوْقَ الْعُشْبِ .
وَإِذَا سَلَ النَّدَى شَرَكَاءَ نَعْلِكَ مِنْ قَدَمِكَ ، إِذَا أَمْلَسْتَ حَلَقَاتِ خُلْجَانِكَ مِنْ
قَدَمِكَ الْوَاهِنَةِ ، إِذَا انْفَرَطَتْ لَأَلَى عَقْدِكَ مِنْ سَمَطِهَا ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْكَ .
تَعَالِي بَخْطًا عَاجِلَةً ، فَوْقَ الْعُشْبِ .
أَلَا تَرِينَ إِلَى السَّحَبِ تَغْطِي السَّمَاءَ ؟
مِنْ بَعِيدٍ ، تَتَرَاءَى أَسْرَابُ الْكَرْكِيِّ ، وَهِيَ تَهْفُو طَائِرَةٌ مِنْ شَاطِئِ النَّهْرِ
النَّائِي ، وَتَسْتَبِقُ حَبَاتُ غُضْبِي مِنَ الْعَاصِفَةِ فَوْقَ الْمَرْجِ .
الْقَطِيعُ الْجَزْعُ يَعْدُو إِلَى مَرَاحِهِ^(١) فِي الْقَرْيَةِ .
أَلَا تَرِينَ إِلَى السَّحَبِ تَغْطِي السَّمَاءَ ؟

(١) المراح : مأوى الغنم .

عبثاً تشعلين السراج لتتريني ، إنه يترنح ثم ينطفئ ، في الريح .
من يعلم أن جفنيك لم يكتحلا بسواد الدخان ؟ إن عينيك أكثر سواداً
من سحب الغيث .

عبثاً تشعلين السراج وإنه لينطفئ .

تعالى كما أنت ولا تشغلك زينتك .

إن لم يكن إكليلك مضافاً فمن يعنى به ؟ إذا لم يغلق سوارك فدعيه .

السَّماء مُرَبَّدَةٌ بالغيوم - والوقت متأخر .

تعالى كما أنت ولا تشغلك زينتك .

١٢

إن كنت تريد أن تملأى جرّتك ، تزجية لفراغك . فتعالى ، آه تعالى
الى بحيرتي .

فلسوف يغمر الماء قدميك ولسوف يبوح لهما ، مثرثراً ، بسرّه .

إن ظلّ الغيث المقبل يمتد فوق الكثبان ، وتتطامن السحب فوق صفوف
الأشجار الخضراء كخصلات أليفة تنحدر فوق حاجبيك .

أعرف جيداً نغم خطاك ، أنها تتجاوب مع خفقات قلبي .

تعالى ، آه تعالى الى بحيرتي ، إن كان عليك أن تملأى جرّتك .

إذا كنت تستمرئين الجلوس ، في دعة وكسل وفتور لتركى جرّتك
عائمة فوق الماء ، فتعالى ، آه تعالى الى بحيرتي .

إن المنحدر المعشوشب أخضر ، والزهر الوحشي يربو كثيفاً .

سوف تغادر أفكارك عينيك السوداوين كعصافير تهجر أعشاشها .

سوف يقع خمارك على قدميك .

تعالى ، آه تعالى الى بحيرتي ، إن كان عليك أن تجلسى في دعة وكسل .

إن كنتِ تودّين أن تنصرفي عن لعبك وتخوضي في الماء فتعالِي ،
تعالِي ، آه تعالِي إلى بحيرتي .

دعي معطفك الأزرق ينبسط على الشاطئ ، فإنّ الماء الأزرق سوف
يسترك ويخفيك .

سوف تتناول الأمواج على أطراف أصابع أقدامها لتلثم عنقك وتهمس
في أذنيك .

تعالِي ، آه تعالِي إلى بحيرتي إن كنت تودّين أن تخوضي في الماء .
إن كان عليك أن تبادري ، مجنونةً ، إلى الموت ، تعالِي ، آه تعالِي إلى
بحيرتي .

إنّها باردةٌ عميقة لا يُسبر غورها .

إنّها مظلمةٌ كنوم بلا أحلام .

في أغوارها ، يستوي الليل والنهار ويخرس صوت الأغاني .

تعالِي ، آه تعالِي إلى بحيرتي . إن كنت تودّين أن تقذفي بنفسك في
الماء ، طلباً للموت .

١٣

لم أطلب شيئاً قطُّ ، بل ظللتُ واقفاً ، في طرف الغابة خلف الشجرة .

وكانت عيون الفجر ماتزال مسربلةً بالكآبة ، والندى يملأ الفضاء .

وكان الشذا الكسول الفاغم من العشب الندي معلقاً بالضباب الرقيق

الممتد فوق الأرض .

في ظلّ شجرة (البانيان) كنت تحلبين ضرعي البقرة براحتيك النديتين

الرخصتين كالزبدة .

وكنت واقفاً لا أريم .

ولم أنبس ببنت شفة ، وكان العصفور وحده يغرّد مختبئاً في الدغل .
وكانت شجرة العناب (المانجو) تنثر زهورها على درب القرية .
وكانت النحللات تقدم ، الواحدة منها في أثر الأخرى وتطنّ حواليتها .
والى جانب الغدير كان باب معبد (شيفا) مفتوحاً ، وكان المتعبّد قد بدأ تراتيله .

وكنت تحتلبين ضرعي البقرة والوعاء في حجرِك .
وظللتُ واقفاً أحمل قِدري الخاوية .
ولم أقرب منك .

واستفاقت السّماء على قرع الناقوس في المعبد .
وانعقد الغبار في الطّريق ، تهيجه سنابكُ القطيع المنقاد .
وعادت النساء من النهر ، حاملاتٍ على أردافهنّ جرّارهنّ اللاغية .
وكانت أساورك توسوس ، ورغوةُ اللبن تتحدّر من جرتك .
وانقضى النهار ولم أقرب منك .

١٤

كنت أسير في الدّرب - ولأدري لِمَ سرت - بعد الظهيرة حين تردّد
خفيف أغصان (البامبو) في الرّيح .
وكانت الظلال المائلة ، بأذرعها المنبسطة ، تتمسكُ بقدم الشّعاع الهارب .
وكانت طيور (الكويل) قد برمت بأغانيها .
كنت أسير في الدّرب ، ولأدري لِمَ سرت .
واستظلّ الكوخ الصّغير القابع على ضفّة الماء بشجرة وارقة الأغصان .
وكانت هناك ، امرأةٌ مشغولةٌ بعملها ، وأساورها تهزّج بأنغامٍ موسيقيةٍ ،
في ركن الغرفة .

لقد وقفت قبالة ذلك الكوخ ولا أدري لِمَ وقفت .
إنّ الدرب الضيقة المتعرجة تنساب في كثيرٍ من حقول (الإسفند) وكثير
من غابات (المانجو) .

إنها تمتد من أمام معبد القرية والسوق القائمة على مرسى النهر .
لقد توقفت أمام ذلك الكوخ ولا أدري لِمَ توقفت .
منذ سنين عديدة مرّ يوم من أيام آذار الخافق بالأنسام .
حين كان همس الربيع وانياً وكانت أزهار شجرة العنّاء (المانجو)
تتهاوى على التراب .

وكان الماء الفوار يثب ويلعق ، في مجراه ، الإناء النحاسي الموضوع
على ضفة المرسى .
وفكرت في ذلك اليوم من أيام آذار الخافق بالنسيم ولا أدري لِمَ فكرت
فيه .

كانت الظلال تتسع عمقاً والقطيع بسبيل العودة الى مراحه .
وكان النور مريداً فوق السهول الموحشة ، وعلى الضفة كان الفلاحون
ينتظرون الزّورق .
وانكفأت عائداً على عقبيّ ، في هدوء ، ولا أدري لِمَ عدت .

١٥

إنني أركض كغزال المسك^(١) وهو يعدو في ظلّ الغابة ، ثملاً من طيب
ذفرته .

الليلة هي ليلة منتصف مايس والنسيم هو نسيم الجنوب .

(١) غزال المسك : طلي ذو دم طيب الرائحة .

وأضَلَّ طريقي وأشرد ، وأبحث عما ليس في وسعي الظفر به ، وأظفر
بما لا أبحث عنه .

ينطلق من قلبي طيف رغبتني نفسها ثم يرقص .

ويرفرف الوهم البراق .

وأحاول الإمساك به ، في عزم ، فيفوتني ويدعني ضالاً هيماناً .

وأبحث عما ليس في وسعي الظفر به وأظفرُ بما لا أبحث عنه .

١٦

الأيدي ، يتشبَّث بعضها ببعض ، والعيون ، ينشد بعضها بعضاً وكذلك
ابتدأت سيرة قلبينا .

تلك ليلة مقمرة من آذار وشذا الحناء يذوق في الفضاء ونايبي موسدٌ
تراب الأرض مهجور ، وإكليلك الزهري ناقص التنسيق .

إنَّ هذا الحبَّ المتبادل بيننا بسيط كأنه أغنية .

إنَّ خمارك ذا اللون الزعفراني يسكر عيني .

إنَّ إكليل الياسمين الذي تضفرينه لي يرفع قلبي كما يرفع الشاء .

تلك لعبة يتداولها البذل والصدّ ، والبوح والكتمان من جديد ، ويتسَّق
فيها بعض الإبتسام وبعض الخجل وبعض التمتع العذب غير المجدي .

إنَّ هذا الحبَّ المتبادل بيننا بسيط كأنه أغنية .

ليس ثمَّ سرٌّ خلف الحاضر ولا سعي ناصبٌ إلى المستقبل . ليس ثمَّ
ظلٌّ خلف الحسن ، ولا تلمسٌ لأغوار الظلام .

إنَّ هذا الحبَّ المتبادل بيننا بسيط كأنه أغنية .

لن نهيم من جماع الكلم إلى الصمت الأبدي ، لن نمدَّ أيدينا في الفراغ
سعيّاً وراء أمورٍ تعزّ على الأمل .

إِنَّ مَانَهْبَهُ وَمَانَتَلَقَّاهُ لَجِدَ كَافٍ .

لَمْ نَعْصِرْ عَنَاقِيدَ السَّرُورِ كُلَّهَا لِنَغْنَمَ مِنْهَا خَمَرَ الْأَلَمِ .
إِنَّ هَذَا الْحَبَّ الْمَتَبَادِلَ بَيْنَنَا بَسِيطٌ كَأَنَّهُ أَغْنِيَةٌ .

١٧

إِنَّ الْعَصْفُورَ الْأَصْفَرَ يَغْرَدُ عَلَى شَجَرَتِهِمْ وَيَحْمِلُ قَلْبِي عَلَى أَنْ يَرْقُصَ
جَذَلًا .

إِنَّا نَعِيشُ مَعًا فِي الْقَرْيَةِ نَفْسَهَا ، تِلْكَ هِيَ سَعَادَتُنَا الْوَحِيدَةُ .
إِنَّ خُرُوفِهَا الْمَدْلَلِينَ الْأَثِيرِينَ ، يَقْدَمَانِ إِلَيَّ فِي، أَشْجَارِ حَدِيقَتِنَا يَرْمَانِ
الْعُشْبَ^(١) .

وَأِنْ شَرَدَا فِي حَقْلِ الشَّعِيرِ فَإِنِّي أَضْمَهُمَا بِذِرَاعِي .
إِنَّ اسْمَ قَرْيَتِنَا هُوَ (خَانْجَانَا) وَيَدْعَى نَهْرُنَا (أَنْجَانَا) .
اسْمِي مَعْرُوفٌ فِي الْقَرْيَةِ كُلِّهَا أَمَّا اسْمُهَا فَهُوَ (رَانْجَانَا) .
ثَمَّةُ حَقْلٍ وَاحِدٍ يَنْبَسُطُ بَيْنَنَا .

إِنَّ النَّحْلَ الَّذِي سَوَى خَلَايَاهُ فِي غَابَتِنَا الصَّغِيرَةِ ، هَفَا إِلَى غَابَاتِهِمْ ،
يَنْشُدُ الرَّحِيقَ الْمَعْسُولَ .

إِنَّ الزَّهَرَ الْمَطْرُوحَ مِنْ ضَفَافٍ مَرَّاسِيهِمْ يَقْبَلُ عَائِمًا فَوْقَ مَاءِ السَّيْلِ
الَّذِي نَفْتَسِلُ فِيهِ .

إِنَّ سَلَالَ زَهْرِ (الْكُوسَمِ) الذَّابِلِ الْجَافِ ، تَأْتِي مِنْ حَقُولِهِمْ إِلَى سَوْقِنَا .
إِنَّ اسْمَ قَرْيَتِنَا هُوَ (خَانْجَانَا) وَيَدْعَى نَهْرُنَا (أَنْجَانَا) .
اسْمِي مَعْرُوفٌ فِي الْقَرْيَةِ كُلِّهَا أَمَّا اسْمُهَا فَهُوَ (رَانْجَانَا) .

(١) رَمَ الْخُرُوفِ الْعُشْبَ : تَنَاوَلَهُ بِفَمِهِ .

إنّ الدرب المفضيّة الى بيتهم هي في الرّبيع فاعمةٌ بشذا زهر العنباء
(المانجو) .

حين يكون بذر الكتّان لديهم ناضجاً في موسمه فإنّ القنّب يكون مزهراً
في حقّنا .

إنّ النجوم التي تبتسم من سقوف أكوأخهم تحدّرُ الينا نظراتها المتألّقة
نفسها .

إنّ الغيث الذي يفعم صهاريجهم يريق الهناء لغاباتنا الممرعة بنبات
(الكادام) .

إنّ اسم قريتنا هو (خانجانا) ويدعى نهرنا (أنجانا) .
اسمي معروف في القرية كلّها أمّا اسمها فهو (رانجانا) .

١٨

حين تغدو الأختان لتجلبا الماء ، فإنهما تقدّمان الى هذا المكان
وتتبسّمان .

لابدّ أنهما تعلمان بأنّ شخصاً ما ، يقف خلف الأشجار ، حين تغدوان
لتجلبا الماء .

وتتهامس الأختان حين تمرّان بهذا المكان .

لابدّ أنهما قد ألّمتا بسرّ هذا المتواري خلف الأشجار ، حين قدّمتا
لتجلبا الماء .

وتتمايل جرتاهما ، فجأةً ، ويتحدّر الماء ، حين تصلان الى هذا
المكان .

لابدّ أنهما قد اكتشفتا أنّ قلب إنسانٍ واقفٍ خلف الأشجار يخفق حين
تردان الماء .

وتتبادل الأختان النظر حين تقدمان الى هنا ثم تبسمان .
إنها ضحكة أقدامهما الرشيقة هي التي تبعث الاضطراب لدى ذلك
الواقف خلف الأشجار ، حين تغدوان لتجلبا الماء .

١٩

كنتِ تسيرين على دربٍ شاطئٍ النهر وكانتِ الجِرةُ الْمُسندَةُ على
ردفكِ مفعمةً .

لَمْ أدْرِ وجهكِ إليّ في رشاقةٍ ، ونظرتِ إليّ من خلفِ خِمَارِكِ الخفاق ؟
إنّ هذه النظرة البراقة المنسابة من الظلام قد تناهت إليّ كالنسمة التي
تهفو وترعش الماء المتفضّن ، لثُمحي في الشاطئ ، الظليل .

لقد أقبَلتِ نحوي ، كعصفور المساء الذي يجوز الغرفة المظلمة سريعاً ،
وينطلق من نافذةٍ مفتوحة الى نافذةٍ أخرى ، ثم يغيب في الليل .

لقد تواريتِ كالنجم المخفي وراء الرّبي ومررت أنا في الطّريق .
ولكن ، لَمْ توقُفتِ ، هنيهةً ، وأرسلتِ إليّ نظرةً من خلفِ خِمَارِكِ ، فيما
كنتِ تسيرين على دربٍ شاطئٍ النهر والجِرةُ المفعمةُ متّكئة على ردفك ؟

٢٠

يوماً بعد يوم ، يأتي هو ثم يؤوب .
يا صاحبي اذهب وأعطه زهرةً من شعري .
وإن استوضحك عن مرسلها ، فحنانيك لاتقلّ له اسمي ، فإنه لا يأتي إلا
ليؤوب .

إنه يجلس فوق التراب ، تحت الشجرة .

فهلأ مهّدت له يا صاحبي هناك ، مجلساً من الزّهر وأوراقه .
عيناها حزّينتان ، إنهما تفعمان قلبي بالأسى .
إنه لايفضي بما يجول في فكره ، ولكنه يأتي ثمّ يؤوب ليس غير .

٢١

تُرى لِمَ آثر الرائدُ الفتى أن يقصد بابي ، حين أسفر الفجر ؟
في كلّ مرّة أدخل أو أخرج ، ألتقي به ، وتتعلّق عيناى بمحياه .
لأدري إن كان عليّ أن أتحدّث إليه أو أن ألوذ بالصّمت . تُرى لِمَ آثر
أن يقصد بابي ؟
إنّ الليالي الغائمة من تمّوز مظلمةٌ ، والسّماء في الخريف لطيفة
الزّرقه ، وأيّام الرّبيع واشيةٌ بالقلق عند هبوب ريح الجنوب .
إنه ينسج أغانيه ، دوماً ، بأنغام طليّة نديّة .
وأنكفىء عن عملي ، وتمتلىء عيناى بالضّباب ، تُرى لِمَ آثر أن يقصد بابي ؟

٢٢

حين مرّت بي ، بخطأ عاجلة ، لامستني ذلأذل^(١) ثوبها .
وهفت من جزيرة قلبها المجهولة ، نسمةٌ مفاجئةٌ من نسَم الرّبيع الدافئة .
ومرّت بي لمسمةٌ نسمةٌ شاردةٍ مرفرفةٍ وغابت وشيكاً ، كفوف وردةٍ
تطائر في النّسيم .
ثمّ هبط على قلبي كأنه زفرةٌ من جسدها وهمسةٌ من قلبها .

(١) ذلأذل الثوب : أطرافه من أسفله .

لَمْ تجلسين هناك . تعبثين بأساوركِ ، في دَعَاكِ وكسلي ؟
 املأي جرتكِ ، فقد أزف أوان عودتك الى الدّار .
 لَمْ تداعبين الماء بيديكِ ، فيما تتلمّس نظرتكِ الطّرفَةَ^(١) في دَعَاكِ وكسلي
 شخصاً يمرّ في الدّرب ؟
 املأي جرتكِ وعودي الى الدّار .
 إنّ سويغات الصّباح تنقضي - الماء الأسود ينصب .
 الأمواج تقهقه وتتهامس في دَعَاكِ وكسلي .
 وتجمّعت الغيوم الشّاردة ، في أفق السّماء ، هناك ، على نشزٍ من الأرض .
 إنّها تتمهّل وتنظر الى محياكِ ثمّ تبتسم في دَعَاكِ وكسلي .
 املأي جرتكِ وعودي الى الدّار .

يارفيقتي ، لاتحتفظي لنفسكِ بسرّ قلبكِ .
 أفضي به إليّ ، إليّ وحدي ، خفيةً .
 أنت يا من تبتسمين ، في رقّة ، همسي لي بسرّكِ ، في لينٍ ، فإنّ قلبي
 وحده ، لا أذني ، هو الذي سيسمعك .
 الليلُ عميقٌ ، والدّار صامتةٌ ، وأعشاش العصافير مسربلةٌ بالنعاس .
 اذكري لي من خلال عبراتكِ المتردّدة ، من خلال بسماتكِ المضطربة ،
 من خلال خجلِك العذب وأساك ، اذكري لي سرّ قلبكِ .

(١) الطرفة : المتقلّبة الملول .

- تعال إلينا أيها الفتى ، قل لنا ، لِمَ تبدو عينك ممتلئتين بالجنون ؟
- لأدري أيّ خمر من خمور الخشخاش البري حسوتُ حتّى امتلأت عيناى بهذا الجنون .
- آه . يالللخزي!
- حسنٌ ، بعض الناس عاقلٌ ، وبعضهم مجنونٌ ، بعض الناس متبصّرٌ وبعضهم غافلٌ ، ثمة عيونٌ تبتسم وعيونٌ تبكي ، أمّا عيناى فملئتان بالجنون .
- أيها الفتى لِمَ تقف ، هادئاً ، في ظلّ شجرة ؟
- إنّ قدمي واهنتان من عبء قلبي ، لذا أمكث هادئاً في الظل .
- آه . يالللخزي!
- بعض الناس يمضي في سبيله ، وبعضهم يتمهل ، بعض الناس حرٌ وبعضهم مقيدٌ ، أمّا قدماى فواهنتان من عبء قلبي .

- إنّ كلّ ما تمنحه يداك السخّيتان ، أتلقّاه ولا أرجو مزيداً .
- أجل ، أجل ، إنني أعرفك أيها المستجدي المتواضع . إنّك تبغي كلّ ما يملكه المرء .
- إن حزت تلك الوردة الضائعة فسأضعها فوق قلبي .
- وإذا كان فيها شوك ؟
- فإنني سأتحمّله .
- أجل ، أجل ، إنني أعرفك أيها المستجدي المتواضع ، إنّك تبغي كلّ ما يملكه المرء .

- إن شخصت عيناك العاشقتان إلى وجهي ، مرة ، فإنهما قد تجعلان حياتي عذبةً بعد الموت .
- وإذا كانت نظراتي قاسية ؟
- فإنني سأحتفظ بها منغزة في قلبي .
- أجل ، أجل ، إنني أعرفك أيها المستجدي المتواضع ، إنك تبغي كل ما يملكه المرء .

٢٧

- آمن بالحب ولو كان مصدرًا للألم ، ولا تغلق قلبك .
- لا . أوه ، لا يا صاحبي ، إن كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .
- يا حبيبي ، لم يخلق القلب إلا ليهب نفسه مع دمة وأغنية .
- أوه ، لا يا صاحبي ، إن كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .
- إن الفرحة وانية كقطرة من ندى ، إنها تموت حين تضحك ولكن الحزن عنيّفٌ عنيد ، دع الحب المعني يستيقظ في عينيك .
- أوه ، لا يا صاحبي ، إن كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .
- إن براعم اللوتس تؤثر أن تتفتح في أشعة الشمس ثم تموت على أن تحيا براعم مغلقة في شتاء أبدي غائم ..
- أوه ، لا يا صاحبي ، إن كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .

٢٨

- إن عينيك المتسائلتين حسيرتان ، إنهما تشوفان إلى اكتناه فكري ، كالقمر الذي يتشوف إلى أن يسبر البحر .

لقد نفضت أمام عينيك حياتي كلها ، من مبدأها الى منتهاها ، دون أن أخفي عنك شيئاً ولهذا فإنك لا تعرفيني .

لو كانت حياتي جوهرةً لحطمتها مائة قطعة ونظمتها في سمط ، وجعلت منها عقدًا يحيط بجيدك .

لو كانت حياتي زهرةً صغيرةً عذبةً ، لقطفتها من غصنها لأنوط بها شعرك .

ولكن حياتي قلبٌ ، يا حبيبي ، فأين حدودها وأين غورها ؟

إنك تجهلين حدود هذه المملكة ، ومع ذلك ، فإنك ملكتها .

لو كان قلبي لذّةً عابرةً لرأيتَه ينورُ في بسمّة هنيئة ، ولاتسّق لك أن تريه وتقرأيه في لحظة واحدة .

لو كان قلبي ألماً لذاب في دموع صافية ، عاكساً سرّه العميق دون أن ينبس ببنت شفة .

ولكن قلبي حب يا حبيبي .

إن لذّته وألمه لاحدّ لهما ، إن رغبته وغناه أبدیان .

إنه قريب منك ، قرب حياتك منك ، ولكنك لن تستطيعي معرفته كلّه أبداً .

٢٩

حدّثني يا حبيبي ، قل لي الكلمات التي كنت تغنيها . الليل داج والنجوم تائهة بين الغيوم ، الريح تزفر عبر الأوراق .

سوف أحلّ صفائري ، سوف يلقي معطفي الأزرق كما يلقي الليل .

سوف أشد رأسك الى صدري ، وهناك في العزلة الناعمة سوف أهمس لقلبك وأغض طرفي وأصفي ، لن أنظر الى وجهك .

وحين تنفذ كلماتك ، سوف نمكث صامتين هادئين ، سوف تهمس
الأشجار وحدها في الظلمة الداجية .
سوف يشحب الليل ، ويولد النهار ، سوف ينظر واحدنا الى عيني
صاحبه ، وسوف نمضي في دربنا المفترقين .
حدثني يا حبيبي ، قل لي الكلمات التي كنت تغنيها .

٣٠

أنتِ سحابة السماء التي تطوف بسماء أحلامي .
إنني أصورك وأسويك وفق رغبة حبي .
أنتِ لي ، لي وحدي ، ياساكنة أحلامي التي لا نهاية لها .
إن قدميك مخضبتان برغبة قلبي المتأججة ، يامن تلتقط أناشيد
غروبي .
إن شفتيك مرتان حلوتان من طعم خمر ألمي .
أنتِ لي ، لي وحدي ، ياساكنة أحلامي الموحشة .
بظل شغفي سودتُ عينيك ، أنت يا وهم نظرتي العميقة لقد أمسكت
بك وأحطت بك بشباك موسيقي ، يا حبيبتي .
أنتِ لي ، لي وحدي ، ياساكنة أحلامي الخالدة .

٣١

إن قلبي ، عصفور البرية ، قد وجد سماءه في عينيك .
إنهما مهد الصباح ، إنهما مملكة النجوم .
إن أناشيدي تهيم في أغوارهما .

دعيني أرفرف في هذه السّماء ، في مداها الرحيب المقفر .
دعيني أشقّ غيومها وأبسط جناحي على أشعة شمسها .

٣٢

قل لي يا حبيبي ، أصبح كلّ هذا ، أصبح كلّ هذا ؟
إنّ الغيوم المدلهمة في صدرك ، تعصف بجوابها حين يومض بريق
هاتين العينين .

أصبح أنّ شفّتي عذبتان كالبرعم المتفتح من الحب الواعي الأول ؟
أتسري ذكريات شهور مايس الخوالي ، في أوصالي ؟
أتخلج الأرض كالمعزف بالأغاني على لمسة قدمي ؟
أصبح أنّ قطرات الندى تنهمر من مآقي الليل حين أظهر ، وأنّ شعاع
الصباح يسعد حين يلفّ جسمي ؟
أصبح ، أصبح ، أنّ حبّك قد رحل وحده ، عبر الأجيال والدنى باحثاً عني ؟
وأنت حين تعثر عليّ أخيراً فإنّ رغبتك الكبرى تستروح الأمن في
كلماتي الرقيقة ، في عينيّ ، في شفّتي ، في شعري المنسدل ؟
قل لي يا حبيبي ، أصبح أنّ سرّ اللانهاية مكتوب على جبیني ؟

٣٣

أحبّك يا حبيبي ، اغفر لي حبّي ، يا حبيبي .
لقد تلقفتني عصفوراً ضالاً .
ولمّا اهتزّ قلبي ، انحسر قناعه وبدا عارياً ، غطّه يا حبيبي ، في رفيق ،
واعذرني يا حبيبي .

إن كنت لاتستطيع أن تحبني ، فاعذرْ أَلمي . لاتنظر إليّ شزراً ، من بعيد .
 سوف أعود وأنتبذ ركني وأقع في الظلام .
 سوف أغطّي بكلتا يدي ، عاري الكشيف .
 نحّ وجهك عني ، يا حبيبي واعدزْ أساي .
 إن كنت تحبني ، يا حبيبي ، فاعذرْ فرحتي .
 وحين ينجرّف قلبي بتيار السعادة فلا تبتسم لاستسلامي المحفوف بالخطر .
 حين أجلس على عرشي وأحكمك بحبّي الطّاعي .
 وحين أبذل لك ، كربّة كريمة ، أفضالي ، فتحملْ كبريائي يا حبيبي
 واعدزْ فرحتي .

٣٤

لا تذهب يا حبيبي ، دون أن تستأذني .
 لقد سهرت طوال الليل ، وعيناى الآن مثقلتان بالنعاس .
 أخشى أن أفقدك ، وأنا مستغرقة في النّوم .
 لا تذهب يا حبيبي ، دون أن تستأذني .
 إنني أنهض وأمدّ يدي لألمسك وأسائل ذاتي : تُراه حلماً ؟
 أتّى لي أن أجمع قدميك الى قلبي وأضمّهما الى صدري .
 لا تذهب يا حبيبي ، دون أن تستأذني .

٣٥

خشية ألا أعرفك ، في يسر ، فإنك تعمدين الى اللعب معي .
 إنك تعشين بصري ، ببريق ضحكك ، لتواري دموعك .

أنا أعرف ، أعرف حيلتك .

إنَّكَ لاتفوهين البتَّة بالكلمة التي ترغبين في قولها .

خشيَّة ألا أقدرُك ، فإنَّكَ تتحاشينني بألف سبيل .

خشيَّة أن أخلطك بجموع النَّاس فإنَّكَ تؤثرين العزلة .

أنا أعرف حيلتك .

إنَّكَ لاتسلكين البتَّة الدربَ الذي تودين سلوكها .

إنَّ مطلبك أكبرُ من مطلب الآخرين ولهذا فإنَّكَ صامتة .

وفي غفلةٍ لعوب ، تتجنَّبين عطاياي .

أنا أعرف ، أعرف حيلتك .

إنَّكَ لاتأخذين البتَّة ماتودين الحصولَ عليه .

٣٦

لقد همسَ : « يا حبيبتى ارفعي طرفك إليَّ »

وأثبتته ، في عنفٍ ، ثمَّ قلت له : « امضِ » ولكنَّه لم يرمِ من مكانه .

ووقف قبالي وأمسك براحتي ، فقلت له : « دعني » ولكنَّه لم يذهب .

ودانى وجهه من أذني ، وخالسته النظرَ ثمَّ قلت له : « واخجلتاه » ، بيدَ

أنَّه لم يتحرك .

ولامست شفتاه خدي ، فارتعشتُ وقلت له : « إنَّكَ تتجرأ كثيراً » غيرَ

أنَّه لم يشعر بالخجل .

وعلقَ زهرة بشعري فقلت له : « لا جدوى من ذلك » ولكنَّه ظلَّ جامداً .

وتناول عقدَ الزهر من عنقي ومضى . إنني أبكي وأسائل قلبي : لِمَ

لا يعود ؟

أتريد أن تطوّقي عنقي بعقدك المضمفور من الزهر الغضّ أيتها
الجميلة ؟

ولكنّ ، عليك أن تعلمي أنّ العقدَ الوحيدَ الذي ضفرتَه معدّ لكثيرات ،
معدّ للواتي يتراءين في ألقِ النور ، لمن يقمن في بقاعٍ بكرٍ ، لمن يعشن في
أغاني الشعراء .

لقد فات الأوان في أن تستبدلي بقلبك قلبي .
ذاك زمان ، كانت فيه حياتي شبيهةً ببرعم قد اختزن شذاه كلّهُ في قلبه .
أمّا الآن فقد تبدّد بعيداً في كلّ اتجاه .

ترى من يؤتي نعمةً جَنِيه وجبسه في برعمه من جديد ؟
إنّ قلبي ليس لي ، لأهبه لواحدةٍ فحسب ، فقد نالته الكثيرات .

ياحبيبتى لقد سلف زمانٌ شرع فيه شاعرك بنظم ملحمة كبيرة .
وأسفاه! لم أكن متبصّراً قط ، فقد التقت بخلاخيلك الهازجة واستشرفت
ثمة نهايتها .

ثمّ تفرّطت الى مقاطع من الأغاني وتمدّدت ، مبعثرة ، حول قدميك .
وجعلت سفينتي المشحونةً بقصص الحرب القديمة تهتزّ على قهقهة الأمواج ،
وابتلّت بالدموع ثمّ غاصت في الأعماق .

ياحبيبتى ، عليك أن تحيلي من أجلي ، هذه الخسارة الى مغنم .
وإن خابت تعلّاتي في مجدٍ خالدٍ إثر موتي ، فدعيني أكن خالداً في حياتي .
حينذاك لن أنتحب على خسارتي ولن أعاتبك أبداً .

حاولت ، طوال الصباح ، أن أضفر طوقاً من الزهر ، بيد أن الزهرات
كانت تزلق من يدي ثم تتهاوى .
وكنت جالسةً ، هناك ، تنظرين إليّ ، خفيةً ، من موق عينيك
الضارعتين .

سلي هاتين العينين المربدتين بالمكر : من كان المخطيء ؟
أحاول أن أترنم بأغنية ، ولكن عبثاً أحاول .
وترتعش على شفتيك ابتسامة خفيةً ، سليها سبب خيبتني .
اطلبي إلى شفتيك الباسمتين أن تقولاً حائثتين ، كيف ضلّ صوتي نفسه
في الصمت كأنه نحلة سكرى تتغلغل في زهرة اللوتس .
ها هو ذا المساء . لقد أزف الوقت الذي تغلق فيه الزهور أفوافها .
دعيني أجلس الى جانبك ، واطلبي إلى شفتي أن تستوفيا العمل الذي
يمكن أن يتم في صمت وفي نور النجوم الشاحب .

٤٠

ترقرق ، في عينيك ، ابتسامة مستريضة حين أقدم اليك لأودعك .
وإنه ليتسق لي ذلك ، أغلب الأحيان ، الى حدّ صرت فيه تحسبين أنني
بسبيل المجيء قريباً .
وفي الحق ، إنه ليجاذب الشك نفسه خاطري .
فإن أيام الربيع ، تعود موسماً بعد موسم ، والقمر يغادرنا ليوافينا
بزيارة أخرى ، والزهر يعود فينور على أغصانه ، عاماً بعد عام ، مثلما
أغادرك ، لأعود اليك من جديد .

ولكن استمسكي بهذا الوهم ، لحظةً ، ولا تنبذيه في تسرعٍ قاسٍ .
حين أقول لك إنني سأغادرك الى الأبد ، فتقبلي قلبي على أنه حق ،
ودعي ضباباً يغيم هنيهةً ، على هدب عينيك الأسود المربرد .
ثم ابتسمي ، في مكرٍ ، بقدر ما يحلو لك ، حين أعود من جديد .

٤١

إنني أتشوف إلى أن أردد لك أعماق الكلمات التي ينبغي أن أقولها
لك ، ولكنني لا أجرو على ذلك مخافة أن تضحكي مني .
لهذا فإنني أضحك من نفسي ، وأنفض سري ، دعابةً ومزاحاً .
وأستخف بالمي لنلا تستخفي به أنت .
إنني لأصبو الى أن أردد لك أصدق الكلمات التي ينبغي أن أقولها لك ،
ولكنني لا أجرو على ذلك ، خشيةً ألا تؤمني بي .
لهذا فإنني أوشيتها بالكذب ، ذاكرًا غير ما أفكر فيه .
إنني أدع المي يبدو مستحيلًا لنلا تريه أنت مستحيلًا .
إنني أتوق إلى أن ألهج بأثمن الكلمات التي يتعين علي أن أقولها لك ،
ولكنني لا أجرو على ذلك ، خشيةً ألا أحظى بما يعدل قيمتها .
لهذا فإنني أزجي اليك أسماءً قاسيةً وأزهي بقوتي العاتية .
وأؤلمك خشيةً ألا تعرفي أي ألم .
إنني لأتمنى أن ألزم جانبك صامتًا ، ولكنني لا أجرو لنلا تخون شففتي
قلبي .

لهذا فإنني أهدر وأثرثر ، في هينةٍ ، موارياً قلبي خلف كلماتي .
وأقسو ، في عنفٍ ، على المي ، لنلا تقابليه أنت بالقسوة .
إنني لأرجو أن أبعد عنك ، ولكنني لا أجرو خشيةً أن تري الى جبني .

لهذا فإني أقدم الى مجلسك ، شامخ الرأس ، غير مكترث بشيء .
إن نظراتك النافذة المتصلة المرسلّة من عينيك تجدد ألمي دوماً .

٤٢

إيه أيها المجنون ، أيها السكران الفاتن .
إن فتحت ، بركلة من قدمك ، أبوابك ، واصطنعت الجنون أمام الناس .
إن فرغت محفظتك ، في ليلة واحدة ، وفرقت أصابعك للتبصّر هازناً .
إن سلكت دروباً غريبة ، ولهوت بالأشياء العقيمة ، دون عقل وبصيرة .
إن نصبت شراعتك في مهبّ العاصفة ، لتحطم دفة سفينتك .
إن فعلت ذلك كلّهُ ، فإني ألحق بك أيها الرفيق وأسكر وأتبع معك الشيطان .

لقد أضعت أيامي ولياليّ في صحبة الجيران العقلاء الشرفاء .
إن المعرفة الواسعة قد شيّبت شعري ، والسهر الطويل قد جعل نظري قاتماً .

لقد سلخت أعواماً مديدة ، في التنقيب على شوارد الأشياء وجمعها .
فلأسحق هذه الأشياء ، ولأرقص فوقها ولأقذف بها كلّها للرياح .
فإنّ منتهى السداد هو أن أسكر وأتبع الشيطان .
دع وسائوس الضمير الملتوية كلّها تمحى ، وذرنى أضلّ طريقي بانساً .
لتجرفني جذبة من دوارٍ وحشيٍّ ولترم بي بعيداً عن مراسي .
إنّ العالم أهل بالشرفاء ، وبالعاملين النافعين الأذكياء من الناس .
ثمّة رجال يعدّون ، في يسر ، في المقدمة ، ورجال جديرون بأن يلوهم .
فليكونوا سعداء نافعين ، ولأكن أنا مجنوناً نافلاً النفع .
أنا أعلم أنّ نهاية كلّ سعي هي أن أسكر وأتبع الشيطان .

إنني أقسم بأن أتخلّى ، منذ الآن ، عن أي مطلب في منصبٍ شريفٍ لائقٍ .
 إنني أهجر اعتدادي بالمعرفة ، وبتمييزي للخطأ والصواب .
 سوف أحطّم وعاء ذكرياتي . مبدّداً آخر قطرة من الدّموع .
 سوف أغوص في زبد الخمر الحمراء ، وأشعشع فيه ضحكتي .
 أمّا مظاهر التهذيب والوقار فلسوف أمزّقتها شرّ ممزّق .
 سوف أقسم يميناً غموساً بأن أصبح تافهاً سكراناً وبأن أتبع الشيطان .

٤٣

لا ، يارفاقي ، لن أصبح ناسكاً أبداً ، في وسعكم أن ترووا ذلك عني .
 لن أكون ناسكاً أبداً ، إن لم تتمنّ هي نفس ماأتمنّى .
 لقد آليت ، في عزم ، ألا أكون ناسكاً أبداً ، إن لم يتأتّ لي أن أجد
 ملاذاً ظليلاً وصاحباً في زهدي .
 لا يارفاقي ، لن أهجر أبداً مسكني وبيتي . وأفزع الى الغابة الموحشة ،
 إن لم تتجاوب ، في ظلّ صداها ضحكةً قريرةً سعيدةً ، وإن لم تجذب فيها
 الريح ذيلَ معطفٍ زعفراني اللون ، وإن لم يضح صمتها ، بالهمس الرقيق ،
 أكثر عمقاً .
 أجل ، لن أصبح ناسكاً أبداً .

٤٤

اصفح ياسيّدي الكريم ، عن هذين الآثمين ، إنّ رياح الربيع ، تهبُّ
 الآن نكباء عاصفةً ، سافيةً الغبارَ والأوراق الميّتة ، جارفةً معها دروسك كلّها .
 لاتقل ياأبي إنّ الحياة باطلة كلّها .

لقد أصبحنا من أجل هدنة عقدت ذات مرة مع الموت ومن أجل
سويغات عاطرة ، أصبحنا كلانا خالدين .

وإن قدم جيش الملك نفسه ، وانتقض علينا في ضراوة ، فلسوف نكتفي
بأن نهز رؤوسنا ، في أسي ، ونقول : « أيها الإخوان لقد رتقتم صفو راحتنا ،
إن كان عليكم أن تستأنفوا هذا اللعب الصّاحب ، فاذهبوا بعيداً وقعقعوا ،
ثمّة ، بأسلحتكم ، فمن أجل لحظات سائحة فحسب أصبحنا نحن خالدين » .
وإن أقبل بعض الرفاق وأحاطوا بنا فلسوف ننحني لهم ، في تواضع ،
ونقول : « إنّ هذه الثروة الكبيرة ، تضعنا في مأزقٍ حرج ، وحيث نقيم في
السّماء التي لانهاية لها ، فإنّ مكاننا فيها ضئيل ، إنّ الزّهر ينور بكثرة في
الربيع ، وأجنحة النحل الدّؤوب يلامس بعضها بعضاً ، إنّ سماءنا الصّغيرة ،
حيث نقيم ، وحدنا ، كلانا ، نحن الخالدين ، هي سماء ضيّقة دون
جدوى » .

٤٥

أيّها الضيوف الطّاعنون الذين سوف يشتهم الله ويعفي آثار خطاهم
كلّها .

ضعوا على صدوركم وأنتم تبتسمون ، كلّ ما هو سهل وبسيط ودانٍ .
اليوم هو عيد الأشباح التي لاتعرف متى تموت .
دعوا ضحككم تترقق جذلاً لامعنى لها كأنها ألق النور يحبو فوق
الماء الجمد .

دعوا حياتكم ترقص ، خفيفةً ، على شاطئ الزّمن كأنها قطرة الندى
المنسربة على حروف الورقة .

أريقوا من أوتار معزفكم ، أنغاماً تأتلف في أوزانٍ عابرة .

لقد تركتني ، ومضيت في طريقك .

كنت أحسب أنني سوف أبكيك ، وأرصع قلبي بصورتك المنفردة
المغزولة من أغنية ذهبية .

وأسفاه ، يا لنكد طالعي ، إن الزمن قصير .

إن الشباب يزوي عاماً بعد عام ، وأيام الربيع زائلة ، والزهر الغص
يموت من لا شيء ، والحكيم يقول لي : « إن الحياة ليست سوى قطرة من
ندى فوق ورقة لوتس » .

إنبغي أن أهمل كل هذا لأتطلع إلى من تخلت عني ؟ لعل هذا أن يكون
قاسياً جنونياً ، فإن الزمن قصير .

تعالى ياليلي الممطرة يتردد فيها خفق الأقدام ، وابتسم يا خريفي
الذهبي ، تعال يانيسان المتمهل ، يامن يوزع قبلاته بعيداً .
تعال أنت ، وأنت أيضاً .

يا أحبتي إننا جميعاً فانون ، أمن الحكمة أن يحطم المرء قلبه من أجل
تلك التي استأثرت بقلبها ومضت ؟ إن الزمن قصير .
إنه ليطيب لي أن أنتبد ركناً ، لأحلم وأنظم الشعر مردداً : إنك دنيائي
كلها .

إنها لبطولة أن يعانق المرء ألمه ، وأن يعتزم ألا يسلو أبداً .

ولكن وجهاً ناضراً يرامق بابي ويرفع طرفه إلى عيني .

لأملك سوى أن أرقأ دمعي ، وأغير نغم أغنيتي .

إن الزمن قصير .

إذا كان يحدث لك ذلك ، فلسوف أتوقّف عن الغناء .
 إذا جعلت نظرتي قلبك يخفق فلسوف أحول عيني عن وجهك .
 إذا ارتعت على حين غرة ، وأنت تسيرين فلسوف أنتحى وأتخذ سمتي
 في طريق أخرى .
 إذا كنت أربكتك وأنت تنسقين الزهر فلسوف أعزف عن حديقتك
 المقفرة .
 إذا هاج زورقي ماء النهر فماج وأزبد ، فلن أجدف صوب شاطئك .

خلّصيني يا حبيبتي من قيود رقّتك ولا تهربي مزيداً من خمر قبلاتك .
 إنّ هذا الدخان المنعقد من البخور يهصر قلبي .
 افتحي الأبواب ، ودعي نور الفجر يملأ الأرجاء .
 إنني ضائع في ذاتك ، مغطى بين طيّات مداعباتك .
 خلّصيني من سحر رُقاك ، وردّي لي فتوتّي ، أقدم اليك قلبي المحرّر .

وأمسك براحتيها ، وأضمّها الى صدري .
 وأحاول أن أملأ ذراعي بملاحتها وأجني ابتسامتها الحلوة العذبة
 بقبلاتي وأنهل نظراتها القاتمة بعيني .
 آه! أين منّي هذا كلّهُ ، من يستطيع أن يسبر زرقة السّماء ؟

وأحاول أن أقبض على الجمال ولكنه يفلت مني ، تاركاً بين يدي جسده وحده .

كيف يستطيع الجسد أن يمسّ الزهرة التي تقدر الروح وحدها أن تمسّها ؟

٥٠

يا حبيبتي ، إن قلبي يتوق ، ليلَ نهارَ ، الى لقائك الى لقاءٍ شبيهٍ بالموت الضاري .

اجرفيني بعيداً ، كما تجرف العاصفة ، وخذي كلّ ما أملك ، وحطّمي نومي واجني أحلامي وانهي مني دنياي .

فلنصبح بهذا الاكتساح ، بهذا السلب ، سلب الروح ، كلّاً واحداً من الجمال .

وأسفاه إن رغبتني عبثُ كلّها ، أين ذاك الأمل في الاتحاد ، فيما عدا الإتحاد بك يارب ؟ .

٥١

أنه أغنيتك الأخيرة ولنمض .

انس هذه الليلة . عمّن تراني أبحث ، لأضمّه بين ذراعي ، حين ينجاب الظلام ؟ فالأحلام لا يمكن أن تؤسر .

إنّ يديّ التواقيتين تشدان الفراغ إلى قلبي ، وتجرحان صدري .

- لِمَ انطفأ المصباح ؟

- لقد أخطته بمعطفي ، ليكون بمنجى من الريح ، ولهذا فقد انطفأ المصباح .

- لِمَ ذوت الزهرة ؟

- لقد شددتها الى قلبي ، في شغل قلقي ، ولهذا فقد ذوت الزهرة .

- لِمَ نضب النهر ؟

- لقد وضعت سدّاً في مجراه لأفيد منه وحدي ، ولهذا فقد نضب النهر .

- لِمَ انقطع وتر المعزف ؟

- لقد حاولت أن أضرب عليه نغماً أعلى ممّا تطيقه قدرته ، ولهذا فقد انقطع وتر المعزف .

لماذا تجعليني أستشعر الخجل ، بنظرة منك ؟

فلم أقدم اليك مستجدياً .

ولقد وقفت - لأنفق الوقت ليس غير - في نهاية فناء دارك ، خلف وشيع الحديقة .

لماذا تجعليني ، بنظرة منك ، أستشعر الخجل ؟

لم أقطف أيّ زهرة من حديقتك ، ولم أجن أيّ ثمرة .

ولكنني لذت ، في تواضع ، بظلّ الدرب حيث يكون في وسع أيّ مسافر غريب أن يقف .

لم أقطف أيّ زهرة .

أجل إنَّ قَدَمِي قد كَلَّتَا وكان شؤبوب المطر يسحُ .
وكانت الرياح تعول بين أغصان البامبو المصطفقة .
وكانت السَّحَب تسري في مضطرب السَّماء كأنَّها فرقة جيش تتقهقر
مغلوبة .

إنَّ قَدَمِي قد كَلَّتَا .
لأدري ما الذي تفكَّرين في شأني ، ولأدري من كنت تنتظرين على
بابكِ .

وكان ألق النور يبهـر عينيك المترقبتين .
كيف كان في ميسوري أن أعرف أنَّك كنت ترينني ، حيث اتَّخذت
مجلسي في الظلِّمة ؟

لأدري ما الذي تفكَّرين في شأني ؟
لقد تصرَّم النهار وتوقَّف المطر فترةً .
وأغادر ظلَّ الشجرة القائمة في طرف حديقتك وأترك مجلسي على
العشب .

لقد خيمَ الظلام ، فأغلقي بابك ، إنني أستاذف السير .
لقد تصرَّم النهار . .

٥٤

الى أين تهرول ، حاملاً سَلَّتَكَ ، هذا المساء ، بعد أن أقفلت السوق ؟
لقد آب المشترون جميعاً بأحمالهم الى بيوتهم ، والقمر يتسامى فوق
أشجار القرية .

كانت أصداء الأصوات المنادية فوق الزَّورق ، تعدو عبر الماء القاتم .
وتتناهى الى الغيضة النائية ، حيث يرقد البطَّ الوحشي .

الى أين تهرول ، حاملاً سلتك ، هذا المساء ، بعد أن أقفلت السوق ؟
لقد أغمضت أنامل النوم عيون الأرض .
وغلّف الصّمت أعشاشَ الغربان ، وانطفأت همسات أوراق البامبو .
وبسط الحراثون ، غبّ عودتهم من حقولهم حُصْرهم ، على فناء
البيوت .
الى أين تهرول ، حاملاً سلتك ، هذا المساء ، بعد أن أقفلت السوق ؟

٥٥

كان الوقت ظهراً ، حين مضيت .
وكانت الشّمس متّقدة في السّماء .
وكنت قد أنهيت عملي ، وجلست ، وحيدة ، في شرفتي ، حين
مضيت ، وكانت لفحات متقلّبة تقبل ، مغرّلةً بأطيابٍ مختلفة من الحقول
البعيدة .
وكانت الحمائم لاتني تهدل في الظّل ، وشرعت نحلةً عائدةً بغرفتي
تترسّل في طينها ، وتورد أخبار الحقول البعيدة .
وكانت القرية مستغرقة في النّوم ، في قيظ الظهيرة ، وكانت الطّريق
مقفرة .
وكان حفيف الأوراق يعلو في هباتٍ مفاجئة ثمّ يمحى .
وأخذت أجيل نظري في السّماء ، وأغزل في زرقتها حروف اسمٍ معروفٍ
لديّ ، فيما كانت القرية تفيء إلى النّوم ، في قيظ الظهيرة .
لقد نسيت أن أضفر شعري ، وكان النّسيم العليل يعبث به فوق خدي .
وكان النّهر يعدو مطمئناً الى جانب شاطئه الظليل .
وكانت الغيوم البيضاء الكسلى ، ساكنةً .

لقد نسيت أن أضفر شعري .
كان الوقت ظهراً حين مضيت .
وكان تراب الطريق ساخناً ، وكانت الحقول لاهثةً .
وكانت الحمام تهدل بين الأوراق الكثيفة .
وكنت وحيدةً في شرفتي ، حين مضيت .

٥٦

بين رفيقاتٍ لي كثيرات ، كنت وحيدةً منصرفة إلى أعمال البيت اليومية الغامضة .

لِمَ اخترتني ، فأخرجتني من الملاذ الرطب ، ملاذ حياتنا المشتركة ؟
إنَّ الحب المكتوم لحبٍّ مقدّس ، إنه يتلأأ كجوهرة ، في غيب القلب الخفي ويبدو على نور النهار الفاضح ، قاتماً جديراً بالشفقة .
آه لقد مزّقت شغاف قلبي ، وجرت حبي إلى بهرة السّاحة المنفسحة ، محطّماً إلى الأبد ، ركنه الظليل ، حيث كان يوارى عشه .
وتظّل النساء الأخريات كما هنّ دوماً .

لم ينفذ إنسان إلى أعماق ذاتهنّ وإنّهنّ ليجهلن أنفسهن سرهنّ .
إنّهنّ يبتسمن في رقة ، يبكين ويثرثن ويعملن ، ويقصدن المعبد ويشعلن مصابيحهن ويجلبن الماء من النهر .
كنت أرجو لحبيّ الخلاص من خجله وهو يرتعش وليس ثمّ من يحميه ، بيد أنّك جعلت تشيح وجهك عني .
أجل إنّ الطريق تمتد لاحبةً أمامك ، ولكنك قطعت سبيل عودتي وتركتني عريانةً أمام الناس ، تحدّق إليّ عيونهم ، ليل ، نهار .

إِيَّاهُ أَتَيْتُهَا الدُّنْيَا لَقَدْ قَطَفْتَ وَرَدَّتْكَ .

وَضَمَمْتُهَا إِلَى قَلْبِي فَوَخَزْتَنِي شَوْكُهَا .

وَلَمَّا جَنَحَ النَّهَارُ إِلَى الزَّوَالِ ، وَامْتَدَّتِ الْعَتَمَةُ ، أَلْفَيْتُ الْوَرْدَةَ ذَاوِيَةً ،
بِيدَ أَنَّ أَلَمَ وَخَزَتِهَا ظِلٌّ بَاقِيًا .

إِيَّاهُ أَتَيْتُهَا الدُّنْيَا ، سَوْفَ يُوَافِيكَ الْوَرْدُ بِشِذَاهُ وَعَنْفَوَانِهِ .

وَلَكِنْ أَوَانَ قَطْفَ الْوَرْدِ الَّذِي كُنْتُ أَتَحَيَّنُهُ قَدْ فَاتَنِي ، وَفِي اللَّيْلِ الْحَالِكِ ،
لَمْ أَعِدْ أَظْفِرُ بِوَرْدَةٍ فِيمَا عَدَا أَلَمَ وَخَزَتِهَا الْبَاقِي .

ذَاتَ صَبَاحٍ ، جَاءَتَنِي ، فِي حَدِيقَةِ الزَّهْرِ ، طِفْلَةٌ عَمِيَاءُ وَقَدَّمَتْ إِلَيَّ
عَقْدًا مِنَ الزَّهْرِ فَوْقَ وَرْقَةٍ لَوْتَسٍ .

وَطَوَّقَتْ بِهِ عُنُقِي فَتَرَقَّرَتْ الدَّمُوعُ فِي عَيْنَيَّ .

وَقَبَّلَتْهَا وَقَلَّتْ لَهَا : « أَنْتِ كَالزَّهْرَةِ لَا تَبْصُرِينَ .

لَيْسَ فِي وَسْعِكَ أَنْتِ نَفْسُكَ أَنْ تَرَى كَمْ كَانَتْ هَدِيَّتُكَ جَمِيلَةً » .

أَتَيْتُهَا الْمَرْأَةَ لَسْتُ طَرْفَةَ اللَّهِ فَحَسَبَ ، وَلَكِنَّكَ طَرْفَةُ الرِّجَالِ أَيْضًا ، فَهَمُّ
الَّذِينَ يَزِينُونَكَ بِالْجَمَالِ النَّابِضِ مِنْ قُلُوبِهِمْ .

وَيَغْزِلُ لَكَ الشَّعْرَاءُ خَمَارًا مِنْ خِيوطِ أَخِيلَتِهِمُ الْمَذْهَبَةِ ، وَيَخْلَدُ
الْمُصَوِّرُونَ إِهَابَ جَسَدِكَ .

إنّ البحر يلفظ لآلئه ، وتمنح المناجم ذهبها ، وتهب حدائق الصيف
وردها ، لتزيني وتحلي به وتضحي أثمن وأكثر نفاسة .
وتسربل رغبات قلوب الرجال ، بمجدها ، شبابك .
أنت كيان ، نصفه امرأة ، ونصفه الثاني حلم .

٦٠

في وسط اصطخاب الحياة وزمجرتها ، تطل أنت أيها الجمال المنحوت
من الحجر ، هادئاً وحيداً بعيداً .
عند قدميك يجلس الزّمن العظيم ، مشغولاً ويهمس : « تكلم يا حبيبي ،
يا عروسي » .
ولكنّ كلامك أيها الجمال السّاكن يظلّ جامداً على الحجر .

٦١

مهلاً . يا قلبي ، ليكن وقت الفراق عذباً .
لاتدعه يصبح موتاً بل تتمة .
ليحر الحبّ إلى ذكرى ، ولينقلب الألم الى أغنيات .
ليتناه الرفيف في السّماء الى انطواء الأجنحة حول العش .
لتكن آخر لمسة من يديك رقيقة كزهرة الليل .
توقفي أيّتها النهاية الرائعة ، لحظة ، واذكري ، في صمت كلماتك
الأخيرة .
إنني أنحني لك وأرفع سراجي لأنير لك الطريق .

في طريق الحلم المظلمة ، مضيت أبحث عن تلك التي كنت أحبها في حياة آنفة .

كان بيتها قائماً في طرف شارع منعزل .
وعلى هينمة نسيم الماء ، كان طاووسها المدلل ، يهوّم فوق مجثمه ،
وكانت الحمام صامتةً في ركنها . وأراحت مصباحها على الوصيد ووقفت أمامي .

ورنت عيناها النجلاوان إلى وجهي وسألت بصوتٍ خفيضٍ : «أأنت بخير يا صديقي ؟» .

وحاولت أن أجيب ولكنّ الكلمات تأبّت عليّ ، وأضحت ضائعة منسية .
وفكرت ثم فكرت عبثاً ، ولم توافِ أسماؤنا الى ذهني .
وتألّقت الدموعُ في عينيها وبسطت لي يدها اليمنى فأمسكتُ بها ،
ولبثتُ صامتاً .

وترنّح لهب المصباح ، على هينمة نسيم المساء ثم انطفأ .

أيّها الرخالة ، أينبغي أن ترحل ؟
الليل ساجٍ ، والظلمة تمّحي فوق الغابة .
المصابيح تشع في شرفتنا والزهر كلّهُ يترقرق ريانَ غصّاً ، والعيون
الفتية تستيقظ هادئة .

هل آن وقتُ الظعن ؟

أيّها الرخالة ، أينبغي أن ترحل ؟

لم نخط بأيدينا الضارعة قدميك .

إن أبوابك مشرّعة وجوادك المسرج قائمٌ أمام الباب .

لنن حاولنا أن نعيق مرورك ، لم نعد الى ذلك بغير أغنياتنا .

لنن حاولنا أن نثنيك عن الرحيل ، لقد توسّلنا الى ذلك بعيوننا فحسب .

أيّها الرّحالة إنّنا عاجزات عن استبقائك ، وليس لدينا سوى الدموع .

أي لهب لا ينطفئ، البتّة ، يتألّق في عينيك!

أيّ حمّى قلقة تعدو في دمك!

أيّ نداء من الظّلّمات يدفعك!

أيّ رقيّة مخيفة تلوتها ، بين النجوم في السّماء ، حتّى يتّسق لليل أن

يتسلّل برسالةٍ مغلقةٍ سرّيةٍ الى قلبك صامتاً غريباً!

إن كنتَ لاتحفل بالمجالس الهازجة بالسّرور ، وكنتَ تتشوّف إلى

الهدوء ، واهنّ القلب ، فلسوف نطفئ مصابيحنا ونسكت معازفنا .

سوف نجلس ، هادئات ، في الظلمة ، تحت الأوراق الهامسة ، ولسوف

يريق القمر المتعبُ أشعّته الشّاحبة فوق نافذتك .

إيه أيّها الرّحالة ، أيّ روحٍ مؤرّقةٍ تناهت إليك من جوف الليل ثمّ

لامستك .

٦٤

لقد أنفقت بياض يومي فوق غبار الطّريق اللاسع الحار .

الآن ، في هذا المساء الرطيب ، أقرع باب الفندق الذي أقفز وأمسى

خراباً ييباً .

وتُنشِب شجرة (الأشّات) الشرسةُ جذورها الغرثى بصدوع الجدران

المتشقّقة .

وانقضت أيام ، كان يقدم فيها السابلة الى هنا ليغسلوا أقدامهم
المرهقة .

وكانوا يمدّون بسطهم في فناء الدّار ، تحت النّور الواني المنثال من
القمر المبكر ، ثم يتخذون مجلسهم ثمّة ويتحدّثون عن بلادٍ عجيبة .
وكانوا يستيقظون صباحاً ، متوثّبي النّشاط ، وكانت العصافير تملأ
أعطافهم بهجّةً ويتلعّ الزهر من عذار الدرب رأسه نحوهم في تحبّبٍ وودٍ .
ولكن لم يستقبلني مصباح منير واحد حين قدمت إلى هنا .
كانت لطخات الدخان السّوداء المخلفة من عديد السهرات تبدو على
الجدار كأنها عيون عمي .

وترفرف يراعات^(١) في الدغل القريب من البركة المجففة ، وتبسط
أغصان البامبو ظلالها فوق الدرب المعشوشبة .
لست بضيف أحد في نهاية يومي .
الليل الطويل ، يمتد أمامي ، وأنا متعب .

٦٥

تراه نداؤك الذي يوافي من جديد ؟
لقد أهلّ المساء ، وتشبّث بي التعب كأنه أذرع الحب الضّارعة .
أتناديني ؟
لقد منحتك نهاري كلّهُ ، ياسيدتي القاسية ، أتريدين أن تنهبي مني
ليلي أيضاً ؟ ومع هذا ، فإنّ لكلّ شيء نهاية ، وإنّ عزلة الظلام هي ملك كلّ
إنسان . ولكن ، أوجب على صوتك أن يمزّقها ويلفحني ؟

(١) اليراعة : ذبابة تضيء وهي تطير في الليل .

أليس للسماء موسيقا نوم مهددة على بابك ؟
ألا تتسلق أجنحة النجوم الصامته السماء فوق برجك الجبار ؟
ألا يتهاوى الزهر على تراب حديقتك في ميتة ناعمة ؟
ألا يتعين عليك أيتها القلقة أن تنادينني ؟
دعي عيون الحب الحزينة تسهر وتذرف الدمع دون جدوى .
دعي المصباح يشتعل في الدار الموحشة .
دعي الزورق ينقل الحرائث المكدودين الى بيوتهم .
إنني أهجر أحلامي وألبي نداءك .

٦٦

كان ثمّة مجنوناً هيماناً بسبيل البحث عن الفلاسفة ، وكان أشعثَ
الشعر ، أسفَعَ الوجه مغبراً ، ذا جسم هضيم كالطيف في الرقة ، وكانت شفاته
مضمومتين كأبواب قلبه المغلقة وعيناه متقدتين كنور القطرب^(١) المضيء
يلتمس أنثاه .

وكان البحر ينفسح أمامه هادراً مزمجراً .
وكانت الأمواج المثرثرة لاتأتلي تتحدّث عن الكنوز الخبيثة وتسخر
ممنّ يجهل ماتعنيه .
لعلّه كان يهيم بلا أمل ، بيد أنّه ظلّ يواصل البحث الذي أضحى جذع
حياته .

إنه كالبحر اللجّي الذي يعطو أيديه الى السماء ، دوماً ، ليظفر بما
لا يمكن الوصول اليه .

(١) القطرب : دويبة تضيء في الليل كأنها شمعة .

إنه كالنجوم التي تدور في أفلاكها وتظلّ تنشد هدفاً لا يمكن إدراكه
البتّة .

هكذا كان المجنون الأغبر الأشعث الشعر يهيم على الشاطئ، المقفر ،
بحثاً عن حجر الفلاسفة .

ودنا منه ، ذات يوم طفلاً من القرية وقال له : « كيف عثرت على هذا
الزّنار الذهبي الذي يطوق خصرك » ؟

وارتعدت أوصال المجنون ، فإنّ هذا الزّنار المصنوع من الحديد ، من
قبل ، قد تحوّل الى ذهب حقيقي ، أجل ، لم يكن ذاك من وشي الحلم ، غير
أنّه لم يذكر قط متى تحوّل الزّنار الحديدي الى ذهب .

وضرب جبينه بضراوة ، أين ؟ آه!! أين ؟ لقد ظفر بطلبته دون أن
يدري .

فقد تعود أن يلتقط الأحجار ويقدح بها زناره ، « ثمّ يرمي بها دون أن
يهتم بأن يلقي نظرة الى زناره ليرى الى أيّما تحوّل يطرأ عليه .

وهكذا فإنّ ذلك المجنون المسكين قد عثر على حجر الفلاسفة ثمّ
أضاعه .

وكانت الشّمس تغوص جانحة الى مغربها ، وكانت السّماء تشعّ ذهباً .
وعاد المجنون على أعقابها ، باحثاً عن كنزه المفقود ، موهون القوى ،
مهذود الجسم ، وقلبه ملقّى على التراب كأنه شجرة مجتثة مقلوعة .

٦٧

مهلاً أيتها العصفورة ، يا عصفورتي ، أصغي إليّ ولا تطوي جناحيك .
وإن يكن المساء قد هبط بخطا ونيدة وأوماً الى الأغاني كلّها بأن
تسكت ،

وإن تكن رفيقاتك قد ذهبن لينعمن بالراحة ، وإن كنت متعبة ، وإن
يكن الخوف جعل يعدو في الظلام ، وإن يكن وجه السماء قد تقنّع .
مهلاً أيتها العصفورة ، يا عصفورتي ، أصغي إليّ ولا تطوي جناحك .
إنّ الظلام المنتشر ليس بظلام أوراق الغابة ، إنه البحر الذي ينتفخ
كأنه ثعبان ضخمٌ أسودٌ .

ليس هذا رقص زهر الياسمين ، إنه الزبد المتلألئ .
آه... أين الشاطئ الممرع المنير ؟ أين عشك ؟
آه... أيتها العصفورة ، يا عصفورتي ، أصغي إليّ ولا تطوي جناحك .
الليل الموحش يتمطى فوق الطريق ، والفجر يهوّم خلف الرّبيّ الظليلة .
النجوم تمس أنفاسها وهي تعدّ الساعات ، والقمر الواني يسبح في
الليل العميق .

إيه أيتها العصفورة ، يا عصفورتي ، أصغي إليّ ولا تطوي جناحك .
من أجلك ليس ثمّ أمل ولا خوف .
ليس ثمّ كلام ولا همس ولا نحيب .
ليس ثمّ بيت ولا سرير راحة .
ليس ثمّ سوى جناحك والسماء الرحبية .
إيه أيتها العصفورة ، يا عصفورتي ، أصغي إليّ ولا تطوي جناحك .

٦٨

ليس هناك حياة تُؤتي الخلود يا أخي . ليس هناك شيء يتاح له البقاء ،
اذكر هذا ثمّ متّع نفسك .
إنّ حياتنا ليست ذاك العبء القديم ، وطريقنا ليست طريق الرحلة
الطويلة .

على الشاعر ألا يردّد الأغنية القديمة نفسها .

إنّ الزهرة تصوّح وتموت ، ولكن على من يحمل الزهرة ألا يبكيها دوماً .
اذكرْ هذا يا أخي ثمّ متّع نفسك .

ينبغي أن تمرّ فترة صمتٍ طويلةً ، قبل أن يتمّ نسج لحنٍ كامل .
إنّ الحياة تتلاشى مع غروبها حتّى تنفى في الظلال الذهبيّة .

يجب أن يدعى الحب من لهوه ، لينهل من الألم ويولد في سماء الدموع .
اذكرْ هذا يا أخي ثمّ متّع نفسك .

إننا نبادر الى قطف الزهر لنلا تجنيه الرياح العابرة قبلنا .

إنّ ما يجعل دمنا يفور وعيوننا تتلظى ، هو اختلاصنا القبلات التي قد
تُمحي ويفوت أوانها إن أمهلناها .

إنّ حياتنا تتقد ولذاتنا تستوفز توقاً الى الزمن الذي يُقرع فيه ناقوس
الرحيل .

اذكرْ هذا يا أخي ثمّ متّع نفسك .

ليس هذا أواننا في أن نتعلّق بشيء ونحطّمه ثمّ نرمي به أرضاً ، إنّ
الساعات تُغذّي السير مسربةً بثيابها أحلامها .

إنّ حياتنا قصيرة ولكنّها لاتهب للحبّ غير أيام قليلة ، وقد كُتبَ علينا
فيها الكد ، وقد تُضحى قاسيةً طويلةً الى الأبد .

اذكرْ هذا يا أخي ثمّ متّع نفسك .

إننا نستعذب الجمال لأنه يواكب في رقصه نفس الوزن الهائم مع
حياتنا .

إنّ المعرفة ثمينةٌ لدينا ، إذ لن يفسح لنا زمن نستطيع فيه أن تتمّها .
كلّ شيء مقدّرٌ له ، في السّماء الخالدة ، أن يخلق ثمّ يزول .

ولكنّ أراهير الوهم الأرضيّة تظل بالموت غصّةً ريا ، الى الأبد .
اذكرْ هذا يا أخي ثمّ متّع نفسك .

إنني أقنص الأيل الذهبي .

في ميسوركم أن تبسموا . ، يارفاقي ، ولكنني ألاحق الخيال الذي يفرُّ منِّي .

وأعدو فأفرغُ الربى وأجوز الأودية وأهيم في بلاد مجهولة لأنني أسعى وراء قنص الأيل الذهبي .

وتقدمون الى السَّوق وتبتاعون ثم تؤوبون الى بيوتكم مزودين بالشرى ، بيدَ أن نداء الرياح المشرّدة قد مسّني ، لأدري متى وأين .

لا يحكُّ في صدري أيّ هم ، فكل ما في حوزتي قد خلفته ورائي بعيداً .
وأعدو فأفرغُ الربى وأجوز الأودية وأهيم في بلاد مجهولة لأنني أسعى وراء قنص الأيل الذهبي .

٧٠

أذكر أنني دفعت ، ذات يوم من أيام الطفولة ، بزورقٍ ورقيّ في الجدول .
كان يوماً نديّاً من شهر تمّوز ، وكنت وحيداً سعيداً بلعبتي .

لقد دفعت بزورقي الورقي في الجدول .

وعلى حين غرة ، تجمع زُكامُ السَّحب الداكنة ، وهبّت الرياح النكباء وأسبل المطرُ غدقاً مدراراً .

وانقضت سيولُ من الماء الوحل ، على الجدول ، فغمرته وأغرقت زورقي .

ومثّل في خاطري ، ومرارة الأسى في نفسي ، أن العاصفة قد تعمّدت أن تهبّ لتكدّر صفو فرحتي وأنّ إساءتها موجّهةٌ إليّ .

إنّ نهار تمّوز الغائم هو اليوم طويل ، وفكّرت في جميع لعب الحياة التي
كنت فيها الخاسر دوماً .
وبينما كنت ألوم قدري على صروفه وعبه بي . تذكّرت فجأة زورقي
الذي غرق في الجدول .

٧١

لم يكن النّهار قد انقضى ، ولم تُغلق سوقُ المعرض ، السوقُ القائمةُ
على ضفّة النهر .
كنت أخشى أن يكون وقتي قد تبدّد ، وأن يكون آخر درهم عندي قد فقد .
لا يا أخي ، لقد تبقّى شيء لديّ ، فإنّ قدري لم يختلس منّي كلّ شيء ،
لقد انتهى البيعُ والشراء .
وسدّد الحسابُ كلّ بين كلا الطرفين ، وأزفَ وقتُ عودتي الى البيت .
ولكن ، تُراك تطالب حقّاً بضريبتك ، أيّها الحارس ؟
لاتخف لقد تبقّى شيء لديّ ، فإنّ قدري لم يختلس منّي كلّ شيء .
إنّ هدهدة الريح تنذر بالعاصفة والغيوم المتطامنة في الغرب لاتشي
بخير .

وينتظر الماء الهادئ هبوب الريح .
وأخفّ مسرعاً لأجوز النهر ، قبل أن يدهمني الليل .
أيّها الملاح ، أتريد أجرك ؟
أجل يا أخي لقد تبقّى شيء لديّ فإنّ قدري لم يختلس منّي كلّ شيء .
على حيد الطريق اتّخذ الشّحاذُ مجلسه ، تحت الشجرة ، وأأسفاه! إنه
يرامق وجهي بأملٍ خجولٍ .
إنه يحسب أنني غني من أرباح النهار .

أجل يا أخي لقد تبقي شيء ، لدي ، فإنّ قدري لم يختلس مني كلّ شيء .
 الليل يحلّولك والطريق تقفر ، واليراعات المضيئة تتلألأ بين الأوراق .
 من أنت يا من تتبعني ، صامتاً ، منسرق الخطأ ؟
 آه إنني أعلم : تلك هي رغبتك في أن تنهب مني جميع أرباحي .
 لن أخيبك أبداً .
 فقد تبقي شيء ، لدي وقدري لم يختلس مني كلّ شيء .
 عند منتصف الليل ، أدرك بيتي ويدي خاويتان .
 إنك تنتظرين ، بعينين واجلتين ، على بابي ، ساهرة صامته .
 وكعصفورة خجلى ترفرفين حول صدري بوجودٍ مضمّر .
 أجل . أجل يارب . لقد تبقي لي شيءٌ كثير ، فإنّ قدري لم يختلس مني
 كلّ شيء .

٧٢

وفي أيام كلّها عناء متّصل أنشأتُ معبداً ، ولم يكن له أبوابٌ أو نوافذُ ،
 كانت جدرانُه غليظةٌ مبنيةٌ بأحجارٍ ضخمةٍ .
 ونسيت كلّ شيء سواه ، عازفاً عن العالم كلّهُ ، وجعلتُ أتطلّع وأنا
 مستغرقٌ في التأمل ، الى الصّورة التي أقمتها على المذبح .
 وكان الليل حبيساً في الدّاخل دوماً ، تنيره سُرُجُ الزيت الشذي .
 وكان الدخان المتّصلُ المنعقدُ من البخور يملأ قلبي بسحابه . الثقيلة
 ونقشتُ على الجدران ، وأنا ساهر ، رسوماً عجيبةً ذات خطوطٍ ملتاثةٍ
 غريبةٍ ، كصور خيولٍ مجنّحةٍ وزهرٍ بوجوهٍ إنسانيةٍ ونساءٍ بإهابٍ ثعابين .
 ولم يكن في جوانبه منفذٌ يمكن أن يدخل منه تغريدُ العصافير وحفيف
 الأوراق أو ضجّة القرية الكادحة .

وكان صدى الرقى التي كنتُ أرتلها يتجاوبُ ، وحده في الحنايا المظلمة من القبة .

وأضحى فكري حاداً ثابتاً كاللهب الذرب ، وتلاشت حواسي في نشوة . ولم أشعر كيف مرّ الزمن ، حتى انقضت الصاعقة على المعبد ، فانغرس الألم في قلبي .

وتراءى السراج شاحباً والرسوم على الجدران كأنها أحلامٌ مصفدةٌ ، وبدت ، في النور ، خاليةً من المعنى كأنها تود أن تتواري . ونظرت إلى الصورة القائمة فوق المذبح فرأيت إليها تبتسم وتدبّ فيها الحياة بلمسة الله الحيّة ، أمّا الليل الذي حبسته ثمة فقد بسط جناحيه وغاب .

٧٣

إنّ الثروة غير المتناهية ليست بثروتك أيتها الأرض ، يا أمي الصابرة الغبراء .

أنت تكدحين لإطعام أولادك ، ولكنّ الغذاء نادرٌ يسيرٌ .

إنّ الفرح الذي تزجينه إلينا ليس بكامل .

إنّ الدُمى التي تصنعينها لأولادك قصيرةٌ هشةٌ .

ليس في استطاعتك أن تشبعي نهم آمالنا الجائعة ، ولكن أجفوك وأهجرك من أجل ذلك ؟

إنّ ابتسامتك المظلمة بالألم هي عذبةٌ في عيني .

إنّ حبك الذي لا يعرف الانتهاء هو أقدس ما فينا .

لقد غذّانا صدرك حياةً لاخلودا ، وبهدا فإن عينيك ساهرتان دوماً .

منذ العصور الخوالي وأنت تنسجين اللون واللحن ، ومع هذا فإنّ جنتك

لم تقم بعد . إن هي إلا إيحاءٌ حزينٌ .

إِنَّ كُلَّ مَا أَبْدَعْتَهُ مِنْ طَرْفِ الْجَمَالِ مَغْلَفٌ بِضَبَابٍ مِنَ الدَّمُوعِ .
سَوْفَ أُرِيقُ أَغْنِيَاتِي فِي قَلْبِكَ الضَّامِتِ وَأُرِيقُ حَبِّي فِي حَبِّكَ .
سَوْفَ أَعْبُدُكَ فِي الْكَدِّ وَالْعَنَاءِ .

لَقَدْ لَمَحْتُ مَحْيَاكَ الْحَنُونِ ، وَإِنِّي لِأَعْشُقُ تَرَابِكَ الْبَاكِي ، أَيْتَهَا
الْأَرْضُ ، يَا أُمِّي .

٧٤

فِي مَحْفَلِ الْكُونِ ، يَقِفُ الْعُودُ الصَّغِيرُ مِنَ الْعُشْبِ عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ مِنْ
أَشْعَةِ الشَّمْسِ وَنَجُومٍ مُنْتَصِفِ اللَّيْلِ .
وَلِهَذَا فَإِنَّ أَغْنِيَاتِي تَلْتَمِسُ أَمَكْنَتَهَا فِي قَلْبِ الْكُونِ مَعَ مُوسِيقَا الْغُيُومِ
وَالْغَابَاتِ .

وَلَكِنْ ثَرُوتُكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ الْغَنِيِّ لَيْسَ لَهَا نَصِيبٌ فِي الْعِظْمَةِ الْبَسِيطَةِ
الْمُتَرَقِّقَةِ مِنْ ذَهَبِ الشَّمْسِ الْجَذَلِيِّ ، وَلَا فِي الْأَشْعَةِ الطَّرِيَةِ الْمُنْشَالَةِ مِنْ
الْقَمَرِ الْمَفْكَّرِ .

إِنَّ بَرَكََةَ السَّمَاءِ الَّتِي تَعَانِقُ كُلَّ شَيْءٍ لَا تَطْلُلُ ثَرُوتَكَ هَذِهِ .
وَحِينَ يَدْرُكَكَ الْمَوْتُ ، فَإِنَّهَا تَشْحَبُ وَتَذْوِي وَتَتَفَتَّتُ فِي التَّرَابِ .

٧٥

عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، هَتَفَ رَجُلٌ يَتَشَوَّفُ إِلَى أَنْ يَصْبَحَ نَاسِكاً :
« لَقَدْ أَزِفَ الْوَقْتُ الَّذِي أَهْجُرُ فِيهِ بَيْتِي ، بَحْثاً عَنِ اللَّهِ ، آه ، مِنْ شِدَّتِي
إِلَى هُنَا ، بَيْنَ الْأَوْهَامِ زَمَناً طَوِيلاً » ؟ .
وَهَمَسَ اللَّهُ : « أَنَا » . بَيِّدَ أَنْ أُذْنِي الرَّجُلَ كَانَتَا مَوْقُورَتَيْنِ .

وكانت زوجه مضطجعةً على السرير ، الى جانبه ، في دعةٍ واطمئنانٍ ،
وعلى صدرها يغفو طفلاً صغير .

وقال الرجل : « من أنت يا من مكرتَ بي ملياً » ؟
وأجاب الصوت قائلاً : « هو الله » ولكن الرجل لم يسمع قط .
وبكى الطفل في حلمه وتجمعَ قريباً من أمه .
وأمر الله قائلاً : « قف أيها المخبول ، لاتهجر بيتك » . ولكن الرجل لم
يسمع أيضاً .
وتنهّد الله وقال في أسى : « لماذا يحسب عبدي وهو ينأى عني أنه
يبحث عني ؟ » .

٧٦

كانت سوق المعرض قائمةً أمام المعبد ، وكان المطر لايني يهطل منذ
الصباح الباكر ، وكان النهار قد جنح الى الزوال .
وكانت هناك ابتسامةٌ أكثر تألقاً من جذل جموع الناس كلّهم ، ابتسامة
طفلةٍ صغيرةٍ اشترت بدرهمٍ صفّارةً من سعف النخل .
وكان الصوتُ المرحُ المنسربُ من هذه الصفّارة يطفو على كلّ ضحكةٍ
وضجةٍ .

وقدم جمعٌ غفيرٌ من الناس وأخذ يتدافع ويזحم بعضه بعضاً ، وكانت
الطريق وحلةً ، والنهر طافحاً والسهل مغموراً بماء المطر المنهمر المتّصل .
وكان هناك غمٌ أكبر من غموم الناس كلّهم ، غمٌ طفلي صغيرٍ لم يكن
لديه درهمٌ يشتري به قصبَةً ملوّنةً .

وكانت عيناه القلقتان المتطلّعتان الى المخزن تبعثان الشفقة في قلوب
حشد الناس كلّهم .

إن العاملَ وزوجَه القادمين من غرب البلاد مشغولان بالحفر وبصنع
القرميد ، بغيةَ بناءِ الفرن .

وتردُ طفلتُهما الصغيرةُ ضِفَّةَ النهر حيثُ لاتني تغسل القدر والواني
ويتبعها أخوها الصغير الحليقُ الشعرِ الأسمر العريان الملطَّخ بالوحل ثم
يجلس على الضِفَّة العالية ، وينتظر صابراً ، دعوتها للعودة .

وتؤوب الطفلة الى البيت ، حاملةً على رأسها جرةً مملوءة ، ممسكةً بيدها
اليسرى قدراً نحاسيةً براقَةً وباليمنى يدَ الطفل - إنها البنت العطوف التي
تخدم أمها ، البنتُ الرزانُ التي تأخذ على عاتقها النهوض بأعباء البيت .
ولمحت ذات يوم ، الطفلَ العريان جالساً ، باسطاً ساقيه على الأرض ،
وكانت أخته في الماء تفرك ، بقبضة من التراب كوباً ، ثم تقلِّبه وتديره .
وبدا قريباً منهما خروفٌ ناعمُ الجِزَّة يرفعُ العشب على شط النهر .
واقترب من الطفل القاعد ، وفجأة جعل يثغو ثغاءً عالياً ، فارتعدت
فرائص الطفل وأنشأ يبكي .

وتركت أخته غسلَ كوبها وخفَّتْ إليه .
وأحاطت أخاها بذراعٍ والخروف بذراعٍ ووزعت بينهما ملاطفتهما .
جامعةً في الرابطة نفسها من الحنان ، ولد الحيوان وولد الإنسان .

كان ذلك في شهر مايس وكان قيظُ الظهيرة يبدو متصلاً لا ينتهي ،
وكانت الأرض الجافة تلهث في الحر ظمأً ، حين سَكَ سمعي صوتٌ ينادي من
عدوَّةِ النهر المقابلة : تعالَ يا حبيبي .

وأغلقت كتابي ، وفتحت النافذة مستطلعاً فرأيت ثوراً قريباً من ضفة
النهر ، ملطخ الأطراف بالطين ، وهو ينظر بعينيه الصابرتين الوديعتين ،
ولمحت طفلاً يخوض في الماء إلى الأثركبتين يناديه ليغسله .
وابتسمت ، مستظرفاً منظرهما ، وشعرت بعذوبة تنسم في قلبي .

٧٩

أسائل نفسي غالباً : ترى الى أي مدى خفي يستطيع الإنسان والحيوان
الأعجم الذي لم يؤت الكلام ، أن يتعرف الواحد منهما الآخر ؟
ترى في أي فردوس بدائي من فجر الخلق القديم تسعى تلك الدرب
البسيطة التي يتجاوز فيها قلباهما ؟
إن آثار اتحادهما الدائم لم تمنح رغم أن قرابتهما قد عفاها
النسيان .

وعلى حين غرة تستيقظ الذكرى المبهمة ، في موسيقا لا ألفاظ فيها
ويرامق الحيوان محيا الإنسان في طمأنينة ، ويحدر الإنسان بصره الى عيني
الحيوان ، في حنانٍ مستظرف .
ويبدو الصديقان وكأنهما يلتقيان متنكرين ، وكأن الواحد منهما
يتعرف رغم تنكره ، صديقه الآخر .

٨٠

أيتهما المرأة الحسنة . بنظرة من عينيك ، قد تستطيعين ، أن تجني كنز
الأغاني التي تهزجُ بها معازفُ الشعراء .
ولكنك لاتصيخين الى تشبيههم بك ، ولهذا جئتُك مادحاً .

قد يكون في ميسورك أن تجعلني أكثر الرؤوس اختيلاً في الكون خاضعةً بين قدميك .

بيد أن الذين تؤثرينهم لعبادتك بين محبيك هم العاطلون عن المجد ، ولهذا فإنني أعبدك .

إن ذراعيك الكاملتين قد تقررنا المجد الى الجلال الملكي بلمسةٍ منهما .

ولكنك تستخدمينهما لكس الغبار وتنظيف بيتك المتواضع ، ولهذا فإنني أجلهما وأهابهما .

٨١

آه ، أيتها المنية ، يامنيتي ، لم تهمسين همساً خفيضاً في أذني ؟
حين يذبل الزهر ، في المساء ، ويعود القطيع الى مراجه ، فإنك تقدمين ، خلصةً ، الى جانبي وتحدثين إليّ حديثاً لا أفقه معناه .

أتأملين في أن تغازليني وتكسبي ودي بهمسك المخدر المنوم وقبلاتك الباردة ، آه ، أيتها المنية ، يامنيتي ؟
ترى أيقام احتفالٌ زاهٍ لعرسنا ؟

ألا تنوطين بخصلات شعرك الوحف^(١) المصفّف طوقاً من الزهر ؟
أوجد من يحمل رايتك أمامك ؟ ألا يتلظى الليل ناراً بشعلاتك الحمر المضيئة ، أيتها المنية يامنيتي ؟

تعالني ، على هزج قواقعك ، تعالي في ليلة مؤرقة .
زمليني بمعطفك القرمزي ، وشدي على يدي ثم خذيني .

(١) الوحف : الشعر الكثير الأسود الحسن .

أعذّي أمام بابي مركبتك بجيادها التي تصهل ، نافذة الصبر ؟
احسري قناعي ثم انظري ، في خيلاء ، إلى وجهي ، أيها المنيّة ،
يامنيّتي .

٨٢

سندهب ، أنا وزوجيّ الصبيّة ، الليلة ، لنلعب لعبة الموت .
الليل داج ، والغيوم في السّماء ملولٌ متقلّبةٌ ، وأمواجُ البحر مثرثرةٌ .
لقد هجرنا فراش أحلامنا وفتحنا الباب على مصراعيه ، وخرجنا ، أنا
وزوجي .
وركبنا أرجوحةً ودفعتنا ريحٌ صرصرٌ ، من خلف ، دفعةً ضارية .
وانتصبت زوجي ، فجأة ، في خوفٍ تمازجه لذّة ، وارتجفت ثم تعلّقت
بصدري .
وجعلت أغازلها ، في حنانٍ ، أمداً طويلاً .
وسوّيت لها فراشاً من الزّهر ، وغلّقت الأبواب ، لئلا يعيش النورُ الباهرُ
عينها .
وقبّلتها ، في لطفٍ ، من شفّتها ، وهمست في أذنيها كلماتٍ رقيقةً
حتّى كادت تتلاشى فتوراً .
وغابت في ضبابٍ مستديمٍ من العذوبة المبهمة .
ولم تجب عن لمسة راحتي ، وانسابت أغنياتٍ لتوقظها .
لقد قدم إلينا الليلة ، نداء العاصفة الضارية .
وارتعشت زوجي ونهضت وتشبّثت بذراعي ثم خرجنا .
وماج شعرها في الريح وخفقَ خمارُها ، وارتعش طوق الزهر فوق
صدرها .

إن دفعة الموت ألقت بها في أرجوحة الحياة .
وها نحن أولاء ، وجهي قبالة وجهها ، وقلبي أمام قلبها ، أنا وزوجي .

٨٣

كانت تسكن ، في سفحِ الرابيةِ ، الى جانبِ حقلٍ من الذرة ، قريباً من
النبع الذي يتفجّر جداول ، ضاحكةً ، متفينةً الظلالَ المهيبية من الأشجارِ
الهرمة ، وكانت النساء يردنه ليملأن جرارهن ، وكان المسافرون
يستمرنون الجلوس ثمة ، ليستريحوا ويتجاذبوا أطراف الأحاديث ، هناك...
كانت تعمل وتحلم ، كلّ يوم ، على هدير الماء المنبجس المتفجّر .

وهبط ، ذات مساء ، رجلٌ من شعفة جبلٍ ملتمع بالغيوم ، وكانت
خصلاتُ شعره مجدولةً كأنها ثعابينٌ ضخمةٌ ، وسألناه ، وقد أخذنا العجب...!
« من أنت ؟ » . فلم يحر جواباً ، بل جلس الى جانب الجدول المثرثر وأخذ
يجيل نظراته ، صامتاً ، في الكوخ الذي كانت تسكن فيه ، وألمّ بقلوبنا
الخوف ، فعدنا الى البيت ، والليل مرخٍ سدوله .

وفي صباح اليوم التالي ، حين وردت النساء النبع ، ليسقين الماء قرب
أشجار (الديودار) ألفين أبواب كوخها مفتوحةً ، ولم يعد صوتها يتجاوب في
حناياها ، ترى أين وجهها المبتسم ؟

وكانت الجرة الفارغة تتوسد الأرض ، والمصباح قد استنفد نوره في
ركن الحجرة ، ولم يعلم أحدٌ الى أين هربت قبل منبلج الفجر ، وكان الرجل
الغريب قد مضى أيضاً .

وفي شهر مايس أضحت الشمسُ لاهبةً ، وذاب الثلج ، واتخذنا مجلسنا
قرب النبع ، وبكيننا وجعلنا نتساءل : تُراها تجد في البلد الذي فزعت إليه
نبعاً تملأ منه جرّتها ، في هذه الأيام القائظة اللاهثة ظمأً ؟

وكان الواحد منا يسأل الآخر في جزعٍ ، تُرى أيوجد بلد خلف هذه
الربى التي نعيش في جنباتها . ؟
وكانت ليلةً من ليالي الصيف ، وكان النسيم يهبُّ من الجنوب ، وكنت
جالساً في حجرتها المهجورة ، حيث كان المصباح المنطفئ قابعاً ، حين
انزاحت الربى أمام عيني ، فجأةً ، وكأنها ستائرُ قد انحسرت ، آه ، ها هي
ذي قادمة . كيف حالك يابنيتي ؟ أنت سعيدة ؟ كيف يتاح لك أن تتفيني
ملاذاً لك تحت منفسح السماء ؟ وأسفاه إن نبعنا لايتسلسل ، ثمة ، لينقع
ظمأك .

وأجابت : «ههنا ترتفع السماء نفسها ، بيد أنها حرةٌ من مناخية الربى
لها ، ههنا الجدول نفسه الذي يكبر ويحور نهراً ، ههنا الأرض نفسها التي
تتسع وتنبسط سهلاً» .

وأجبت متنهّداً : «هنا يوجد كل شيء ، ولكننا لسنا هنا» .

وابتسمت في أسى وقالت : «إنكم في قلبي» .

واستيقظتُ وسمعتُ ثرثرة الجدول وهمس شجرة (الديودار) في الليل .

٨٤

فوق حقول الأرز الخضراء والصفراء ، تترادف ظلال غيوم الخريف التي
تطاردها الشمس المغدّة في السير .

وتنسى النحللات أن ترتشف رحيقَ الزهر المعسول وترفرف وتأخذ في
الطنين ، مجنونة ، سكرى بوهج النور .

وفوق جزر النهر تزقو البطّات فرحاً ، دون أن تعلم ههناها .

ياإخواني ، ليمسك كل واحد منكم عن العودة الى البيت ، في هذا

الصباح .

فلنفتّح السّماء الزرقاء بزوبعة ، لننهب الأرض نهباً ، ونحن نغدو .
وتطفو الضحكة في الفضاء كأنها الزبد فوق الماء .
ياإخواني لنبدّد صباحنا ، في أغنياتٍ تافهةٍ .

٨٥

من أنتَ ، أيّها القارىء ، أنتَ الذي سوف تقرؤني ، بعد مائة عام ؟
ليس في مكنتي أن أبعث بزهرةٍ واحدةٍ من هذا الإكليل الربيعي ،
ولابشعاعٍ مذهبٍ واحدٍ من تلك السحب هناك .
افتح الأبواب وتأمّل في المدى القصي .
واجن من حديقتك المزاهرة ، الذكريات العاطرة الفاغمة من الزهر
المصوّح منذ مائة عام .
فقد يكون في ميسورك أن تشعر ، والسرور يملأ عطفيك ، بالفرحة
الحية التي تغنّت ، ذات صباح ربيعيّ مريقةً صوتها الهنيء ، عبر مائة عام .

العلا

البيت^(١)

سلكْتُ وحدي الدرب الممتدَّة في الحقل ، فيما كانت الشَّمس الآفلة
تبدو كبخيلٍ وهي تلملم آخر أشعتها الذهبية .
وكان النهار يغيب ، شيئاً فشيئاً تحت جناح الدجى ، وكانت الأرض
الجرداء ، تنبسط ، إثر الحصاد ، صامتةً .
وتعالى الى السماء ، بغتةً ، صوتٌ حاد ، صوت طفل كان يدلج في
الظلمة ، مخلفاً أثر أغنيته في هدأة المساء .
وكان بيته في القرية قائماً هناك ، في نهاية الأرض المبهمة ، وراء حقل
قصب السكر ، مختبئاً بين أفياء أغصان الموز وسعف النخل الهندي الوانية
وأشجار جوز الهند والجاك ذات الثمار الحائنة الخضرة^(٢)
وتوقفت هنيهة ، في دربي المنعزلة ، تحت ضوء النجوم ، وأجلت بصري

(١) في هذه المجموعة الشعرية ، ثلاث قصائد هي : (على الشاطئ) و (النبح) و (متى ولماذا) ، لم نشأ
إيرادها . هنا ، لورود هذه القصائد نفسها في المجموعة الشعرية (جيتجاللي) حاملة الأرقام : ٦٠ ،
٦١ ، و ٦٢ (المعرب)

(٢) الخضرة الحائنة : الشديدة الضاربة إلى السواد .

في الأرض المظلمة ، تحضن بذراعيها شتيت البيوت العامرة بالأسرة
والمهود ، الأهلة بقلوب الأمهات ومصابيح المساء ، الزاخرة بنفوس فتية
تمتلىء ، أعطافها بفرح لا يعلم نفسه ، مدى قيمته لهذا الكون .

درب الطفل

يتأتى للطفل أن يطير الى السماء ، إمّا جاذبته هذه الرغبة . ولكنه
لا يفعل لأنّ لديه ما يحمله على ألا يغادرنا . أجل ، إنه ليحب أن يوسد رأسه
ثدي أمّه ، ولا يقوى البتّة على رؤيتها تغيب عن ناظريه .

إنّ الطفل الصغير يحيط بجميع ضروب الكلام السديد ، غير أنّ الذين
يدركون معناها في الأرض قلائل .

فليس عبثاً ألا يرغب في الكلام .

إنه الشيء الوحيد الذي يتشوّف إليه هو أن يتلقّن كلمات أمّه من
شفتيها ، ولهذا يتراءى بريئاً نقياً .

إنّ في حوزة الطفل الصغير أكواماً من الذهب واللالى ، ومع ذلك فقد
قدم كشخاذاً الى هذه الأرض .

إنّ لديه سبباً يحفزه على أن يقدم في هذا التنكر .

أجل ، إنّ هذا الشحاذا الصغير الأثير العريان يصطنع العوز الشديد
ليتيسّر له أن يطالب أمّه بكنز حبّها .

لقد كان الطفل الصغير حرّاً من أي رباط في هذه الأرض التي يتسامى
فوقها الهلال الصغير .

فليس عبثاً أن يتخلّى عن حرّيته .

أجل ، إنه ليعلم أنّ ثمة مكاناً زاخراً بفرحة ثرة ، يتسّق في ركنٍ
صغيرٍ من قلب أمّه وأنه لأشهى لديه من الحرّية نفسها . أن تشدّه أمّه

وتضمّه بين ذراعيها الحبيبتين .

لم يكن الطفل يعرف البكاء ، كان يسكن أرض الغبطة الكاملة ، فلديه سبب يحمله على ذرف الدموع . أجل ، رغم أنه يداعب بابتسامة من وجهه الحبيب أوتار قلب أمّه ، فإنّ نشيجه الرقيق المنبثق من آلامه الصغيرة ، هو الذي ينسج بينه وبين أمّه رباطاً مزدوجاً من الحب والرحمة .

الموكب الخفي

إيه يا طفلي ، ترى من الذي لوّن ثوبك الصغير وغطّى أطرافك الغضة بهذا النفاض^(١) الصغير الأرجواني ؟

لقد خرجت صباحاً الى فناء الدار لتلعب فوقعت وتعثّرت وأنت تركض ، ترى من الذي صبغ ثوبك الصغير يا طفلي ؟

ما الذي يحملك على الضحك يابرعم حياتي الصغير ؟
إنّ أمك تبتسم لك وهي واقفة في العتبة ، إنها تصفّق لك ، فتتهزج أساورها ، وترقص أنت وفي يدك قضيب من شجر المامبو ، كأنك راعٍ صغير .
ما الذي يضحكك يابرعم حياتي الصغير ؟ .

إيه أيها الشحاذ ، ماذا تستجدي من أمك وذراعاك تتعلّقان بعنقها ؟
أيها القلب الجشع ، هل تودّ أن أقطف لك الكون من الفضاء ، كما أقطف ثمرة ، لأضعه في راحتك الصغيرة المورّدة ؟
إيه أيها الشحاذ ، ماذا تستجدي ؟

إنّ النسيم يحمل ، في جذلي ، وسوسةً خلخالك . والشمس تُرامق زينتك وهي تبتسم .

(١) النفاض : أزار الصبي .

إنّ السماء تحنو عليك ، ساهرةً ، حين تغفو بين ذراعي أمك ويقدم
الصباح ، منسرق الخطأ ، الى سريرك ليثم عينيك .
ويحمل النسيم ، في جذلٍ ، وسوسةً خلخالك .
إنّ الجنّة ملهمة الأحلام قادمة اليك ، وهي ترفرف عبر الغروب ، في
السماء .
إنّ الذي يعزف موسيقاه للنجوم ، هو قائمٌ الى جانب نافذتك ، يحمل نايه .
وتقبل اليك الجنّة ملهمة الأحلام ، وهي ترفرف ، عبر الغروب ، في
السماء .

سارقة النوم

من الذي اختلس النوم من عينيّ الطفل الصغير ؟ يجب أن أعلم .
لقد اتخذت أمّه أدراجها الى القرية لتستقي من الماء ، مسندةً جرتها
الى خصرها .
وكان الوقت ظهراً ، وكان الأطفال قد استوفوا لعبهم ، وكان البط ، في
الغیضة ، صامتاً .
وكان الراعي الفتى قد أخذ الى النوم متفياً شجرة (البانيان) .
وانتصب الكركي هادئاً زميئاً ، في البركة ، قريباً ، من أجمة شجر
العنباء (المانجو) .
في تلك الأثناء ، قدمت سارقة النوم ، وسلّت الغفوة من عينيّ الطفل
الصغير ثم طارت .
ولمّا آبت الأم الى البيت ألقت الطفل يحبو على أربع في أركان الغرفة .
تُرى من الذي اختلسَ النوم من عينيّ الطفل الصّغير ؟ ينبغي أن أعلم ،
يجب أن أعثر على السارقة وأكبّلها .

عليّ أن أنظر في ذلك الغار المظلم ، حيث ينساب جدولٌ صغير بين
الحصى والصّخور الداكنة .

عليّ أن أبحث بين الظلال المهيّمة في حرج شجر (الباكولا) حيث يهدل
الحمام في مجاثمه وحيث تهزج خلاخيل الجن ، في الليالي المتلامحة
النجوم .

وفي المساء سوف ألّوب عليها خلال الصمت الهامس المخيم في غابة
المامبو حيث تريقّ اليراعات^(١) نورها وسوف أسأل المخلوقات التي ألتقي
بها : هلاً ذكرت لي أين تقيم سارقة النوم ؟

من الذي اختلس النوم من عينيّ الطفل الصغير ؟ ينبغي أن أعلم .
تُرى يجب أن ألّقنها درساً مفيداً إن تيسّر لي أن أمسك بها ؟
سوف أنقضّ على عشّها لأرى أين تكدّس ما اختلست من الكرى .
سوف أثقّ جناحيها بقسوة وأضعها على ضفّة النهر ، ثمّ أدعها تلعب
بقصبة صيد بين فسائل النيلوفر .

وفي المساء حين ينتهي البيع ، ويفزع الأطفال إلى أحضان أمهاتهم
فإنّ طيور المساء سوف تصمّ أذانهن وهي تردّد ساخرة : تُرى من الذي
تختلسين كراه الآن ؟

البداية

سأل طفلٌ صغير أمّه : من أين أتيت ؟ وأين ظفرت بي ؟
وأجابت أمّه ، يتجاذبها ضحكٌ وبكاء ، ضامّة طفلها إلى صدرها : لقد
كنت مختبئاً في قلبي ، كنت رغبته يا حبيبي .

(١) اليراعة : ذبابة تضيء وهي تطير في الليل .

كنتَ بين دُمى طفولتي ، وفي كل صباح ، حين كنتُ أسوي من الصلصال تمثالَ ربّي فقد كنتُ أنتَ الذي أسويهِ ثم أنقضه .

كنتُ فوق المذبح الى جانب نصب بيتنا ، وكنتُ أعبدك ، فيما كنتُ أتجه إليها بعبادتي .

لقد عشتَ في جميع تَعِلّاتي ووجدي ، عشتَ في حياتي ، في حياة أُمّي .

إنّ الروح الخالدة التي ترعى بيتنا قد غذّتك ، العمرَ كلّهُ ، من ثديها .

وحين كان قلبي يفتح ، في ريق صباي ، أفواههُ ، فقد كنتُ تغلّفني كالشذا الفاغم منه .

إنّ عذوبتك الناعمة كانت تترقرق في أطرافي الفتية ، كأنها الألفة التي تسبق منبلج الفجر في السّماء .

أنت يا حبيب السّماء الأوّل ، أنت ياتوأم شعاع الصباح ، لقد جرفك تيّار حياة الكون حتّى رسوت أخيراً في قلبي .

وبينما كنتُ أرامق وجهك ، والغموض يسربلني ، أضحيّتُ أنتَ ، يامن تخصّ الجميع ، ملكاً لي .

وخشيّة أن أضيّعك فقد جذبتك وشددتك الى صدري ، تُرى أيّ سحرٍ قد وهب كنز الدنيا لذراعيّ النحيلتين ؟

دنيا الطفل

كم أودّ لو يتأتّى لي أن أتبذ ركناً هادئاً من قلب دنيا طفلي .

إنني أعلم أنّ لهذه الدنيا نجوماً تتحدّث إليه وسماً تتطامن الى وجهه لتسلّيه بقوس قزحها وغيومها العابثة .

إنّ الذين يزعمون أنهم بكُمّ ويصطنعون العجز عن الحركة ، يدلفون ،

خلسةً ، الى نافذته ، ليسردوا له القصص ويزجوا اليه أطباقاً حافلةً بدُمى
براقةٍ .

كم أودّ لو يتأتّى لي أن أسير في الدرب التي يسلكها فكر الطفل الصغير
وأضرب فيها بعيداً ، خلف جميع الحدود .

هناك ، حيث يعبر الرسل ، هائمين ، دون غاية ، في ممالك الملوك
التي لا تاريخ لها .

هناك ، حيث يتخذ العقل من قوانينه دميةً طائرةً ثم يطلقها في الفضاء ،
هناك حيث تحرّر الحقيقة الفعل من أغلاله .

ذم

علام تترقق الدموع في عينيك يا طفلي ؟

ما أجفى طبعهم وهم لا يألون يؤنبونك على تافه الأشياء ؟!

لقد لطّخت بالمداد أناملك ووجهك وأنت تكتب - ألهذا السبب يدعونك
بالقدر ؟

بخ ، بخ ، أيجرؤون على أن يدعوا البدرَ الكامل بالقدر ، لأنّ وجهه
ملطّحٌ بالمداد ؟

إنهم يؤنبونك على تافه الأشياء ، إنهم مستعدّون لإيجاد هفوة لك من العدم .

لقد مرّقت ثيابك وأنت تلعب ، ألهذا السبب يدعونك بالمهمل ؟

بخ ، بخ ، تُرى بماذا يدعون صباحاً خريفياً ، يبتسم من خلال غيومه
المهلّهة ؟

لا تولِ اهتمامك الى قائلتهم ، يا طفلي ، إنهم يعدون ثبثاً طويلاً ينتظم مساوئك .

كلّ إنسان يعلم مدى كلفك بالحلوى ، ألهذا السبب يدعونك بالنهم ؟

بخ ، بخ ، بيم يدعوننا إذن ، نحن الذين نحبك ؟

الحلّة

قُلْ عنه ما يحلو لك ، فأنا أعرف عثرات طفلي .
أنا أحبه لأنه طيب السريرة ، بل لأنه طفلي الصغير . ماذا تستطيع أن تعلم
كيف يتسّق له أن يكون أثيراً لديّ ، حين تحاول أن توازن بين حسناته وسيئاته .
وحين ألجأ الى معاقبته ، فإنه يضحى ، إذ ذاك ، أكبر جزء من كياني .
وحين أجعل دمّوعه تنهمر فإن قلبي يبكي معه .
لي الحق وحدي أن أوّبه وأعاقبه ، فلمن يحب ، الحق ، وحده ، بأن يعاقب .

الدهى

أيها الطفل ، يالهناءك وأنت تقتعد التراب ، لاهياً بغصن قصيف ،
طوال النهار .
إنني أبتسم وأنا أرى إليك تلهو بهذا الغصن القصيف الصغير .
إنني مشغول بإعداد حسابي ، فأظلّ ساعة ، معنياً بجمع الأرقام .
لعلك أن تسارقني النظر ، مفكراً : أيّ غباوة في إفساد صباحك بهذا
الحساب ! .
أيها الطفل ، لقد فقدت فنّ الإهتمام بالعصي والطّين المعجون .
إنني أبحث عن دُمى ثمينّة ، فأنا أحتجن أكواماً من الذهب والفضّة .
إنك تخلق من أيّ شيء تجده دُمى سارّة ، أمّا أنا فإنني أبدد قواي
ووقتي بحثاً عن الأشياء التي لن أستطيع الفوز بها .
إنني أبذل جهدي في عبور بحر اللذات بقاربي الهزيل الصغير وأنسى ،
فيما أقوم بذلك أنني ألهو بدميتي .

الفلكي

لقد اجتزأت بهذا القول : حين يتسلّل البدر المدوّر مساءً بين أغصان شجر (الكادام) تُرى من يقدر أن يمسك به ؟
ولكنّ (دادا) ^(١) سخر منّي وقال : لم أرَ ، عمري كلّهُ ، غيباً مثلك ، إنّ البدر لجذّ بعيد عنّا فكيف يمكن الإمساك به ؟
وقلت : يالك من مجنون يا (دادا) أتقدر أن تدّعي بأنّ أمنا بعيدة عنّا حين تُطلّ من النافذة وتبتسم لنا ونحن نلعب في فناء الدار ؟
وأجاب (دادا) : يالك من طفل ساذج ! ولكن كيف تستطيع أن تظفر بشبكة تسع البدر كلّهُ ؟
وقلت : من المؤكّد أنّك تقدر أن تناله بيديك .
وتهانف (دادا) ضاحكاً ، قائلاً : لم أرَ ، عمري كلّهُ ، غيباً مثلك ، لعلّك أن ترى إلى البدر حين يقترب كمْ هو كبير .
وقلت : أيّ هراء تتلقّنه في مدرستك ، أيتراءى وجه أمنا كبيراً حين تنحني لتقبّلنا ؟
وردّد (دادا) قائلاً : يالك من طفلٍ ساذج !

غيوم وأمواج

— أمّاهُ ، أولئك الذين يعيشون بين الغيوم يهتفون لي إنّنا نلعب منذ يقظتنا حتّى ينتضي النهار .

(١) (دادا) : الأخ الأكبر في اللغة الهندية .

إننا نلعب مع الفجر الذهبي ونلهو مع القمر الفضّي .

وقلت : كيف أستطيع أن أصل إليكم ؟

فأجابوا : تعال الى طرف الأرض ، وارفع يديك نحو السّماء ، فلسوف تحملك الغيوم .

وقلت : إنّ أمّي تنتظرني في البيت ، فكيف أقوى على مغادرتها والمجيء إليكم ؟

حينذاك ابتسموا ومضوا طائرين .

ولكنني أعرف لعبة أمتع من هذه اللعبة يا أمّي : سوف أمثّل أنا دورَ السحاب وتمثّلين أنتِ دورَ القمر ، سوف ألّك بيدي الاثنتين ، وسوف يمسي سقف بيتنا السّماء الزرقاء .

أولئك الذين يعيشون بين الأمواج يهتفون لي : إننا نغني من الصباح حتّى المساء ونهيم في كلّ مراد . لا ندري أتّى نمر .

وسألت : ولكن كيف السبيل الى الإجتماع بكم ؟

فأجابوا : تعال الى طرف الشّاطئ ، وقف ثمة ، وعيناك مغمضتان ، فلسوف تحملك الأمواج إلينا .

وقلت : إنّ أمّي تنتظرني ، مساءً ، في البيت ، فكيف أقوى على مغادرتها والمجيء إليكم ؟

حينذاك ابتسموا ورقصوا ثمّ مضوا .

ولكنني أعرف لعبة أمتع من هذه اللعبة يا أمّي : سوف أمثّل أنا دورَ الأمواج وتمثّلين أنتِ دورَ الشّاطئ البعيد .

سوف أتقلّب ثمّ أتقلّب حتّى أمسَ ركبتك ، مرسلًا ضحكتي . ولن يعلم إنسان ، في الأرض ، مكاننا ، أبداً .

زهرة الشامبا

افتراضي أنني انقلبت ، طلباً للدعابة ، وُحِلَّت الى زهرة (شامبا) ،
ونموت عالياً فوق غصن من هذه الشجرة ، وجعل التّسيم يهزّني وأنا أضحك
وأرقص فوق تفرّتها^(١) الغصّة ، تُراك تتعرّفين عليّ يا أمّي ؟
لعلّك أن تنادينني : ياطفلي الصّغير أين أنت ؟ حينذاك سوف أضحك
وَحدي وألزم الهدوء .

سوف أفتح ، خلّسةً ، أفوافي وأراقبك وأنت منصرفة الى عملك .
وحيث تمرّين ، في ظلّ شجرة (الشامبا) ، إثر استحمامك ، وتّخذين
سمّك ، وشعرك المبتل مرسلٌ على كتفيك ، نحو القاعة الصغيرة التي تلهجين فيها
بصلواتك ، فلعلّك أن تتسمّي شذا الزهرة ، ولكنّك لن تعلمي أنه يَضُوع منّي .
وحيث تتّخذين مجلسك الى جانب النافذة ، بعد طعام الغداء ، لتقرّأي
في كتاب (الرامايانا) ، وظلّ الشجرة يتنقّل بين شعرك وركبتك فلسوف أريق
ظليّ الصغير فوق صفحة كتابك حيث تقرّأين ، تُراك تحزّرين أنه ظلّ طفلك
الصغير ؟

وحيث تذهبين ، مساءً ، إلى مريض البقر ، ويدك تحمل السراج
المضيء ، فلسوف أتهاوى ، فجأةً ، على الأرض ، وأحول ، مجدّداً ، إلى
طفلك الصغير ، وأستعطفك لتروي لي حكاية :

- أين كنتَ ياطفلي العاصي ؟

- لا أريد أن أذكر لك ذلك يا أمّي .

لعلّ هذا ما قد نردّده كلانا ، آنذاك .

(١) التفرّة : أول ما يبدو من ورق الشجر .

أرض الجد

إذا علم الناس أين يقوم قصر الملك ، فسرعان ما يغيب في الفضاء .
إنّ جدران مشيّده بالفضة وسقفه مبني بالذهب البراق .
تسكن الملكة قصراً ذا سبعة أفنية ، وتُزهى بجوهره ، ثمنها ثروة سبع ممالك .

ولكن دعيني أهمس في أذنك يا أمّي وأسألك : أين قصر ملكي ؟
إنه في ركن من سطح بيتنا ، هناك ، حيث يقبع أصيص نبات (التولسي) .
الأميرة ترقد ، مضطجعة ، على الشاطئ البعيد ، شاطئ البحور السبعة ، الممتنعة العبور .

ليس ثمة إنسان ، في الدنيا ، سواي ، يتأتى له أن يجدها .
تردان ذراعاها بالأساور وتعلّق بأذنيها لؤلؤتان ، وينحدر فرعها ،
متموّحاً ، حتّى يلامس الأرض .
سوف تستيقظ حين أمسّها بمخصرتي السحرية ، ولسوف تتهاوى
جواهر من شفقتها ، حين تبتسم .

ولكن دعيني أهمس في أذنك يا أمّي لأذكر لك بأنّها هناك في ركن من
سطح بيتنا حيث يجثم أصيص نبات (التولسي) .
حين يأزف الوقت الذي تردين فيه النهر لتغتسلي ، فاصعدي الى
السطح .

سوف تجدني أُلزم ركناً منه ، هناك ، حيث تتلاقى ظلال الجدران .
لقد أتيح للهرة الصغيرة وحدها ، أن ترافقني ، لأنها تعلم أين يسكن
الحلاق ، في الحكاية .

ولكن دعيني أهمس في أذنك يا أمي لأذكر لك أين يسكن الحلاق في الحكاية .

إنه مقيم ، في ركن السّطح ، حيث يجثم أصيص نبات (التولسي) .

أرض المنفى

أمّاه لقد أربد النور في السماء ، ولا أعلم ماهو الوقت .

لقد برمت بلعبي ، ولهذا فقد قصدتك . اليوم هو السبت ، يوم عطلتنا .
دعي عملك يا أمي ، تعالي اجلسي هنا ، قرب النافذة ، وقولي لي أين تمتد صحراء (التيابنتار) التي ذكرتها الخرافة .

إن ظلّ المطر قد غطّى كلّ منفسح السماء .

البرق الضّاري يمزّق بمخالبه الفضاء .

وحين تهدر الغيوم ويتهزّم الرعد ، فإنني أحبّ أن أشعر بوجيب قلبي الخائف وأن أتعلّق بك .

وحين يسحّ المطر الغزير طوال ساعاتٍ ، فوق أوراق المامبو وتهتزّ نوافذنا وتضجّ ، إمّا جاذبتها الرياح ، فإنني أوتر أن أمكث في الغرفة ، ملتزماً جانبك ، وأنت تتحدثين لي عن صحراء (التيابنتار) التي ذكرتها الخرافة .

ترى أين تمتد يا أمي ؟ على شاطئ أي بحر ؟ في سفح أي ربوة ؟ في مملكة أي ملك ، تُراها تنبسط ؟

- هناك حيث لاتلفي وشيعاً يفصل بين الحقول ولا درياً تنساب فيها ،
درباً تقود الفلاحين الى قريتهم ، مساءً ، أو تقود المرأة حمالة الحطب اليابس ، من الغابة الى السوق . هناك حيث تمتد الرمال ، ينجم في مواضع منها عشبٌ أصفرُ وتنتصب شجرة واحدة عشش فيها عصفوران حكيما
عجوزان ، أجل هناك ، تنبسط صحراء (التيابنتار) .

في ميسوري أن أتخيل كيف يمتطي ابن الملك ، في يوم غائم كهذا اليوم ،
سهوة جواده الرمادي ليجوز الصحراء وحده . بحثاً عن الأميرة المضطجعة
الحبيسة في قصر المارد الجبار ، القائم على حيد هذا الماء المجهول .

وحين يحبو ضباب المطر الى الفضاء القصي ، وينقصر البرق كأنه وخزة
الألم المداهم ، تراه يفكر في أمه المسكينة التي هجرها الملك ، في أمه التي
تنظف الحظيرة وهي تكفكف دمعها ، فما يخبُّ به جواده في صحراء
(التيابنتار) التي ذكّرتها الخرافة .

انظري يا أمي ، يكاد الظلام أن ينتشر ، قبل أن يتجرّم النهار ، هناك في
درب القرية لايسعى أيّ مسافر .

لقد عاد الراعي الفتى من المرعى مبكراً ، وغادر الرجال حقولهم
ليجلسوا فوق شباكهم ، تحت طنوف أكوأخهم الصغيرة ، وهم يجيلون
أبصارهم في السحب المتوعدة .

أمّاه ، لقد تركت كتبتي على الرف ، حنانيك ، لا تسأليني ، اليوم ،
إعداد دروسي .

حين أضحي كبيراً كأبي ، سوف أتعلّم كلّ مايجب أن أعرف .
ولكن اذكري لي ، اليوم فقط ، أين تمتد صحراء (التيابنتار) .

اليوم المطير

تجمعت غيوم مكفهرة ، في خفة فوق طرف الغابة المظلم .
إيه ياطفلي إياك أن تخرج .

إنّ أشجار النخل المصطفة على شاطئ البحيرة ، تتحدر بذراها السماء
العابسة وتفيء الغربان ذات الأجنحة المتسخة إلى الصمت فوق أغصان
الحناء ، وتخيم ، على الضفة الشرقية ، ظلمة داجية .

إن بقرتنا المربوطة بالوشيع تخور خواراً عالياً .

إيه ياطفلي ابقَ هنا ، ريثما أقودها إلى الحظيرة .

ويتدافع الرجال مزدحمين إلى الحقل المغمور بالماء ، بحثاً عن الأسماك المنزلة من البرك الطافية ، ويجري الماء المجتمع من المطر ويتفطر إلى سواقٍ منسربة في حدور ضيقة فكأنه طفل ضاحك قد فصل عن أمه وعدا أمامها مازحاً معابثاً .

إصغ إنني أسمع صوتاً يهتف بملاح المعبر^(١) .

إيه ياطفلي لقد غلبت العتمة ، ولم يعد العبور بالمركب متاحاً .

وبدت السماء تركض^(٢) المطر الجامحة المجنون السريع ، وتراءى النهر الهادر نافذ الصبر ، وصدرت النساء ، عجالي ، من نهر الغانج ، بجراهن الملاى .

ينبغي أن تعد سُرُج المساء .

إيه أيها الطفل إياك أن تخرج .

إن الطريق المفضية إلى السوق مقفرة والدرب المحاذية للنهر زلقة والريح تزمجر هائجة ، بين أغصان المامبو كأنها طريدة ضارية قد وقعت في شبكة .

زوارق ورقية

يوماً بعد يوم ، أدفع بزوارقي الورقية ، واحداً إثر واحد ، في الجدول الجاري .

لقد كتبت عليها ، بأحرف سنود كبيرة ، اسمي واسم القرية التي أسكن فيها .

(١) المعبر : المركب الذي يعبر به .

(٢) ركض الفارس الجواد : استحثه للعدو .

آملاً أن يلقاها إنسان في أرض غريبة ما ، ويعرف منها من أنا .
لقد أوسقت زوارقي الصغيرة بزهور (الشيولي) المقطوفة من حديقتنا ،
آملاً أن يتاح لهذه الزهور ، زهور الفجر بأن تنقل غضة ريتاً إلى أرض الليل .
ودفعت زوارقي وشخصت ببصري إلى السماء ، فشمت قزعات من
الغيوم تنصب أشرعتها البيضاء الحذاء .
لأدري أي رفيق لي عابث ، في السماء ، يحدر إلى هذه الغيوم نسيماً ،
لتجري مع زوارقي .

وحين يجن الليل ، فإنني أدفع رأسي بين ذراعي وأحلم أن زوارقي
تمخر ، بعيداً ، بعيداً ، في موهن من الليل تحت أشعة النجوم ، تواكبها
جنيات النوم ، متخذة حمولتها سلالاً ملأى بالأحلام .

الملاح

لقد رسا قارب الملاح (مادهو) في مرفأ (راجكوني) . وكان محملاً
بالقنب ، دون أي طائل ، وظل ، ثمة ، راسياً عاطلاً منذ أمد بعيد .
كم أود لو أنه يعيرني قاربه فإني أزوده بمائة مجداف وأنصب له خمسة
أشرعة أو ستة بل سبعة .

ولن أقوده إلى أسواق غبية .
سوف أمخر به الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المناسبة في أرض الجن .
أما لا تنتبذي ركنأ ، لتبكي في غيابي .
فلم أذهب مثل (رامشاندر) إلى الغابة ، لأعود منها بعد أربعة عشر
عاماً .

سوف آخذ بمدرجة الأمير في الحكاية ، وأوسق قاربي بكل مايطيب
لي .

سوف أصطحب صديقي (آشو) وسوف نمخر ، والغبطة ملء أعطافنا ،
الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المناسبة في أرض الجن .
سوف ننصب أشرعتنا ، حين يسفر الفجر .
وفي الظهر ، حين يآزف وقت استحمامك في البركة ، نكون قد شارفنا
أرض الملك العجيب .
سوف نجوز مخاضة (تيربورني) وندع صحراء (التيابنتار) خلفنا .
وحين نعود ، فلسوف أجد الظلمة توشك أن تنتشر ، ولسوف أحدثك
عن كل ما شاهدت .
سوف أمخر الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المناسبة في أرض الجن .

الضفة الأخرى

كم أود أن أذهب إلى هناك ، إلى الضفة الأخرى من النهر .
حيث نيطت تلك القوارب بجذوع شجر المامبو ، في صف واحد .
هناك ، يعبر الرجال بقواربهم النهر ، صباحاً ، حاملين على عواتقهم
محاريثهم لحرث حقولهم النائية .
هناك ، يدفع الرعاة قطعانهم الخوّارة ، لتسبح إلى المرعى المجاور ،
من هناك يؤوبون جميعاً إلى بيوتهم مساءً ، تاركين الجزيرة الصغيرة
الكاسية بالعشب تعوي فيها بنات آوى .
أماه هلاً سمحت لي بأن أصبح ، حين أكبر ، ملاح المعبر ؟
يقال إن خلف هذه الضفة العالية ، تتوارى برك عجيبة .
إلى هناك تفرع أسراب البط الوحشي ، إثر موسم الأمطار .
هناك تربو فسائل القصب الكثيفة ، على عذار البرك ، حيث تضع الطيور
المائية بيضها .

هناك ، يخْلَف الدجاج ذو الذيل المتخَلَج ، آثَارَ برائنه الصغيرة ، فوق
الوَحْل النظيف .

هناك تدعو ، في المساء ، الأعشاب السقواء^(١) المتماوجة المتوجة
بالزهور البيضاء أشعة القمر لتسبح فوقها .

أماه ، هَلَا سمحت لي ، بأن أصبح ، حين أكبر ، ملاح المعبر ؟
سوف أُنقل ، من ضفة إلى ضفة ، وسوف يرامقني ، بإعجاب ، صبيان
القرية وبناتها ، وهم يفتسلون .

وحين تستشرف الشمس كبد السماء ويزحل^(٢) الضحى عن مكانه
للظهيرة ، فلسوف أقدم راكضاً إلى أمي وأقول لها : أماه إنني جائع .
وحين ينقضي النهار ، وتجمم الظلال ، تحت الأشجار ، فلسوف أقدم مع
الغروب .

ولن أتركك أبداً ، وأقصد المدينة لأكتدح مثل أبي .
أماه ، هَلَا سمحت لي ، بأن أصبح ، حين أكبر ، ملاح المعبر ؟

مدرسة الزهور

حين تنهزم رعود الغيوم العاصفة في السماء ، وتهطل أمطار حزينان .
فإن الريح الشرقية الرطبة ، تنسم عبر أشجار الخلنج ، وتنفخ في
مزمارها بين أغصان المامبو .

وحينئذ تتفتح أكمام الزهور ، فجأة ، ولا يدري أحد ، من أي مكان قد
وافت وتشرع في رقصها ، فرحةً فوق العشب .
أماه ، أعتقد ، أن للزهور مدرسةً ، في جوف الأرض .

(١) السقواء : الطويلة الساق .

(٢) زحل عن مكانه : زال وتنجى . من فصيح العامية .

إنها تتلقن دروسها ضمن أبواب مغلقة ، وإن رغبت في الظهور قبل
الأوان ، فإن معلمها يلزمها بأن تقف في ركن ما .
وحين يقبل موسم الأمطار ، فإنها تحظى بعطلتها .
إن الأغصان تصطفق في الغابة ، وترتعش الأوراق على هبة الريح
النكباء ، وتصفق السحب المرعدة بأيديها الضخمة .
وتنطلق الزهور الطفلة ، بثيابها ، الصبيغة بالحمرة والصفرة والبياض .
ألا تعلمين يا أمي أن مسكنها في السماء ، حيث تقيم النجوم .
ألم تلحظي كيف تتمنى أن تصل إلى هناك .
ألا تعلمين ما الذي يحفزها على العجلة .
أجل ، في ميسوري أن أحزر لمن تمد أذرعتها : إن لها مثلي أمأ .

التاجر

تصوري يا أمي ، أنك ستلزمين البيت ، وأنني بسبيل الرحيل إلى بلاد
مجهولة .
وتصوري أن زورقي معد في مرساه ، موسق بالحمولة .
والآن ، فكري جيداً يا أمي ، قبل أن تذكر لي ماذا تودين أن أجلبه
لك ، في عودتي .
أتريدين ذهباً ، أكوماً من الذهب ؟
هناك ، على ضفاف الجداول الذهبية ، فإن الحقول حافلة بالحصاد
الذهبي .
وفي ظلال ممر الغابة تتهاوى زهور (الشامبا) الذهبية على الأرض .
سوف أجمعها كلها لك في منات السلال .
أماه . أتريدين لآلئ كبيرة تماثل قطرات غيث الخريف ؟

سوف أبحر إلى شاطئ جزيرة اللؤلؤ .

هناك ، ترتعش لآليءُ براقَةٌ ، في سدفة الفجر ، فوق زهور المرج ،
وتنهمر لآليءُ ، قطرةً ، قطرةً ، على العشب ويتناثر زبد أمواج البحر الهائج ،
لآليءُ ، فوق رمل الشاطئ .

سوف أجلب لأخي زوجاً من الجياد المجنحة ، ليطير بين الغيوم .
سوف أجلبُ لأبي قلماً سحرياً ، يدرج وحده في الكتابه ، دون علم
صاحبه .

لكِ أنتِ يا أمي ، سوف أجلبُ الجوهرة والسفط اللذين بذل سبعة ملوك
ممالكهم ثمناً لها .

٩٥

لو أنني لم أكن طفلك ، يا أمي الحبيبة ، بل كنتُ جرواً صغيراً ، تراكِ
تنهيني قائلةً : مه ، إن حاولتُ أن أكل من صحنك ؟
تراكِ تزجريني ، قائلةً : اذهب ، أيها الجرو الشرير .
على رسلكِ إذن يا أمي ، على رسلكِ ، لن آتي اليك حين تنادينني ، ولن
أدعك تطعميني بعد الآن .

لو أنني لم أكن طفلكِ يا أمي الحبيبة ، بل كنتُ ببغاء صغيرة ، تراكِ
تقيدينني ، خشية أن أطيّر ؟
تراكِ تتوعدينني بإصبعكِ قائلةً : أيها الطائر القبيح الذي لايني ينقر
قيده ، في الليل والنهار .

على رسلكِ إذن ، يا أمي على رسلكِ ، سوف أعدو هارباً الى الغابة ، ولن
أدعك تضميني بذراعيكِ بعد الآن .

نزهة

حين يدوي درداب الطبل^(١) ، في الصّباح ، عشر مرّات ، وأتخذ سمتي الى المدرسة .

فإنني ألتقي ، كلّ يوم ، بالبائع ينادي : أساور ، أساور زجاجيّة .
لاشيء يحمله على حثّ خطاه ، ليس ثمة درب عليه أن يسلكها أو مكان عليه أن يقصده ، أو زمان عليه أن يؤوب فيه الى البيت .
كم أودّ أن أصبح بانعاً ، أسلخ سحابة يومي ، وأنا أجوب الدروب منادياً : أساور ، أساور زجاجيّة .

وحين أعود من المدرسة ، في الساعة الرابعة ، عصراً .
فإنني أستطيع أن أرى من خلف حاجز هذه الدار الى البستانى وهو يحفر الأرض .

إنه يعمل بمسحاته ما يحلو له ويعفّر ثيابه بالتراب ، ليس ثمّ إنسان يؤثّبه إن لوّخته الشمس أو بللته الأمطار .

كم أودّ أن أصبح بستانيّاً ، وأنصرف الى الحفردون أن يثنيني أيّ إنسان .
وحين تنتشر العتمة ، في المساء ، وتبعث بي أمي الى السرير .
فإنني أستطيع أن أرى من نافذة مفتوحة الى العساس^(٢) ، غادياً رانحاً .
الطريق مقفرة مظلمة ومصباح الشارع قائم كأنه عملاق ذو عين حمراء واحدة في هامته .

ويرجّح العساس سراجة ، ويمشي وظلّه يسعى الى جانبه ولايفيء الى سريره ، عمره كلّهُ ، مرّة واحدة .

(١) درداب الطبل : صوته .

(٢) العساس : حارس الليل .

كَمْ أَوْدَ أَنْ أَضْحِي عَسَاساً ، أَجُوبُ الدُّرُوبَ ، طَوَالَ اللَّيَالِي ، وَأَطَارِدُ
بِسِرَاجِي الظَّلَالِ .

المتعالي

أُمَاهُ ، إِنَّ طِفْلَتَكَ لِحَمَقَاءَ ، إِنَّهَا تَبْدُو هُزْأَةً بَعِثَهَا الْوَلِيدُ ، إِنَّهَا لَا تَسْتَتِينُ
الْفَرْقَ بَيْنَ ضَوْءِ الشَّارِعِ وَضَوْءِ النُّجُومِ .

وَحِينَ نَلْهُو بِلَعْبَةِ أَكْلِ الْحَصَى فَإِنَّهَا تَحْسِبُهُ طَعَاماً سَائِغاً وَتَحَاوُلُ أَنْ
تَضَعَهُ فِي فَمِهَا .

وَحِينَ أَفْتَحَ أَمَامَهَا كِتَاباً ، وَأَطْلُبُ إِلَيْهَا أَنْ تَتَعَلَّمَ : آ ، ب ، ج ، فَإِنَّهَا
تَمَزَّقُ بِيَدَيْهَا الصَّفَحَاتِ ، وَتَتَهَانَفُ ضَاحِكَةً ، دُونَ سَبَبٍ ، هَكَذَا تَرِيدُ طِفْلَتَكَ
الصَّغِيرَةَ أَنْ تَتَعَلَّمَ .

وَحِينَ أَهَزَّ رَأْسِي غَضَباً ، وَأَوْنِبَهَا قَانِلاً : أَيَّتُهَا الشَّرِيرَةُ . فَإِنَّهَا تَضْحَكُ
وَتَحْسِبُ ذَلِكَ هُزْلاً .

كَلْنَا يَعْلَمُ أَنَّ أَبِي غَائِبٌ ، وَلَكِنْ ، حِينَ أَنَادِي وَأَنَا أَلْعَبُ : أَبْتَاهُ ، فَإِنَّهَا
تَجِيلُ بَصَرَهَا عَجَباً ، وَتُظَنُّ أَنَّ أَبَاهَا قَرِيبٌ .

حِينَ يَقْدُمُ الْغَسَّالُ بِحَمِيرِهِ لِيَنْقُلَ عَلَيْهَا الثِّيَابَ ، وَأَتَّخِذُ مِنْ حَمِيرِهِ طُلَافاً
لِي ، ثُمَّ أَفْسِرُ لِأَخْتِي أَنَّنِي مَعْلَمٌ مَدْرَسَةٍ ، فَإِنَّهَا تَزْعُقُ ، دُونَ سَبَبٍ ،
وَتَنَادِينِي : دَادَا^(١) .

إِنَّ طِفْلَتَكَ الصَّغِيرَةَ تَرِيدُ أَنْ تَمْسِكَ بِالْقَمَرِ ، إِنَّهَا لَمُضْحِكَةٌ ، إِنَّهَا
تَدْعُو : غَانُوشَ بَدَلاً مِنْ غَانِيشٍ^(٢) .

(١) دَادَا : الأخ الأكبر في اللغة الهندية .

(٢) غَانِيش : اسم متداول في الهند .

الرجل الصغير

أنا صغير لأنني طفل ، سوف أصبح كبيراً حين أصير في عمر أبي .
سوف يقول لي معلّمي : لقد تأخّرت ، أحضر لوحك وكتبك .
سوف أجيب : ألا تعلم أنني كبير مثل أبي ؟ ولست بمحتاج الى مزيد
من الدروس .

سوف يعجب المعلّم ويقول : في مكنته أن يدع كتبه ، إن أراد ، فقد
أضحى الآن رجلاً ، سوف أردي ثيابي وحدي وسوف أأخذ أدراجي نحو
المعرض حيث تزدهم جموعٌ غفيرة .
سوف يخفّ عمّي إليّ ويقول لي : أخشى أن تضلّ طريقك يا بنيّ دعني أحملك .
سوف أجيب : ألا ترى يا عمّي ، أنني كبيرٌ مثل أبي ، أريد أن أذهب
الى المعرض وحدي .

سوف يقول عمّي : أجل ، إنّه يقدر أن يذهب ، أنى يشاء ، فقد أضحى
الآن رجلاً .

سوف تقبل أمّي من الحمام لتجدني أُمّنح حاضنتي دراهم ، فأنا أعرف
كيف أفتح الصندوق بمفتاحي .

سوف تصرخ أمّي وتردّد : ماذا تفعل أيها الطفل العاث ؟
سوف أقول لها : أمّاه ، ألا تعلمين أنني كبير مثل أبي ، وأنّ عليّ أن
أهب الحاضنة فضة ؟ .

سوف تردّد أمّي : في مستطاعه أن يمنح دراهم من يودّ ، فقد أضحى رجلاً .
وفي عطلة تشرين الأوّل سوف يعود أبي الى البيت ، حاملاً إليّ من
المدينة أحذيةً صغيرة ونُقْصاً حريرية^(١) ظانّاً أنني ما زال طفلاً صغيراً .

(١) النفاض وجمعه نفّض : أزّار الطفل الصغير .

سوف أقول له : أعطها الى (دادا) إذ إنني رجلاً مثلك .
سوف يفكر أبي ويقول : في ميسوره أن يشتري ثيابه كما يرغب فقد
أضحى رجلاً .

الساعة الثانية عشر

أماء ، إنني أتشوف إلى أن أدع دروسي جانباً ، لقد عكفت على
كتبي ، منذ متوع الصباح .

تقولين إن الساعة لا تتجاوز الثانية عشرة ، ولكن ، افترضي أنه لا يوجد
أي تأخر ، أفلا تستطيعين أن تتصورى أن العصر قد حل ، فيما تشير الساعة
إلى الثانية عشرة .

في ميسوري أن أتخيل ، في يسرٍ ، أن الشمس قد لامست طرف حقل
الأرز ، وأن الصيادة العجوز تقطف الأعشاب ، لتعدها عشاءً لها ، إلى جانب
البركة .

إنني أقدر أن أغمض جفني لأتمثل الظلال ، تزداد قتامة ، تحت أشجار
(المادار) ، ويتراءى ماء البركة أسودَ براقاً .

مادامت الساعة قد تشير في الليل إلى الثانية عشرة فعلام لا يتسق لليل
أن يحل حين تشير الساعة في الظهيرة إلى الثانية عشرة ؟

حرفة الكاتب

تقولين إن أبي يؤلف شتيت الكتب ، بيد أنني لا أفقه شيئاً مما
يخط .

لقد أنفق السهرة كلها ، وهو يقرأ لك ، ترى أتدركين في الحق ، ما
يعنيه ؟

أي حكايات طريفة تستطيعين أن تقصّيها علينا يا أمي ، وإنني
لأنساء ، عجباً ، لِمَ لا يكتب أبي مثلها ؟ ترى ألم تقص عليه أمه حكايات
المردة والجن والأميرات . ؟

تراه قد نسيها كلها ؟

وفي الغالب ، حين يتلّكأ في الذهاب إلى الحمام ، فإن عليك أن تمضي
وتناديه مائة مرة .

إنك تنتظرينه وتجهدين في حفظ صحون الطعام ساخنة ، من أجله ،
فيما يعكف على الكتابة ، ناسياً كل شيء .

إن أبي يلهو دوماً بتأليف الكتب .

وحين يتفق لي أن أذهب لألهو في غرفته ، تبادرين إلى البحث عني
وتدعيني بالطفل العاثر .

وحين تتناهى مني أقل ضجة ، تخاطبينني : ألا ترى إلى أبيك وهو
يشتغل ؟

أي لذة يستمرنها في أن يكتب ويكتب ويكتب ؟

وحين أمسك بقلمه أو بريشته وأخط في دفتره ، مثلما يفعل : أ ، ب ،

ج ، د ، هـ ، و ، ز ، فعلام تسخطين علي يا أمي ؟

إنك لا تنبسين ببنت شفة حين يكتب أبي .

وحين يبدد أبي أكواماً من الورق ، فلا يكرثك ذلك البتة .

ولكن حين أمسك بوريقة واحدة لأصنع منها قارباً ، تقولين : يالك من

طفل مضايق !

مارأيك إذن بأبي الذي يخرش في صحائف وصحائف ويملاها بخطوطٍ

سوداء في كلا وجهيها ؟

الساعي الشرير

لِمَ تقتعدين الأرض ، هادئة صامتة ؟ قللي لي ، يا أمي الحبيبة .
إن المطر يسحّ من النافذة المفتوحة ويبلّل جسمك كله ، وأنت غير
أبهة لذلك .

ألا تسمعين درداب الطب يدوي أربع مرات ، لقد أزف أوان عودة أخي
من المدرسة إلى البيت .

ماذا دهاك ؟ لماذا تتراءين كنيبة ؟

ألم تتلقي ، اليوم رسالة من أبي ؟

لقد رأيت الساعي يحمل الرسائل في قمطرة^(١) ، ليوزعها على معظم
أهالي البلد .

بيد أنه يحتفظ برسائل أبي ، ليقراها وحده ، إنني لموقن بأن الساعي
رجل شرير .

ولكن لاتحزني لذلك ، يا أمي الحبيبة .

ففي غد تقام سوق القرية المجاورة ، اطلبي إلى الخادم أن تشتري لي
أقلاماً وورقاً .

سأكتب أنا رسائل أبي كلها ، ولن تجدي فيها خطأ واحداً .

سأخط ابتداءً من حرف الألف إلى حرف الكاف .

ولكن لم تبترسمين يا أمي ؟

ألا تعتقدين أن في ميسوري أن أكتب مثل أبي ، كتابة جميلة ؟

غير أنني سأسطر الورق ، في عناية ، سأخط الحروف كلها كبيرة رائعة .

(١) القمطر : ماتصان فيه الرسائل والكتب

وحين أنتهي من كتابة رسالتي ، أفتظنين أنني سأخذ بمدرجة أبي
المخبول فأرمي بالرسالة في قمطر هذا الساعي البغيض .
سأحملها أنا إليك ، دون انتظار ، سأعينك على قراءة خطي ، حرفاً
فحرفاً .
إنني أعلم أن هذا الساعي لا يود أن يحمل إليك الرسائل الرقيقة .

البطل

أماه ، لنتصور أننا ماضيان في الرحيل وأنا نضرب في أرض عجيبة
محفوفة بالمخاطر .
أنت تسعين في حداجتك^(١) وأنا على صهوة كمينت يخب إلى جانبك .
الشمس تجنح إلى المغيب ، إنه المساء . وتمتد مفازة (جوارديني)
جهمة غبراء ، في منسرح نظرنا ، وتنفسخ البيداء مقفرة جرداء .
وتفكرين واجفة ، وتتساءلين : لأدري أين وصلنا ، وأقول لك ، أماء ،
لاتخافي .
المرج مكسو بالأعشاب الشائكة ، تعدو في بعض أطرافها درب ضيقة
مهشمة .
وفي المدى الواسع ، لايبين أي قطيع ، فقد عادت القطعان إلى حظائرها
في القرى .
الحلكة تنتشر ، والظلمة تغزو الأرض والسماء ، ونحن لاندري أنني ندلج .
وتناديني ، فجأة ، وتسأليني بصوت خفيض : ماهذا النور الذي يشع
قرب الشاطئ ؟

(١) الحداجة : هودج تركب فيه المرأة .

في تلك اللحظة يدوي زئير مخيف ، وتهول أشباح نحونا .
وتتمسكين بحداجتك وترددين أسماء الله ، في دعائك .
ويفزع الحمالون ، إلى أجمة شائكة ، وقد ارتعدت فرائصهم ، فرقاً ورعباً .
وأصرخ : لاتفرعي يأمي ، فأنا هنا .
ويتقدم المغيرون ، شيئاً فشيئاً ، وقد بدوا شُعَثَ الشعور ، شاهرين في
أيديهم العصي الطويلة .
وأصرخ : احذروا أيها الأشرار ، إن خطوة واحدة تنتهي بكم إلى
الردى .

ويتعالى مجدداً ، زئيرهم المخيف ، ويتقدمون إلى الأمام .
وتشدين على يدي وتقولين : بحق السماء ياطفلي الحبيب ابتعد
عنهم .

وأقول : سترين ما أنا فاعل بهم .
وأهمز جوادي وأركضه في تقريب^(١) هائج ، وسيفي وترسي يقعقعان معاً .
وتدور معركة رهبة يأمي ، قد تبعث في أطرافك الرعدة ، لو يتسنى لك
أن تشاهدها من حداجتك .

ويلوذ أكثرهم بالفرار ، ويُضحى بعضهم قطعاً ممزقة .
وأعلم أنك تفكرين وأنت جالسة منفردة ، بأن طفلك قد لقي ، ولا بد
مصربه ، إذ ذاك .
ولكنني أقدم إليك ، مخضباً بالدماء ، وأقول لك : أماء لقد انتهت
المعركة .

وتهبطين من حداجتك ثم تقبلينني وتضمينني إلى صدرك وتتساءلين
تُرى ماذا كنت أفعل لو لم يرافقني طفلي ؟

(١) تقريب الجواد : عدوه .

تقع ، كل يوم ، آلاف الحوادث العقيمة ، فلم لا يتفق لمثل هذا الحادث
أن يحظى بأن يكون حقيقة واقعة ؟
لعله أن يشابه قصةً في كتاب ، وقد يعلق عليه أخي : تراه ممكناً ؟ إنني
أتمثله جدّ طريف .
وقد يردد أهالي القرية جميعاً : أليس من حسن الطالع ، أن يكون هذا
الطفل إلى جانب أمه ؟

النهاية

أفد الترحل يأمي ، فأنا ذاهب .
حين تمدين ذراعيك ، في الغلس^(١) الشاحب من الفجر المنزوي نحو
وليدك في السرير ، سوف أقول لك : ليس طفلك هنا ، أماء أنا ذاهب .
سوف أحول الى زفرة طرية من النسيم تداعبك ، سوف أحول الى غصون
الماء حين تستحمين فيه فألثمك وألثمك .
وحين يجلد المطر ، في الليالي العاصفة أوراق الشجر ، سوف تسمعين
وأنت في السرير همسي ، وسوف تشعّ ضحكتي مع البرق ، وتنسرب من
النافذة المفتوحة الى غرفتك .
وحين تأوين الى مضجعتك وينقضي هزيعٌ كبيرٌ من الليل وأنت تفكرين
في ابنك ، فلسوف أغني لك من ذرى النجوم : نامي يأمي نامي ، ولسوف
أندرج على أشعة القمر الهائمة حتى أشارك سريرك وأضطجع على صدرك
وأنت نائمة .

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل .

سوف أنقلب الى حلم وانزلق من أجفانك المنفرجة حتى أصل الى أغوار نومك ، وحين تستيقظين وتجيلين طرفك حواليك ، وأنت مرتعشة ، فلسوف أنسلّ من الظلمة ، مرفراً ، كأنني يراعة مضيئة .

وفي عيد (بوجا) الكبير حين يقدم أطفال الجيران ليلعبوا ، في فناء لدار ، سوف أذوب في موسيقا الناي وأخفق في قلبك ، سحابة اليوم .
سوف تقدم خالتي الطيبة ، حاملة هدايا عيد (بوجا) وسوف تسألك :
'أين طفلك يا أختي ؟
سوف تقولين لها في رقة : إنه في إنسان عيني ، إنه في جسمي ، إنه في روحي .

الذء

كان الليل داجياً حين مضت ، وكانوا مستغرقين في سبات .
الليل حالك ، الآن ، وإنني أناديها : عودي يا حبيبتي فإنّ الكون غاف ، وقد لا يدري أحد إن قدمت لتمكثي فترة قصيرة ، فيما تتلامح النجوم .
لقد مضت ، حين كانت الأشجار مبرعمة ، وكان الربيع في ريعان شبابه .

إنّ الأزهار منورة ، الآن ، وأناديها : عودي يا حبيبتي ، الأطفال يقطفون الأزهار ، ثمّ يبعثونها في غمرة لهوهم الغافلة ، وإن عدت وتناولت زهرة صغيرة ، فلن يشعر أحد بفقدانها .

إنّ الذين كانوا يلهون مايزالون يستمرئون اللهو - فما أكثر ماتبدّد الحياة!

وأصفي الى لغوهم ، وأقول : عودي يا حبيبتي ، فإنّ قلب أمك يطفح

بالحبّ ، حتّى حفافيه ، فإن عدت واختلست منها قبلة واحدة ، فلن ينقُصَ بها على أمك أيّ إنسان .

طلّانع الياسمين

آه ، يا لهذا الياسمين ، هذا الياسمين الأبيض! أحسبني ما زال أذكر اليوم الأوّل الذي ملأت فيه ذراعيّ بهذا الياسمين ، بهذا الياسمين الأبيض .

لقد شفقتُ بنور الشّمس ، بالسّماء ، بالأرض الخضراء .
لقد تناهى الى سمعي الخريّر الناعم من النهر المترقّق في ظلمة منتصف الليل .

لقد سعى الخريف وغروب الشّمس إلى لقائي ، عند منعطف الطريق ، في العزلة المنزوية ، كعروسٍ تحسر عن خمارها لتستقبل حبيبها .
لما تزل ذاكرتي معطّرةً ، بطلانع الياسمين الأبيض الذي ملأت به ذراعيّ ، حين كنت طفلاً صغيراً .

لقد مرّت في حياتي أيّامٌ رغيّدةً ، ولقد ضحكت ، مع اللاهين ، في ليالي الأعياد .

وفي الأصباح المربّدة الممطرة ، جعلت أنغم شتى الأغاني الوانية .
لقد أحطت عنقي بطوق مسائي من زهر الباكولا ، مضافٍ بيد الحب .

لما تزل ذاكرتي معطّرة بطلانع الياسمين الرّيان الذي ملأت به ذراعيّ ، حين كنت طفلاً صغيراً .

شجرة البانيان

يا شجرة البانيان ، أنت يا ذات الذروة المشعثة ، التي تنتصبين على ضفة البركة ، تُراك نسيت ذلك الطفل الصغير ، كما نسيت العصافير التي عشعشت فوق أغصانك ثم هجرتك ؟

ألا تذكرين كيف كان يتخذ مجلسه قرب النافذة ، ليتأمل في جذورك المتشابكة الناشبة في الأرض .

سوف ترد النساء البركة ، ليملأن جرارهن ، وظلك الكبير الأسود يرتجف على صقال الماء ، كأنه النعاس الذي يغالب اليقظة .

كانت أشعة الشمس تتراقص فوق الماء الجعد كأنها مكوكٌ دقيقٌ لا يألو ينسج بساطاً من ذهب .

وكانت بطّتان تسبحان قريباً من الضفة المعشوشبة ، وكان الطفل يجلس ، هادئاً مفكراً .

كان يتمنى أن يصبح الريح التي تهبُّ بين أغصانك الهامسة ، أن يصبح ظلك الذي يتطاوَل مع امتداد النهار فوق صفحة الماء ، أن يصبح عصفوراً يحطُّ فوق أعلى غصنٍ لك ، ثم يستدف^(١) ، كهاتين البطّتين ، بين الأعشاب والظلال .

بركة

بارك هذا القلب ، هذه الروح البيضاء التي ظفرت بقبلة السماء ، من أجل الأرض .

(١) استدف الطائر : طار قريباً من الأرض .

إنه يحبّ نور الشَّمس ، يحبّ نظرة أمّه إليه .
لم يتعلّم بعد ، أن يحترق التراب وأن يطعم بالذهب ، ضمّه الى قلبك
وباركه .

لقد جاء الى هذه الأرض المتشعبة الى مائة مفرق طريق .
لأدري كيف اختارك من بين الجمع الغفير ، وكيف قدّم الى بابك ،
وصافح يدك ، طالباً أن تهديه طريقه .
سوف يتبعك ، ضاحكاً ، لاغياً ، لاتنسّم في قلبه أيّ ريبة .
احتفظ بثقته ودلّه على الطريق القويمة وباركه .
أبسط يدك فوق رأسه وادعُ بأن ينساق النسيم اليه ، من العلاء ، مهما
ارتفعت الأمواج متوعدة ، ليملاً أشرعته وينحوبه الى مرفأ الأمان .
لاتنسه وأنت تمضي مسرعاً . دعه يقدم الى قلبك ثمّ باركه .

الهدية

أودّ أن أقدم إليك هدية ياطفلي ، فإنّ تيّار الكون يجرفنا .
سوف تهفو حياة كلّ منّا في سبيل لها وسوف يضحي حبنا منسياً .
ولكنني لست من الحمق ، بحيث أتمنّى أن أشتري بهداياي ، قلبك .
إنّ حياتك لغضة الشباب ، وإنّ طريقك لطويلة ، وإنّك لتنهل المحبة التي
نرجيها إليك في جرعة واحدة ثمّ تدور على عقبيك وتعدو بعيداً عنا .
إنّك منصرف الى لعبك مع لداّتك ، فأيّ ضير إن لم تولنا وقتاً أو تفكيراً .
وفي الحق إنّنا لنستطيب أن نحصي ، في شيخوختنا أيّامنا الغابرة وأن
نعطف في قلوبنا على ما فقدته أيدينا .
إنّ النهر يجري سريعاً ، وهو يغنيّ ، ويحطّم أمامه السدود كلّها ، ولكنّ
الجبل القائم بالحالم بذكرياته ، يتابعه بوجده .

أغْنِيَتِي

سوف تَلَفَّكَ أغْنِيَتِي بنغمتها ، ياطفلي ، كأنها أيدي الحب العاشقة .
سوف تلامس أغْنِيَتِي جبينك كأنها القبلّة المباركة .
وحيث تضحى وحيداً ، فلسوف تجلس الى جانبك ، وتهمس في أذنيك .
وحيث تغيب بين جموع الناس فلسوف تحميك بسياج من العزلة .
سوف تصبح أغْنِيَتِي كجناحين لأحلامك ، ثمّ تنحو بقلبك الى حدود المجهول .
سوف تضحى كنجم أمين ، في العلاء ، حين يغلف الليل الحالك دربك .
سوف تسكن أغْنِيَتِي الى أجفانك ثمّ تحمل نظرتك الى قلب الأشياء .
وحيث يلوذ صوتي بالصمت . في الموت ، فلسوف تتردّد أغْنِيَتِي في قلبك الحي .

الطفل الملاك

إنّهم يصيحون ويقاثلون ، يحكّ في صدورهم الشكّ واليأس ، إنهم لا يعرفون نهاية لمنازعاتهم .
دع حياتك ياطفلي ، تتألق بينهم ، كشعلة من ضياء سنّي نقي ، دعهم يفرغوا ، مبهورين ، الى الصمت .
إنهم قساة في جشعهم وحسدهم ، إنّ كلماتهم كمِدَى خبيثة ظمأى الى الدّم .
إذهب الى هذه القلوب المعذّبة ، وقف بينها ، واحذر اليها نظرتك الرقيقة ، كالسلام الرحيم المتطامن من المساء الى كفاح النهار .

دعهم ينظروا الى وجهك يا طفلي ، ليتأتى لهم فهم معنى الأشياء كلّها ،
دعهم يحبّوك ، ليحب بعضهم بعضاً .
تعال واجلس في قلب اللانهاية يا طفلي ، وحين ينشقّ الفجر ، افتح
قلبك وارفعه كزهرة منوّرة ، واحن رأسك حين تغرب الشمس ، وتمّم في
صمتٍ ، عبادة النهار .

العقد الأخيد

- ألا من يستخدمني لديه!
هذا ما كنت أردّده ، عالياً ، في الصباح ، وأنا أسير في الطريق المعبّدة الحجرية .
ومرّ ملك مستقلاً مركبته ، في يده سيفه .
وأمسك بيدي ، ثمّ قال : إنني أستخدمك ، على أن أدفع أجرتك ،
مشاركتك لي في سلطاني .
ولكن سلطانه لم يكن يحتوي على شيء ، ومضى بمركبته .
وفي الظهيرة القائظة ، كانت أبواب الدور القائمة مغلقة .
وأخذت ، أضرب ، هائماً ، في دربٍ ملتوية .
وتقدّم شيخ يحمل سفظاً مليئاً بالذهب .
وفكر ثمّ قال : إنني أستخدمك على أن أنقذك أجرتك من مالي .
وجعل يعدّ نقوده ، قطعة ، قطعة ، ولكنني انكفأت راجعاً .
وكان الوقت مساءً ، وكان وشيع الحديقة كلّّه مزهراً .
وتقدّمت الفتاة الوسيمة وقالت : إنني أستخدمك ، على أن أمنحك
أجرتك إبتسامةً .
غير أنّ ابتسامتها شحبت ، واطردت دموعها ، باكيةً ، وعادت ،
وحدها وغابت في الظلام .

وكانت الشمس تتألق فوق الرمال وكانت الأمواج تتلاطم جامحةً .

وكان ثمّة طفل جالس ، يلهو بالأصداف .

ورفع رأسه وبدأ كما لو أنه يعرفني وقال : إنني أستخدمك ، على أن
أدفع شيئاً ، أجرّة لك .

ومنذ أن تمّ الإتفاق على هذا العقد الذي جرى فيما كنت ألهو مع طفل ،
فقد أصبحت رجلاً حراً .

دورة الربيع

تمهيد

شخصيات التمهيد

الملك - الوزير - الجنرال (بيجوي فارما)
السفير الصيني - الحكيم (سروتي بوشان)
الشاعر (كابي شيكار) - حجاب ، حاشية ،
رسول بشير .

(يتألف المسرح من مستويين ، أعلاههما - ويقع في الخلف - مخصص
لمنشدي المقدمة الغنائية ، ومسدلٌ عليهما ستارٌ قرمزي . وأسفلهما
يتراءى ، حين ينحسر ستار المسرح .
في زاوية المسرح الأسفل ، ومن أقصى يساره ، أعد بلاط الملك ،
وقام ، على نشزٍ ، عرش ذو مظلة ، وقد انفسح صدر هذا المسرح ، لأداء
التمثيل واطراده) .

(يدخل بعض أفراد الحاشية)

(أسماء المتكلمين ليست مذكورة ، على الهامش ، إذ يمكن حزرها
في يسر) .

- صه . صه .
- ما الأمر ؟
- لقد استبد بالملك ضيقٌ كبير .
- ياللهول !
- من الذي يزمر ، في الناي ، هناك ؟
- لماذا ؟ ما الأمر ؟
- إن الملك لفي قلقٍ شديد .
- ياللهول !
- ماذا يفعل أولئك الأطفال الطائشون الذين يثيرون هذه الضجة ؟
- إنهم من أسرة (ماندال) .
- إذن قلّ لأسرة (ماندال) أن تحمل أطفالها على الهدوء .
- تُرى الى أين مضى الوزير ؟
- هأنذا ، ما الأمر ؟
- ألم تتأذ الى سمعك الأخبار ؟
- لا ، أيّ أخبار ؟
- إن الملك مضطرب الفكر أشدّ الاضطراب .
- حسنٌ ، لقد تناهى إليّ بعض الأخبار الهامة حول حرب الحدود .
- الحرب ؟ إنّ في ميسورنا أن نظفر بها ، ولكن ليس في وسعنا أن نظفر بالأخبار .
- ثمّ إنّ السفير الصيني ينتظر مقابلة جلالة الملك .
- دعه ينتظر ، إنه لا يستطيع ، على أي حال ، أن يرى الملك .
- لا يستطيع أن يرى الملك ؟ - آه ، وبعدُ ، فهذا هو ذا الملك ، انظر اليه ، قادماً في هذه الطريق حاملاً بيده مرآة . « ليحيّ الملك حياة مديدة » .

الوزير : لعله يروق لصاحب الجلالة أن يعلم أن وقت ذهابه الى البلاط قد
أُزف .

الملك : أُرِف وقت الذهاب ؟ أجل ، أُرِف وقتُ الذهاب ، ولكن لا إلى
البلاط .

الوزير : ماذا يعني صاحب الجلالة ؟

الملك : ألم تسمع ؟ إنَّ الناقوس قد رنَّ ، اللحظة ، مؤذناً بصرف حاشية
البلاط .

الوزير : متى ؟ أيّ ناقوس ؟ إننا لم نسمع أيّ ناقوس .

الملك : كيف يكون في مكنتكم أن تسمعوا ؟ لقد قُرِعَ الناقوس في
مسمعي وحدي .

الوزير : أوه يا مولاي . لا يمكن لأحد أن تبلغ به الصفاقة أن يفعل ذلك .

الملك : أيها الوزير إنه يُقرع الآن .

الوزير : عفواً مولاي ، إن كنتُ كثيرَ الغباء ، بيد أنني لأقدر على
الفهم .

الملك : انظر الى هذا ، أيها الوزير ، انظر الى هذا .

الوزير : انظر الى شِعْر صاحب الجلالة ؟ . .

الملك : ألا تستطيع أن تلمح ، ثمة ، قارعَ ناقوس ؟

الوزير : أوه ، يا صاحب الجلالة ، أيمرح جلالته ؟

الملك : ليس المزاح من شأني ، ولكن من شأنه (هو) ذاك الذي يمسك

بالعالم كلّهُ من اذنه ، ويتّخذ منه هُزأةً له . ليلة أمس ، فيما كانت

الملكة تطوّق عنقي بعقد من ياسمين ، صرختُ فزعّةً : « أيها

الملك . ما هذا ؟ ههنا ، خلف اذنك ، شعرتان شائبتان » .

الوزير : أوه حنانيك يا مولاي ، لاتدعَ القلق يستحوذ عليك ، من أجل

شيء بسيط كهذا ، ماذا ! حكيم البلاط...

الملك : أيها الوزير ، لقد كان لمؤسس أسرتنا المالكة حكيمٌ أيضاً ، ولكن أي شيء يستطيع أن يفعل ؟ إنّ الموت قد ترك بطاقةً دعوته خلف اذني ، لقد ودّت الملكة أن تقتلع الشعرات البيضَ ، ههنا وههنا ، ولكنني قلت لها : « أيتها الملكة ، ماذا يجدي هذا كلّهُ ؟ إنّ في ميسورك أن تستبدي دعوة الموت ، ولكن ، أياكون في ميسورك أن تستبدي الموت الداعي ؟ » ، هكذا... أمّا الآن...

الوزير : أجل يا مولاي ، أمّا الآن ، فلننصرف الى العمل .
الملك : العمل ؟ أيها الوزير ، لا ينفصح لي وقتٌ للعمل استدع لي الحكيم (البانديت)^(١) ، استدع (سروتي بوشان) .

الوزير : ولكن ، مولاي ، الجنرال...
الملك : الجنرال ؟ - لا ، لا ، لا أبغي الجنرال ، استدع الحكيم .
الوزير : ولكنّ ، أخبار الحدود...

الملك : أيها الوزير ، لقد تناهت إليّ الأخبار من آخر الحدود وأعظمها كلّها ، من حدود الموت ، استدع لي الحكيم .
الوزير : ولكن... إذا شاء صاحب الجلالة أن يمنحني لحظةً ، فإنّ السفير القادم من لدن امبراطور الصين العظيم...

الملك : أيها الوزير إنّ أكبر الأباطرة قد بعث إليّ بسفارته ، استدع (سروتي بوشان) .

الوزير : حسنٌ يا مولاي ، ولكنّ حماك...
الملك : ليس حموي بالذي أرغب في رؤيته الآن ، استدع الحكيم .
الوزير : ولكن لعلّه أن يروق لك أن تصفي إليّ هذه المرة : إنّ الشاعر

(١) البانديت : في الهندية الحكيم الذي يزاوّل الحكمة والطب معاً .

(كابي شيكار) ينتظر.. حاملاً كتابه الجديد (حديقة الشعر) .

الملك : دُعْ شاعركَ يمتّع نفسه ، لاهياً ، متسلّقاً عَذَبَاتَ الأغصان من حديقة شعره ، ولكن استدعِ الحكيم .

الوزير : حسنٌ يامولاي ، سأطلب إليه القدوم فوراً .

الملك : قل له أن يصطحب معه كتابه في الصلوات المسمّى (اوقيانوس الزهد) .

الوزير : أجل يا مولاي .

الملك : ولكن ، أيها الوزير ، من هم هؤلاء الذين يشيرون هذه الضجّة كلّها ؟ اخرج واطلب اليهم أن يلتزموا الصمت فوراً ، ينبغي أن أنعم بالهدوء .

الوزير : إنّ راقٍ لصاحب الجلالة أن يعرف ، أنّ مجاعة كبرى قد انتشرت في (ناجاباتان) ، وأنّ رؤساء القوم في القرى يرجون أن يسمح لهم برؤية محياك .

الملك : إنّ زمن عمري لقصير ، أيها الوزير ، ينبغي أن أنعم بالهدوء .

الوزير : إنهم يقولون أنّ زمن أعمارهم لأقصر ، وإنهم ماثلون أمام باب الموت ، إنهم يتشوّفون أيضاً الى الهدوء ، الهدوء بإطفاء حُرقة الجوع .

الملك : أيها الوزير إنّ حُرقة الجوع لتطفأ ، أخيراً ، على المحرقة الجنائزية .

الوزير : إذن فهذه الرعيّة الشقيّة...

الملك : شقيّة! إصغِ إلى نصيحة ملك شقي يزجّيها الى رعيّة الشقيّة : إنه لمن العبث أن ينفدَ صبرُ المرء ، وأن يحاول التملّص من شبكة الصياد القاسي ، فإنّ الموت ، هذا الصياد ، سوف يظفر عاجلاً أم آجلاً بصيده .

الوزير : حسنٌ وبعدُ ؟

الملك : عليّ بالحكيم وبكتابه (اوقيانوس الزهد) .

الوزير : وفي هذا القحط...

الملك : أيها الوزير ، إنّ القحط الحقيقي هو قحط الزمن لا قحط القوت
إننا نتألم جميعاً من جوعنا الى الزمن ، وليس ثمة أحدٌ قد ظفر
بما يكفيهِ منه ، لا الملك ولا شعبه .

الوزير : وإذن...

الملك : إذن ، فاعلم أنّ التماسنا مزيداً من الزمن سيكون مصيره لهيب
الدينونة ، فلماذا نقسر صَوْتنا على الدعاء ؟ آه ، ها هو ذا ،
أخيراً (سروتي بوشان) ، اليك تحيّي...

الوزير : أيها الحكيم ، هلاً قلتَ للملك إنّ إله الحظ يتخلّى عمن يدع
سبيلاً للكآبة أن تستبدّ به .

الملك : (سروتي بوشان) . ماذا يهمس وزيرِي في أذنك ؟

الحكيم : إنه يسألني ، أيها الملك ، أن أرشدك الى طُرُق الحظ .

الملك : أي إرشاد تستطيع أن تزجيه ؟

الحكيم : ثمة رباعية في كتابي ، كتاب الصلوات ، تترادف على هذا
النحو :

ألا إنّ حظ ابن آدم يبدو سريعَ التقلب ، لا يستقر

كزهرةٍ لوتس ، تهبو شروداً فطوراً تقرأ ، وطوراً تفرّ

وينهب ، في الغد ، ما كان أعطاه أمس ، ويلعبُ لعبَ القدر

فكلُّ اعتقادٍ بحظّ جنونٌ وكلُّ اعتمادٍ على الحظّ شرٌّ^(١)

(١) آثرنا نقل الرباعيات شعراً ، أخذاً بمدرجة الشاعر طاغور الذي نظمها في الانكليزية شعراً ملتزمين بذلك ما التزمه الشاعر نفسه حين نقل المسرحية من البنغالية الى الانكليزية . (المعرب)

الملك : إليه أيها الحكيم ، إن خفقت ناسمة من تعاليمك لتطفئ شعلة الجشع الزائفة ، لقد قال معلّمنا : « إن الأسنان لتتساقط ، وإن الشعر ليخطّه الشيب . ومع ذلك فإن الإنسان ليتعلّق بالأمل الخداع الذي يلهو به » .

الحكيم : حسنٌ أيها الملك ، مادمت قد عرضت ، الآن ، لموضوع الأمل فذرني أقدم اليك رباعيةً أخرى من (اوقيانوس الزهد) ، وإنها لتترادّف على النحو التالي :

ونعلم أن القيود تشدّ جميع الأناسي ، فوق الشرى
ولكن قيد التعلّة يبدو كأعجب قيد يغلّ الورى
فكل ابن انشى أسيرٌ بقيد من الأمل الحلو ، رهنّ العنا
ولا يجد الأمن إلا متى تحطم وأنفك قيد المنى
الملك : آه أيها الحكيم ، إن كلماتك لثمينّة . أيها الوزير ، انفضه ، على التو ، مائة دينارٍ ذهبيّة ، ماهذه الضجّة في الخارج ؟

الوزير : إنهم جوعى القحط .

الملك : قل لهم أن يلزموا الهدوء .

الوزير : دع (سروتي بوشان) يذهب ويحاول ، بكتاب الصلوات ، أن يحمل اليهم الهدوء ، فيما يكون في ميسور صاحب الجلالة أن يبحث في شؤون الحرب .

الملك : لا ، لا ، دع شؤون الحرب تقبل فيما بعد ، ليس في مقدوري أن أدع (سروتي بوشان) يمضي .

الحكيم : أيها الملك ، لقد عرضت في حديثك ، منذ هنيهة ، لعطيّة من ذهب ، ولكن الذهب ، في حد ذاته لايتيح أيّ فائدة مستديمة فقد جاء في كتابي عن الصلوات المسمّى (اوقيانوس الزهد) :

ومن يهب الذهبَ اللامعا يهبُ المأ دائماً موجعا
ومن ينفق الذهبَ الساطعا يتخ للندامة أن ترجعا
وسَيان من شاءَ إنفاقَ بذره ومن شاءَ إنفاقَ عشرين بذره
فهذا يؤوبُ ويسفحُ عبْرهُ وذاك يعودُ ويمتني بحسره
الملك : آه أيها الحكيم ، ياللمعنى الشهي! إذن أنت لاترغب في أيّ ذهب ، يا معلّمي ؟

الحكيم : لا . أيها الملك ، لا أرغب في الذهب بل في شيء أكثر بقاءً منه ، في شيءٍ قد يجعل فضلكَ باقياً أيضاً ، لعلّي أن أكون سعيداً جداً ، إن وهبت لي مُلكَ (كانشابور) فقد جاء من أجل هذا في كتاب الزهد...

الملك : لا ، أيها الحكيم ، لقد فهمتُ جيداً ، لستَ بمحتاجٍ الى أن تستشهد بالكتاب ، دعماً لمطلبك فقد فهمتُ أحسنَ الفهم .
أيها الوزير...

أنظر في أمر جعل مقاطعة (كانشابور) مُلكاً للحكيم - ماذا يجري الآن في الخارج ؟ لِمَ يصرخون ؟
الوزير : إن راق لصاحب الجلالة أن يعلم : إنهم جموع الشعب .
الملك : لِمَ لا يأتلون يصرخون ؟

الوزير : إنّ صراخهم لا يني يتردّد ، إنني أسلم بهذا ، غير أنّ السبب يظلّ نفسه ، على نحوٍ رتيبٍ دائمٍ : إنهم جوعى .

الحكيم : ولكن أيها الملك ، ينبغي أن أفضي إليك بشيء قبل أن أنساه : إنّ الرغبةَ الوحيدةَ التي تجاذب زوجي ، هي أن تدعَ جسدها كلّهُ ، من رأسها الى أخمص قدميها ، يَهزَجُ مسبحاً بجودك ، ولكن... وأأسفاه إنّ الرنين الذي يخلص منها جدّ خفيض ، لأنها عابطةٌ من الحلّي .

الملك : إنني أفهمك أيها الحكيم . أيها الوزير! استوص ، حالاً ، على حلي من صانع البلاط ، لتوهب لزوج (سروتي بوشان) .

الحكيم : أيها الملك ، هلاً قلتَ للوزير ، فيما يقوم بما طلبت إليه ، إننا كلينا مضطربان في صلاتنا ، بسبب ترميم الدار ، دعه يطلب إلى بنائي البلاط أن ينشئوا ، بإتقانٍ ، داراً حسنة البناء ، يتيسر لنا فيها القيام بصلواتنا ، في هدوءٍ وأمنٍ .

الملك : حسنٌ أيها الحكيم . أيها الوزير!

الوزير : أجل يا صاحب الجلالة .

الملك : قم بهذا الأمر ، على التو .

الوزير : مولاي ، إن خزينتك خاويةٌ عاطلةٌ من المال .

الملك : أفٍ ، إنها لقصةٌ قديمة اسمعها كل عام . عليك أنت أن تزيد في المال ، وعليّ أنا أن أوسع في الإنفاق ، ماذا تقول في ذلك يا (سروتي بوشان) ؟

الحكيم : أيها المليك ، ليس في مكنتي أن ألزم الوزير ، إنه يهتم بشروائك في الدنيا ، فيما نهتم نحن بشروائك في الآخرة ، لهذا فحيثما يرى هو نقصاناً نرى نحن سعةً وغنىً . والآن ، إن تركتني أغوصُ ، مرةً أخرى ، في أعماق (اوقيانوس الزهد) ، فلسوف تجد مكتوباً فيه مايلي :

فحيث يجودُ المليكُ بمالٍ تكون الخزانةُ في خيرٍ حالٍ

الملك : أيها الحكيم ، إن صحبتك لا تُقدَّرُ بثمن .

الوزير : يا صاحب الجلالة ، إن (سروتي بوشان) ، يعرف مدى قيمته وإن شارفت دانقاً واحداً . تعال يا (سروتي بوشان) ، هلم نحتجن كلَّ الثروات التي تحتاج إليها ، لتعمرَ خزانة صلواتك . إن للثروة عادةً قبيحةً ، عادةً التناقص السريع ، فإن لم نبادر

لجمعها ، فلن يتبقى سوى النزر اليسير مما يكفي للحفاظ على الزهد في تمام روعته .

الحكيم : أجل أيها الوزير ، دعنا نمض ، على التو ، (يخاطب الملك)
مادام يصطنع مثل هذه الجلبة ، من أجل أمرٍ تافهٍ كهذا ، فالأولى أن يُشرع بتهدئته ، ثم أعود إليك بعد ذلك .

الملك : أيها الحكيم ، أخشى أن تتخلى ، ذات يوم عن حمايتي الملكية نهائياً ، لتفرغ الى عزلتك في الغابة .

الحكيم : أيها الملك ، مادمتُ أجد الهناءة والدعة ، في قصر الملك ، فإنه صالحٌ لي صلاحٌ صومعةٍ لراحتي الفكرية ، عليّ أن أغادرك ، أيها الملك الآن . أيها الوزير! هيا بنا .

(يخرج الوزير والحكيم)

الملك : إيهِ يا ربي العزيز ماذا أفعل ؟ ها هو ذا الشاعر قادمٌ ، أخشى أن يحملني على تحطيم عزيمتي كلّها ، إيهِ يا شعري الشائب ، غطّ اذني على نحوٍ ، لايتسنّى لكلمات الشاعر المضلّلة ، أن تنسرب الى مسمعي .

الشاعر : أيها الملك ، ما الأمر ؟ أسمع أنّك تريد أن تصرف شاعرك .

الملك : ماذا أتوقع من الشعراء ، حين يحمل إليّ الشعرُ رسالةً الرحيل ؟
الشاعر : أيّ رسالة رحيل ؟

الملك : انظر إلى هذا ، خلف اذني ، أفلا تلمحه ؟

الشاعر : ماذا أرى ؟ شعراً شائباً أيها الملك ، لا يأخذك القلق من أجل هذا .

الملك : أيها الشاعر ، إنّ الطبيعة تحاول أن تسلبني اخضرارَ الشباب وأن تصبغَ كلّ شيءٍ بلون البياض .

الشاعر : لا ، لا ، أيها الملك ، إنك لم تفهم الفنان ، فعلى مدى هذا القاع
الأبيض سوف تضفي الطبيعة ألواناً جديدة .

الملك : لما ألمح بعدُ أي أثر للألوان .

الشاعر : إنها ماتزالُ كامنّة ، ففي قلب اللون الأبيض تكمن ألوان قوس
قزح كلها .

الملك : أوه أيها الشاعر ، هلاً هدتَ ، إنك تهيج الاضطراب في عظمي
حين تتحدّث على هذا النحو .

الشاعر : أيها الملك ، إن جعل هذا الشباب يُصَوِّحُ فدعهُ يُصَوِّحُ . إن
ملكة أخرى للشباب مقبلةٌ إليك ، إنها تضع على رأسك إكليلاً
من الياسمين رجاء أن تضحي عروساً لك ، إن مهرجان الزفاف
يهيئاً ويُعدّ خلف الستار .

الملك : أوه ، أيها الشاعر العزيز ، إنك تشيع الاضطراب في كل شيء
إمض من هنا ، هيه أيها الحاحب ، هناك ، اذهب فوراً ، واستدع
(سروتي بوشان) .

الشاعر : ماذا ستفعل معه ، أيها الملك ، حين يقدم ؟

الملك : سأهيبُ بفكري أن يثوب إلى الهدوء وسأمارس زهدي .

الشاعر : آه أيها الملك ، حين سمعت هذه الأخبار ، قدمتُ على الفور ،
ليكونَ في استطاعتي أن أكون رفيقك في ممارسة الزهد .

الملك : أنت ؟

الشاعر : أجل أنا ، أيها الملك ، إننا نحن الشعراء نوجد ، لهذا الهدف
الحق : أن نحرّرَ البشرَ من أهوائهم .

الملك : لا أفهم ماتقول ، إنك تتكلّمُ الغاراً .

الشاعر : كيف ؟ ليس في مقدورك أن تفهمني ، في حين كنتَ تُنفِقُ
الوقتَ في تلاوة قصائدي . إن في كلماتنا لزهداً ، وإن في

قريضنا لزهداً ، وإنّ في موسيقانا لزهداً . لهذا كلّهُ فإنّ الحظّ
يهجرنا ، ونحنُ أيضاً نهجره ، إنّنا نسعى ، طوال اليوم الى
تلقين الشبيبة الطقوس المقدسة ، طقوس الحظ المهجور .

الملك : وماذا تقول لنا هذه الطقوس ؟

الشاعر : إنّها تقول : «إيه ، أيها الأخوة ، لا تتعلّقوا بخيراتكم
ورياشكم ، ولا تنتبذوا دوماً ، ركنأ من حجرتكم ، اخرجوا ،
اخرجوا الى العالم الرحب ،
اخرجوا الى سُبُل الحياة ،
اخرجوا ، أيها الزاهدون الشباب » .

الملك : ولكن أتعني أيها الشاعر ، حقاً ، أنّ العالم الرحب هو طريق
الزهد ؟

الشاعر : لِمَ لا أيها الملك ؟ في العالم الرحب ، كلّ شيءٍ هو الحياة ، كلّ
شيءٍ هو الحركة ، إنّ من يتحرّك دوماً متنقلاً ، مع حركة الحياة
هذه ، راقصاً يزمّر في نايه ، ساعياً في كلّ مضطربٍ من الأرض
هو الزهدُ الحقيقيّ ، هو المريدُ الحقيقيّ للشاعر الرائد .

الملك : ولكن كيف يتاح لي أن أظفر بالأمن ؟ ينبغي أن أحظى بالأمن .

الشاعر : أوه أيها الملك ، لا تخالجنّا أقلّ رغبة في الأمن . إنّنا الزاهدون .

الملك : ولكن ألا يجب علينا أن نبحث عن الكنز الذي يقال إنه لا يتغيّر
البتّة ؟

الشاعر : لا ، إنّنا لانطمع في أيّ كنز لا يتغيّر البتّة ، إنّنا الزاهدون .

الملك : ماذا تعني ؟ أوه أيها الشاعرُ العزيزُ ، إنّك لتشوّش كلّ شيءٍ إنّ

جعلتَ تتحدّث هكذا ، إنّك تودي بأمن أفكارٍ ، نادٍ (سروتي

بوشان) ، أطلب الى أحديّ ما أن يستدعي الحكيم .

الشاعر : اليك ما أعنيه أيها الملك : إنّنا الزاهدون الحقيقيّون ، لأنّ التغيّر

هو سُرْنَا الحقيقي ، إننا نخسر رجاءَ أن نجد ، إننا لا نؤمن
بالذي لا يتغير البتّة .

الملك : ماذا تعني ؟

الشاعر : ألم تلاحظ انعتاق النهر المندفع وهو يعدو مزبداً ، من كهفه
الجبلي . إنه يهبُ لنفسه الإنطلاقَ ففي هذه اللحظة وحدها ،
يجد نفسه...

إنّ الشيء الذي لا يتغير البتّة ، بالنسبة للنهر ، هو رملُ الصحراء
حيث يغيب .

الملك : آه ، ولكن إصغ أيها الشاعر ، إصغ الى هذه الأصوات في
الخارج ، إنه عالمك ، فماذا تفعل به ؟
الشاعر : أيها الملك ، إنه شعبُك الساغب .

الملك : شعبي ؟ أيها الشاعر ! لِمَ تدعوه كذلك ؟ إنه شعب العالم ، لا
شعبي ، هل خلقتُ أنا شقاءه ؟ قل لي ماذا يستطيع شعراؤك
الشباب الزاهدون أن يفعلوا ، ليواسوا آلاماً كهذه ؟

الشاعر : إننا وحدنا ، نستطيع حقاً أن نبلو هذه الآلام ، لأننا كالنهر الذي
يتدفق ، فرحانَ جدلانَ ، وكذلك نخفّف عبثنا وعبء العالم ،
ولكنّ الطريق الوعشاء المحصورة لا تتغير البتّة وبهذا فإنها تجعل
العبء أكثر وقرأ ، إنّ الأحمال الثقيلة تننّ وتصرّ ، في مدى
الطريق ، وتحزّ جروحاً رغبةً في الصدور ، إننا نحن الشعراء ،
ندعو كلّ إنسان أن يحمل أفرache وأترache في هينة ، وعلى نغمٍ
موزون . إنّ نداءنا هو نداء الزاهدين .

الملك : آه أيها الشاعر ، الآن ، لأعني نفسي بـ (سروتي بوشان)
فليُشنق الحكيم نفسه ، ولكن أتدري أيّ قلقٍ يُحكّ في صدري
الآن ؟ قسماً بحياتي ، إنّ موسيقا كلماتك ، وإن لم ألقه

معناها ، لتملؤني اضطراباً ، والأمر مع الحكيم يتخذ سبيلاً
أخرى مخالفةً تماماً ، إن كلماته واضحةً وضوحاً كافياً ، خاضعةً
خضوعاً صحيحاً لقواعد الإعراب ، ولكن النغم... لا ، لا فائدة من
المضي في التحدث إليك أكثر من هذا...

الشاعر : أيها الملك ، إن كلماتنا لا تتكلم بل تغني .

الملك : حسنٌ ، أيها الشاعر ، ماذا تود أن تفعل الآن ؟

الشاعر : أيها الملك ، أنا ذاهب ، لأنطلق عبر هذا الصراخ الذي يتعالى
وراء بابك .

الملك : ماذا تعني ؟ ، إنه غوث الذين أصابتهم المجاعة يقع على عاتق
رجال الأعمال وليس للشعراء شأن بأمور كهذه .

الشاعر : أيها الملك ، إن رجال الأعمال يقومون بعملهم دون انسجام ،
ولهذا فإننا نبادر ، نحن الشعراء لنجعل هذا العمل منسجماً .

الملك : تعال ، الآن ، يا شاعري العزيز ، وتحدث بكلام جلي .

الشاعر : أيها الملك ، إنهم يعملون لأنّ عليهم أن يعملوا ، أمّا نحن
فنعمل لأننا مدّلهون بالحياة ، ولذا فإنهم يأخذون علينا ، أننا
غير عمليّين ، ونأخذ عليهم أنهم فارغون من الحياة .

الملك : ولكن من منكم على صواب أيها الشاعر ؟ من منكم الظافر ،
أنتم أم هم ؟

الشاعر : نحن أيّها الملك ، نحن الظافرون دوماً .

الملك : ولكن ما برهانك على ذلك أيها الشاعر ؟

الشاعر : أيها الملك ، إنّ أعظم الأمور في الدنيا ليستهيّن بالبرهان ،

ولكن إن استطعت أن تزيل من الدنيا لأمدٍ ما ، الشعراء كلّهم
وقريضهم كلّهم ، فسرعان ما تكتشف ، بغيابهم نفسه ، من أين

يمتدح رجال الأعمال حيويّتهم ومن هم الذين يمدّون ، في

الواقع ، حصّاد حقولهم بنسغ الحياة . إنهم ليسوا بأولئك الذين استغرقوا في قراءة كتاب الحكيم (أوقيانوس الزهد) ولا بأولئك الذين يتشبّثون بثرواتهم دوماً ، ولا بأولئك الذين أضحوا مهرةً ، إذ يؤدون أصنافاً شتى من العمل ، ولا بأولئك الذين يلهجون بواجباتهم الجافة ، لا ، ليس هؤلاء هم الذين يظفرون في النهاية بل أولئك الذين يحبّون لأنهم يحيون ، هؤلاء هم الذين سيؤتى لهم الغلاب حقاً ، لأنهم يذعنون حقاً ، إنهم يرضون بالألم بجماع قواهم ، ويزيلون الألم بجماع قواهم ، إنهم هم الذين يبدعون ، لأنهم يعرفون سرّ الفرحة الحقيقي الذي هو سرّ الزهد .

الملك : حسنٌ أيها الشاعر ، إن كان ما ذكرتَ هكذا ، فماذا تطلب إليّ أن أفعل الآن ؟

الشاعر : أطلبُ اليك ، أيها الملك أن تنهض وتتحرك ، إنّ الصراخ الذي يتناهى من الخارج هو صراخ الحياة للحياة ، فإن لم تتحرك الحياة في أعماقك ، متجاوبةً مع ذلك النداء ، فثمّة سبب يستدعيّ الخوف حقاً ، لا لأنّ الواجب قد أهمل ، بل أنك بسبيل الى الموت .

الملك : ولكن... من المؤكّد أنّ علينا أن نموت ، عاجلاً أمّ آجلاً ، أيها الشاعر .

الشاعر : لا ، أيها الملك ، إنه لكذبٌ ، حين نشعر على نحوٍ مؤكّد بأننا نحيا ، فإننا نعرف على نحوٍ مؤكّد ، أننا ماضون في الحياة والعيش ، أمّا الذين لم يُخضعوا الحياة لمحكّ التجربة ، في السبُل الممكنة كلّها ، فهم الذين لا يأتلون يصرخون : « الحياة منقضية ، الحياة ذابلة ،

الحياة شبيهة بقطرة ندى فوق ورقة لوتس .

الملك : ولكن أليست الحياة متقلبة ؟

الشاعر : إنها لكذلك ، لأن حركتها متصلة دائبة ، فاللحظة التي توقف فيها أنت هذه الحركة ، هي اللحظة التي تشرع أنت فيها بأداء مأساة الموت .

الملك : أيها الشاعر ، تُراك تقول الحقيقة ؟ أحقاً أنا سنستمر في الحياة ؟

الشاعر : أجل إننا سنستمر في الحياة .

الملك : إذن فإن علينا ، إن استمررنا في الحياة ، أن نجعلها جديرة بالخلود أليس كذلك ؟

الشاعر : أجل ، حقاً .

الملك : إيه أيها الحاجب .

الحاجب : أجل ، يا صاحب الجلالة .

الملك : ادعُ الوزير حالاً .

(يدخل الوزير)

الوزير : فيمَ يرغب جلالتك ؟

الملك : بحق الأرض أيها الوزير لِمَ جعلتني أنتظر طويلاً ؟

الوزير : كنتُ مشغولاً جداً ، يا صاحب الجلالة .

الملك : مشغولاً ؟ بأي شيء ، كنتُ مشغولاً ؟

الوزير : كنتُ مشغولاً بدعوة الجنرال الى الإنصراف .

الملك : لِمَ صرفتَ الجنرال ؟ لقد كان علينا أن نناقشَ معه قضايا الحرب .

الوزير : كان عليّ ، إلى ذلك ، أن أعدّ التدابير اللازمة لسفر السفير

الصيني رسمياً .

الملك : ماذا تعني بسفره رسمياً ؟

الوزير : لعلّه يروقّ لصاحبِ الجلالة أن يعلم ، أنه لم يُسْمَحْ له بمقابلة ، لهذا فإنّه...

الملك : أيها الوزير ، إنك تثير عجيبي ، أهكذا تدير أمور الدولة ؟ ماذا دهاك ؟ هل فقدت صوابك ؟

الوزير : أضف الى ذلك ، يا مولاي ، أنني كنت أحاول أن أجد وسيلةً لهدم دار الشاعر . لم يشأ أحدٌ ، في البدء ، أن يقوم بذلك ، وأخيراً فإن جميع حكماء المدرسة الملكية لتعليم النحو والمنطق ، قدموا بأدواتهم وشرعوا في العمل .

الملك : أيها الوزير ، تُراكُ جُننتَ في هذا الصباح ؟ أتهدم دار الشاعر ، ولمّة ؟ إن في وسعك إذن أن تقتل كل الطيور في الحديقة ، لتُعدّ منها حَشَوَ الفطائر .

الوزير : إذا راق لصاحبِ الجلالة ، فليس ثمة ضرورة لإزعاجه ، لن نعد الى هدم الدار فإنّ (سروتي بوشان) قرّر استملاكها لنفسه حين سمع بأنها ستهدم .

الملك : ماذا أيها الوزير ؟ إنّ هذا لأسوأ بكثير ، إنّ آلهة الموسيقى قد تحطّم معزفها على رأسي ، إن سك سمعها خبرٌ كهذا .

الوزير : ثمة شيء آخر ، ينبغي القيام به يا صاحب الجلالة ، علينا أن نهبَ للحكيم مقاطعة (كانشانبور) .

الملك : لا ، أيها الوزير ، أي خطأ تقترف! ينبغي أن تصير المقاطعة الى شاعرنا .

الشاعر : إليّ ، أيها الملك ؟ لا ، إنّ شعري لا يقبل مكافأة البتّة .

الملك : حسنٌ ، حسنٌ ، دع الحكيم يستأثر بها .

وزير : وأخيراً يا مولاي ، فقد أنهيت إلى الجسود أوامر بأن يفرقوا
الشعب الجائع .

ملك : أيها الوزير إنك لاتفعل سوى الخطأ ، إن السبيل المثلى لتفريق
الشعب الجائع الساغب هي تفريقه بالقوت لا بالقوة .

(يدخل الحاجب)

حاجب : أيسمح صاحب الجلالة ؟

ملك : ما الأمر أيها الحاجب ؟

حاجب : لعله أن يروق لصاحب الجلالة أن يعلم أن (سروتي بوشان)
الحكيم مائل هنا ، لقد جاء مصطحباً (كتاب الصلوات) .

ملك : أوه ، أوقفه أيها الوزير أوقفه ، سيبتُّ البلبلة في كل شيء ، لا
تدعه يتقدم إلي هكذا ، فجأة ، ففي لحظة ضعف يمكن أن ألقي
نفسي وقد أصبحت غريقاً في أعماق (اوقيانوس الزهد) ، أيها
الشاعر ، لاتدع لي وقتاً أحمل فيه على هذا الأمر ، افعل شيئاً
ما ، أي شيء . أليديك شيء معدّ تقوم به ؟ أي ملهاة ؟ أي
قصيدة ؟ أي حفلة مقنعة ؟ أي...

شاعر : أجل أيها الملك ، أعددت الشيء اللازم ، ولكن لا أستطيع أن
أقول أهو مأساة ، أم قصيدة أم حفلة مقنعة .

ملك : ترى أكون في وسعي أن أفهم ما كتبت ؟

شاعر : لا ، أيها الملك ، إن ما يكتبه الشاعر لا يرمي إلى أن يتضمن
معنى ما .

ملك : إذن فالأم يرمي ؟

شاعر : إلى أن يتضمن الجرس الموسيقي نفسه .

ملك : ماذا تعني ؟ ألا يتضمن ما ينظمه فلسفة ما ؟

شاعر : لا ، لا يتضمّن ذلك والحمد لله .

ملك : إذن ، فماذا يقول هذا الشعر ؟

شاعر : إنه يقول : « إنني موجود » . أتعرف معنى الصرخة الأولى التي يطلقها الطفل الوليد ؟ إنّ الطفل يسمع حين يولد صرخات الأرض والماء والسّماء التي تحيط به تهتف له كلّهُ : « إننا نوجد » ويجب قلبه الضئيل الصغير صارخاً بدوره : « إنني موجود » . إنّ شعري شبيهٌ بصرخة هذا الطفل الوليد ، إنه جوابٌ عن صرخة الكون .

ملك : أليس هو بأكثر من هذا أيها الشاعر ؟

شاعر : لا ، ليس هو بأكثر من هذا ، إنّ في نشيدي حياةً تهتف : « في الفرح والحزن ، في العمل والراحة ، في الحياة والموت ، في الإنتصار والإندحار ، في هذه الدنيا وفي الآخرة ، كلّ شيءٍ يهتف : « إنني موجودٌ » .

ملك : حسن ، أيها الشاعر ، في ميسوري أن أوكد لك ، أن مسرحيتك لن تصبح ، إنّ لم تحوِ فلسفةً ما ، مثلاً يحتذى في أيامنا هذه .

شاعر : إنّ هذا لصحيح ، أيها الملك ، إنّ الرغبة الجديدة ، في هذا العصر الحديث هي إلى الجمع والتكديس أكثر تشوّفاً منها إلى الإيجاد . إنّها في جيلها هذا ، أوسع فطنةً من أطفال النور .

ملك : من الذين سندعوهم إذن ، ليحضروا الحفلة ؟ هل ندعو طلبة مدرستنا الملكية الشباب ؟

شاعر : لا ، أيها الملك ، إنهم يجرحون الشعر بمنطقهم ، إنهم كالأيل الأروق^(١) الفتى الذي يجرب أن ينطح بقرنيه الصغيرين مزاهر الورد .

الملك : اذن فمن ادعو ؟

الشاعر : ادع أولئك الذين وخط الشيب شعرهم .

الملك : ماذا تعني أيها الشاعر ؟

الشاعر : إن شبيبة من أدركوا منتصف العمر هي شبيبة التجرد ، لقد

خوّضت في أمواه اللذة وجازتها ، واستشرفت منظر أرض الهناء

الصافية ، إنها لاترغب في التهام الثمرة بل في إنتاجها .

الملك : أنا ، على الأقل ، قد بلغت عمر التبصر ، وأضحى لزماً علي أن

يكون في وسعي تذوق أغانيك ، هل ادعو الجنرال ؟

الشاعر : أجل ، ادعُه .

الملك : والسفير الصيني ؟

الشاعر : ادعُه أيضاً .

الملك : سمعتُ أن حميَّ بسبيل المجيء .

الشاعر : حسنٌ ، ادعُه أيضاً ، ولكن تخالجنى الشكوك في أولاده

الشبان .

الملك : ولكن لا تنسَ ابنته .

الشاعر : لا يأخذنك القلق من أجلها ، إنها تعمل على ألا تُنسى .

الملك : (سروتي بوشان) هل أدعوه ؟

الشاعر : لا أيها الملك ، لا تدعُه ، على التأكيد ، إنني لا أكن له أي

موجدة ، فلم اقتص منه ؟

الملك : حسنٌ أيها الشاعر ، لك أن تنصرف ، اذهب وقم بإعداد

المسرح .

الشاعر : لا ، أيها الملك سوف نقوم بهذه المسرحية ، دون أي استعداد

خاص . إن الحقيقة تبدو مزيفة حين يُغالى في تزيينها .

الملك : ولكن ، أيها الشاعر ، ينبغي أن تكون هناك ستارة خلفية .

الشاعر : لا ، سوف يكون الذهن ستارتنا الخلفية ، وسوف تنفضُ عصا
الموسيقا السحرية ، الصورة على صفحته .

الملك : أياكون في المسرحية أناشيد ؟

الشاعر : أجل ، أيها الملك ، سوف يُفتحُ باب كل فصل ، بمفتاح
موسيقي .

الملك : وما موضوع هذه الأناشيد ؟

الشاعر : تعرّي الشتاء .

الملك : ولكن لم نقرأ أيها الشاعر هذه القصة في علوم الأساطير .

الشاعر : سينظّم هذا النشيد بدوره في أسطورة العالم ، ففي كل عام
ينحسر في مسرحية الفصول قناعُ الرجل الشيخ : الشتاء .
ويتراءى محيا الربيع في تمام رونقه ، وهكذا فإننا نرى أن
القديم هو جديدٌ دوماً .

الملك : حسنٌ أيها الشاعر إننا متفقون أحسنَ إتفاق على الأناشيد ،
ولكن ما لديك بشأن ما تبقى ؟

الشاعر : إن ما تبقى كل يتصل بموضوع الحياة .

الملك : الحياة ؟ ما هي الحياة ؟

الشاعر : يترادف موضوعها على النحو التالي : عصابةٌ من الفتيان يمضون
ليلحقوا برجلٍ شيخٍ نذروا على أنفسهم أن يمسكوا به ثم
يدخلون غاراً فزع إليه ، ويقبضون عليه ثم...

الملك : ثم ماذا ؟ . ماذا رأوا ؟

الشاعر : آه سوف يذكر هذا في أوانه .

الملك : ولكن ، لم أفهمُ أمراً واحداً : ترى أياكون لمأساتك وأناشيدك
الموضوع نفسه أم موضوعاتٌ مختلفة ؟

الشاعر : الموضوع نفسه . أيها الملك ، إن دور الربيع في الطبيعة هو

الدور المقابل الذي يلعبه الشباب في حياتنا . لقد نهبت الموضوع في يسر ، من المأساة الغنائية التي نظمها شاعر الكون .

الملك : ومن هم إذن الأشخاص الذين يسرون ؟

الشاعر : أحدهم يدعى السرقة

الملك : ومن هو الآخر ؟

الشاعر : هو الآخر شاعر آخر هو

الملك : من هو ؟

الشاعر : هو الذي يجعل الحياة محبةً إلينا .

الملك : ومن هناك أيضاً ؟

الشاعر : هناك (دادا) الذي يرى أن الواجب لا الفرح هو جوهر الحياة .

الملك : أهنأك آخرون ؟

الشاعر : أجل المنشد الضريع .

الملك : الضريع ؟

الشاعر : لأنه لا يرى بعينه بل بكيانه كله ، بفكره كله ، بروحه كلها .

الملك : ومن هناك أيضاً في مسرحيتك بين الممثلين الرئيسيين ؟

الشاعر : أنت أيها الملك .

الملك : أنا .

الشاعر : أجل ، لأنك إن مكثت بمنأى عن المأساة ، بدلاً من المشاركة

فيها فإنَّ الملك قد يعاود الجور على الشاعر ، ويعاود استدعاء

(سروتي بوشان) . ولن يكون ، بعد هذا ، أي أمل في نجاته ،

وقد يندحر شاعر الكون نفسه ، ويتعين على ريح الربيع

الجنوبية أن تنكفيء دون أن تظفر بتحيةٍ ولانها .

الفصل الأول

(بُشراء الربيع منتشرون في جميع الأرجاء ، تتناهى أغار من بين أوراق البامبو المرتعشة وأعشاش الطيور والأغصان المزهرة) .

- مقدمة النشيد -

(يرتفع الستار القرمزي الثاني^(١) حاسراً عن الجزء العلوي من مؤخرة المسرح ، ومظهراً قاعاً سماوياً ذا زرقة شديدة ، يتراءى فوقه قرنُ الهلال ونقاط النجوم الفضية . تقوم ، على وصيد المسرح الأمامي ، شجراتٌ يصل فيما بينها حبلاً أرجوحة مكلّلة بالزهور . في جميع الأركان أزهارٌ منورة ، وفي أقصى اليسار ، يظهر مندخل غار معتم . فتیانُ يحاكون أشكال البامبو وهم يترجّحون) .

(١) لا يسحب الستار القرمزي الثاني ولاستار المسرح ، أثناء تمثيل المسرحية . يؤدي التمثيل في مقدمة المسرح أو في مؤخرته ، وتكون الأخيرة معتمّة ، حين لا تستعمل .

نشيد البامبو

إيه أيتها الريح الجنوبيّة ، أيتها الجوّالّة ، تعالي وهدديني .
أيقظيني ، في نشوة الأوراق الغضّة .
أنا شجرة البامبو ، انتظر الى جانب الطريق لهاثك .
لأدع الحياة توسوس بين أغصاني .
إيه أيتها الريح الجنوبيّة ، أيتها الجوّالّة ، إنّ مسكني هو نهاية الدرب .
إنني أعرف تجوابك ولغة خطاك ،
إنّ أصغر لمسة منك ترعشني وتوقظني من نعاسي ،
إنّ همسك يحصد أسراري .

(تدخل فرقة من الفتيات ، يرقصن
ويحاكين أشكال الطير)

نشيد الطير

السّماء تهرق نورها في قلوبنا .
فنفعمُ السّماء بالأغاني ردّاً عليها ،
إننا نرشق السّماء بنغماتنا ،
حين يهيج الهواءُ أجنحتنا بجنونه .
إيه يا شعلّة الغابة
إنّ مشاعلَ زهورك كلّها ملتهبة .

لقد لثمتِ أغانينا اللاهبةً بشغفِ شبابكِ .
وتدفعِ براعمُ المانجو ، في نسيمِ الربيع ، برسالتها الى المجهول ،
ويتعالى همس أحلام الأوراق الفتية ، طوال النهار ،
إيه أيها الربيع ، لقد ألقيتَ بشبكة أريجك حول قلوبنا ، وسَحَبْتَهَا بَيْنَ
الأغاني .

(يتراءى بين أغصان الأشجار وهي تضاء
فجأة ، فتیانُ يحاكون زهورَ الشامباك)

نشيد برعم الشامباك المنور

إنّ ظلي يرقص فوق مويجاتك ،
أيها النهر المتدفق دوماً ،
إنني أنتصب ، أنا برعم الشامباك المنور . ثابتاً لأريم ، على الشاطئ ،
مع زهوري الساهرة .
إنّ حركتي تختبئ ، في سكون أعماقي .
في عذوبة ميلاد الأوراق الغضة .
في فيض الزهور .
في الإندفاع الخفي من الحياة الجديدة نحو النور ،
إنّ هزتها ترعش السماء ، وتحرك صمتَ الفجر .

(الصباح)

(تشيع العتمة في مؤخرة المسرح ، يتألق النور في مقدمته ، تدخل جماعة من الفتيان - يتراوح عددهم بين الثلاثة والثلاثين - وهم ينشدون)

إنّ نار نيسان تطفر من غابةٍ الى غابةٍ ، متوامضةً ، منتفضةً ، أوراقاً وزهوراً ،

من جميع الأنحاء والأركان ،
السّماء خيرةً إذ تبذل ألوانها ،
والفضاء يهذي بالأغاني ،
وأغصان الغابة التي تعبت بها الريح ،
تريقُ قلقها في دمنّا ،
الفضاء مفعمٌ بذهول الغبطة ،
والنسيمُ يعدو من زهرةٍ الى زهرةٍ ، سائلاً عن أسمائها .

فتى : إنّ نيسان يجذب بشدةٍ يا أخي .

فتى آخر : كيف تبين لك ذلك ؟

فتى آخر : لو لم يفعل ذلك لما أتيحَ له أن يجذب (دادا) ويخرجه من غاره .

فتى آخر : حسنٌ ، إنني أعلن : ها هو ذا (دادا) قارئنا الموسقُ بالحِكم الخلقية ، يُجرُّ في اتّجاةٍ مخالفٍ لمسيل قلمه ومداده .

شاندرا : ولكن ينبغي لك ألا تعزو الفضلَ كلّهُ لنيسان ، فإنني أنا (شاندرا) . قد خبأت الأوراقَ الصفراءَ من مخطوطة كتابه بين

البراعم الغضة من غابة (بيال) . وإنّ (دادا) بسبيل البحث عنها .

فتى : أتكون مخطوطة كتابه قد ضاعت ؟ ياله من تخلّص حسن!

فتى آخر : علينا أن نسلب (دادا) معطف فلسفته الرماديّ أيضاً .

شاندر : أجل ، إنّ تراب الأرض يرتعش فتوةً ، ومع ذلك فليس ثمة لمسة واحدة من لمسات الربيع في جسد (دادا) كلّه .

دادا : أوه ، أوقفوا هذا الجنونَ ، أيّ أذى تلحقونه بأنفسكم! لم نعد نحن أطفالاً .

شاندر : (دادا) ، إنّ عمرَ هذه الأرض ليس بأصغر من عمرك ، ومع هذا فإنها لا تتخل من أن تتراءى في ميعة الصبا .

فتى : (دادا) ، إنّك تجهد نفسك ، دوماً ، برباعياتك هذه المملأى بنصحٍ قديمٍ قدّم الموت ، فيما تجد الأرض والماء في أن يظلاً فتبين .

فتى آخر : (دادا) . كيف تستطيع في الدنيا أن توالي نظمَ أشعارٍ كهذه وأنت قابعٌ في غارك ؟

دادا : حسن ، إنني لا أستنبت القصيد كما يُستنبِتُ البستاني الهاوي أزاهيره ، فإنّ قصائدي تتضمّن مادتها وقيمتها في ذاتها .

فتى : أجل ، إنّها كنباتِ اللّفت المتشبّث بأديم الأرض .

دادا : حسنٌ ، اصفوا إليّ اذن .

فتى : يا له من أمرٍ مفزع! هاهو ذا (دادا) ينطلق ، هانجاً ، هانماً مع رباعياته .

فتى آخر : أوه ، ايها العزيز ، لقد تُركت الرباعيات ، سائبةً ، وليس ثمة وسيلةٌ لإيقافها .

فتى آخر : لقد انهيت الى السابلة كافّةً ، تحذيراً بأن رباعيات (دادا) قد

أضحت مجنونة ، وأنها تعدو هانجة .

شاندر : (دادا) ، لا تُعَنَ نفسكَ بمزاحهم ، وتابع قراءتك . إذا لم يقدرُ أحدٌ على تحمّلها ، فأحسب أنني قادرٌ على ذلك ، لست أنا بجبان كهؤلاء الأشخاص .

فتى : تعالَ ، إذن ، يا (دادا) ، لا نودُ أن نُضحى جبناءً ، سوف نلزم مكاننا ، لانحرف عنه مقدارَ بوصةٍ واحدةٍ ، بل نأخذ في الإصغاء إليك ليس غير .

فتى آخر : سوف تتلقَى طعناتٍ رماحٍ رباعياتك في صدورنا لا في ظهورنا .
فتى آخر : ولكن ، حنانيك يا (دادا) ، هلاً تلوت علينا رباعيةً واحدةً وحسب ؟

دادا : حسنٌ ، أصغوا ، الآن :

إذا كانت قصبات البامبو تصلح أن تكون ناياتٍ فحسب ، فقد تذوي وتموت من الخزي الشديد .

إنّها تثلُع رؤوسها ، عالياً ، نحو السماء ، لأنّها ذاتُ منافعٍ جمّةٍ مختلفةٍ .

فتى : عفواً إليكم ، أيّها السادة ، لاتضحكوا ، ولوذوا بالصبر ، فيما أفسّر لكم . المعنى هو...

فتى آخر : المعنى ؟

فتى آخر : لماذا ؟ ترى ، أينبغي أن يلي هجومُ جيش المعنى قصفَ مدافع رباعياتك ، حتّى تتمّ الغلبة ؟

دادا : ثمة كلمةٌ واحدةٌ وحسب ، تحملكم على الفهم ، إنّها تعني أنه إذا كانت قصبات البامبو ليست بأفضل من تلك الآلات الصاخبة...

فتى : لا ، يا (دادا) ، ليس علينا أن نفهم .

فتى آخر : إنني أتحداك بأن تجعلنا نفهم .

فتى آخر : (دادا) ، إن فزعت الى القوة لحملنا على الفهم ، فلسوف نلجأ الى القوة لنقسر أنفسنا على ألا نفهم .

دادا : إن موضوع الرباعية هو : إن لم نفعل الخير للعالم فإن...

فتى : فإن العالم يفرّج عنه آنذاك ، أعظم تفريج .

دادا : ثمة أبيات ، تجلو ذلك على نحو أوضح هي :

في سماء منتصف الليل ، نجومٌ شتى ،

معلقةً بالفضاء ، دون أيما هدف ،

إذا شاءت أن تهبط الأرض ،

ففي ميسورها أن تضحي مفيدة في إنارة الطريق .

فتى : أرى أن واجبنا جعل المعنى أكثر وضوحاً ، اقبضوا عليه ، ولندعه

ينتصب ، ناهض الكتفين ، ولنعد به الى غاره .

دادا : لماذا أنتم اليوم هائجو الأعصاب ، هكذا ، هل لديكم عملٌ

خاصٌ تقومون به ؟

فتى : بلى ، لدينا ، في الحق ، عملٌ عاجلٌ جداً .

دادا : وما عملكم هذا ؟

فتى : إنا نبحث عن مسرحية ، نمثّل فيها ، في مهرجاننا ، مهرجان

الربيع .

دادا : لعبوا ليلَ نهار ، لعبوا .

(ينشدون)

لقد تحرّرنا يارفاقي ، من الخوف من العمل ،

لأننا نعلم أن العمل هو لعب ،

لعب الحياة .

إنه للعبُّ أن نكافحَ ونندفع ،

بين الحياةِ والموت ،

إنه للعبُّ ذاك الذي يتألق ، في ضحكةِ النور المترققة في القلب

اللانهاني ،

إنه ليزأر في الريح .

ويرغي ، مزبداً ، في البحر .

فتى : أوه . ها هو ذا مُرشدنا قادم ، يا إخواني ، . ها هو ذا

مُرشدنا . ها هو ذا مُرشدنا .

المرشد : تحيّي لكم ، أيّ ضجّة تثيرون!

فتى : أهذا ما حمّلك على الخروج من الأبواب ؟

المرشد : أجل .

فتى : حسنٌ ، لقد قمنا بها ، لهذه الغاية .

المرشد : ألا تريدون أن أظللّ حُلسَ بيتي ؟

فتى : ولماذا تظلّ حُلسَ بيتك ؟ إنّ العالمَ الخارجي قد صُنِعَ من البذل

السخي الذي تزجيه الشمس والقمرُ والنجومُ ، فذرنا نستمتعُ

به ، ليكون في وسعنا أن نعذرَ الله في الإغضاءِ عن مثل هذا

البذل والإسراف .

المرشد : بِمَ تتحدّثون ؟

الفتية : بما يلي :

(ينشدون)

اللعبُ ينورُ زهراً

ويُنضجُ ثمرأ

في أشعةِ شمسِ الشباب الخالد .

اللعب يتفجّر ، في النار الحمراء كالدم ،

ويحيل التفسّخ والموت الى رماد .

فتى : إنّ اعتراض (دادا) يدور حول هذا اللعب .

دادا : أأقول لكم السبب في ذلك ؟

الفتية : أجل ، يا (دادا) في وسعك أن تقوله لنا ولكننا لا نعيّدك بالإصغاء .

دادا : ها هو ذا :

الزمن هو رأسمال العمل ،

واللعب هو اختلاسه ،

اللعب ينهب الدار ثمّ يتلف ماسلبه ،

لهذا فإنّ العاقل يسمّيه بأنه سيّء أكثر ممّا هو عديم النفع .

شاندرا : من المؤكّد يا (دادا) أنّك تتكلّم هراء ، إنّ الزمن نفسه هو لعب ، إنّ هدفه هو تزجية الفراغ وحسب .

دادا : ما العمل إذن ؟

شاندرا : العمل هو الغبار الذي ينعقد ما مرّ الزمن .

دادا : أيّها المرشد ، عليك أن تذكر لنا أجوبتك .

المرشد : لا ، لن أذكر لكم أيّ جواب ، ولكنني أسوق سؤالاً ، جواباً عن سؤال آخر ، هذا هو نهجي في الإرشاد .

دادا : إنّ لكلّ شيء حدوداً ، ولكن ليس لأعمالكم الغريزة حدود البتّة .

فتى : أتعلم السبب ؟ لأننا ، في الواقع ، لسنا سوى أطفال ، وأنّ لكلّ شيء - فيما عدا الطفل - حدوداً .

دادا : أفما تدركون سنّ الرشد ؟

فتى : لا . لن ندرك هذا السنّ أبداً .

فتى آخر : سوف نموتُ شيوْحاً ، ولكنْ لن ندركَ سنَّ الرشد أبداً .
شاندرا : حين نقابل سنَّ الرشد . فلسوف نحلق رأسها ، ونضعه على حمارٍ ونبعث به عبر النهر .
فتى : أوه ، تستطيع أن تتجنَّب الإزعاج الذي يصيبك ، في خلقِ رأس سنَّ الرشد ، فإنَّ هذا الرأسَ أصْلُعُ .

(ينشدون)

إنَّ شَعْرَنَا لن يَخْطَهُ الشيبُ أبداً .
أبداً .

ليس ثمَّ بياضٍ من أجلنا في الدنيا .
ولاحفرةٌ في طريقنا .
لعلَّ الذي تتبعه أن يكون وهماً .
ولكنه لا يضلُّنا أبداً .
أبداً .

(المرشد ينشد)

إنَّ شَعْرَنَا لن يَخْطَهُ الشيبُ أبداً .
أبداً .

لن نشكَّ في العالم ، ولن نغمض عيوننا لنذكر أبداً . أبداً ،
لنتلمَّس متاهةً فكرنا ،

سوف نتدفَّق ، مع فيضان الأشياء ، من الجبل الى البحر .
ولكنْ لن نضلَّ في الصحراء الرملية أبداً ، أبداً .

فتى : يبدو من مظهر (دادا) أنه سوف يسعى ذات يوم الى الرجل الشيخ ، ليتلقَى منه دروسه .

- المرشد : أي رجل شيخ ؟
- فتى : الرجل الشيخ المتحدّر من سلالة آدم .
- فتى آخر : إنه يسكن في غار ، ولا يفكر في الموت البتّة .
- المرشد : أين اتّصل علمكم به ؟
- فتى : اوه ، كلّ إنسان يتحدّث عنه ، وقد أشارت اليه الكتب أيضاً .
- المرشد : أي شيء يشابه ؟
- فتى : بعضهم يقول إنه أبيض كجمجمة رجل ميت ، وبعضهم يقول إنه أسود كوقب عين هيكلي عظمي .
- فتى آخر : ولكن ، ألم يتأدّ إلى سمعك أخبارٌ عنه أيّها المرشد ؟
- المرشد : إنني لا أؤمن به أبداً .
- فتى : حسنٌ ، إنّ هذا ليناقض كلّ التناقض الرأى السائد بأنّ هذا الرجل الشيخ هو أثبت وجوداً من أي شيء آخر . إنه يحيا ضمن ضلوع الخلق .
- فتى آخر : أخذاً برأى حكيمنا فإننا نحن الذين لا نحظى بالوجود ، فليس في وسعك التأكّد من أننا كائنون أو غير كائنين .
- شاندرا : نحن ؟ إننا معاً جديدون أعظم الجدة ، ولم نتلق بعد أوراق اعتمادنا التي تبرهن على أننا موجودون .
- المرشد : ألم تمضوا حقّاً وتعقدوا صلة وثيقة مع الحكماء ؟
- فتى : لماذا ؟ وأي ضرر في ذلك أيّها المرشد ؟
- المرشد : إنّ وجوهكم سوف تشحّب كضباب الخريف الأبيض ، وإنّ آخر أثر من لون الدم سوف يزول من دماغكم . إنّ لديّ اقتراحاً .
- فتى : ما هو أيّها المرشد ، ماهو ؟
- المرشد : ألم تكونوا بسبيل البحث عن مسرحيّة ؟
- فتى : أجل ، أجل ، إنّنا نبحث عنها في لهفّة متّقدّة .

فتى آخر : إننا نفكر فيها ، على نحوٍ عنيفٍ ، أهَابَ بالناس أن يبادروا الى بلاط الملك ، ليسيّطوا له شكائهم .

المرشد : حسن ، أستطيع أن أقترح عليكم مسرحيّة ذات موضوعٍ مستجد .

فتى : ماذا ؟ ماذا ؟ قلّ لنا .

المرشد : أمضوا وأسروا الرجل الشيخ .

فتى : إنّ هذا لجديدٌ . لاشكّ في ذلك ، ولكننا نشك كثيراً في أن تكون هذه مسرحيّة .

المرشد : أنا واثقٌ بأنكم لستم أهلاً للقيام بها .

فتى : لسنا أهلاً لذلك ؟ . إننا سنقوم بها .

المرشد : لا ، لن تستطيعوا ذلك أبداً .

فتى : حسنٌ ، لنفترض أننا عمَدنا الى أسره ، فماذا تمنحنا ؟

المرشد : سوف أقبل كلاً منك معلماً لي .

فتى : معلماً ؟ أنت تريد أن يخطّ الشيبُ شعرنا . وأن نصبح

باردين ، شيوخاً قبل أواننا ؟

المرشد : إذن ماذا تريدون مني أن أفعل ؟

فتى : إنّ أسرناه فلسوف ننزع عنك القياد .

المرشد : سيكون في ذلك لي تفريجٌ كبيرٌ ، فقد جعلتم عظامي كلها

مفكّكةً ، حسنٌ لقد تقرر كل شيء .

فتى : أجل ، لقد تقرر ، سوف نقدّم به إليك ، حين يكتمل بدرُ الربيع

المقبل .

فتى آخر : ولكن ماذا سنفعل به ؟

المرشد : سوف تدعونه يشارككم في مهرجان الربيع .

فتى : أوه ، لا ، إنّ في ذلك لمهانةٌ كبيرةٌ ، فإنّ زهور المانجو سوف

تستحيل على الفور الى بذر .

فتى آخر : وسوف تضحي طيورُ الوقواق كُلّها بوماً .

فتى آخر : وسوف يذهب النحل منشداً شعراً سنسكريتياً ، مالئاً الفضاء
بالطين المدوّي : مشسٌ - نسسٌ .

المرشد : وسوف تصبح جمجتكم ثقيلةً بالفطنة ، الى حدّ تجدون فيه
مشقةً لتستمسكوا على أرجلكم .

فتى : يا للهول!

فتى آخر : لسوف تُصاب مفاصلكم كُلّها بالرثية^(١) .

فتى آخر : يا للهول!

المرشد : سوف يصبح الواحد منكم الآخ الأكبر للآخر ، فيما يشدّ
بعضكم آذان بعضٍ ، لتحملوا أنفسكم على الجلوس في
استقامة .

فتى : يا للهول!

المرشد : وسوف...

فتى : كفى « سوف » . إننا مستعدّون للاستسلام .

فتى آخر : سوف تتخلّى عن لعبتنا الخاصة بأسر الرجل الشيخ .

فتى آخر : سوف نرجئها الى مقدم الطقس البارد ، فإنّ صحبتك في هذا
الوقت الربيعي سوف تكفينا .

المرشد : آه ، لقد عرفت ، إنكم ظفرتم برعشة الرجل الشيخ تسري في
عظامكم .

فتى : لماذا ؟ وما علامات ذلك ؟

المرشد : ليس لديكم الحماسة ، أنتم تنكفئون على أعقابكم ، منذ

البداية . لِمَ لاتعمدونَ الى التجربة ؟

فتى : حسنٌ ، إننا متفقون ، هيا بنا .

فتى آخر : لنمضِ خلفَ الرجل الشيخ ، سوف نقتلعه ، كما نقتلع الشعرَ الشائبَ ، حيثما وجدناه .

المرشد : ولكنَ الرجلَ الشيخَ بارعٌ في أمورِ الإقتلاع ، وأحسنُ سلاحَ لديه هو المعول .

فتى : لستَ بمحتاجٍ الى محاولة إخافتنا ، على هذا النحو ، فإنَ علينا حينَ نستعد للإقدام على مغامرة ، أن نرمي ظهرياً ، بالخوف كله ، بالرباعيات كلها ، بالحكماء كلهم ، بالأسفار كلها .

(ينشدون)

إننا ماضون في طريقنا ،

لا نخشى اللص : الرجلَ الشيخَ ،

إنَ طريقنا مستقيمةٌ ، فسيحةٌ .

إنَ عبئنا خفيفٌ ، لأنَ جيوبنا خاوية ،

من ذا الذي يستطيع أن ينهب منّا جيوبنا ؟

إننا لا نألف الراحة ولا نستمرى الدعة ،

ولا يهمنّا الثناء ولا النجاح .

إننا نرقص على إيقاع ارتفاع الحظّ وانخفاضه .

إننا نلعب لعبتنا ، سواء أخسرنا أم ربحتنا ،

ولانخشى اللص .

الفصل الثاني

(بشراء الربيع يحاولون أن يسلبوا الشتاء ثيابه
الليسة)
(المسرح الخلفي منير ، يكشف عن الشتاء ،
الشيخ ينال منه الفتية والفتيات الذين يحاولون
بلباسهم بشراء الربيع)

نشيدُ بِشراءِ الربيع

إننا نبحثُ عن رفاقنا في اللعب ،
موظفين إيّاهم من كلّ الأرجاء ،
قبل منبلجِ الفجر ،
إننا نناديهم ، بتغريدِ الطيور ،
ونشير إليهم بهزّ الأغصان ،
وننفضُ لهم سحرنا ،
في روعةِ السحب ،
إننا نضحك من الموت المهيّب ،
رجاءً أن ينضمّ الى ضحكنا ،

إننا نمزّق جراب الزمن ،

نظفر منه بسلبه .

إيه أيّها الشتاء ، سوف تفقد قلبك لتهبه لنا ،

ولسوف يتألق في الأوراق المرتعشة ،

ويتحطم في الأزاهير .

نشيد الشتاء

دعوني أذهب ،

إنني أنصب شراعي لزمهرير الشمال ، لسلام الشواطئ المتجمّدة .

إنّ ضحككم ليست في حينها يارفاقي ،

إنكم تحيلون ألحان الوداع إلى أغنية مرحبة بالقدام الجديد ،

ولكن الأشياء كلّها ، عاودت دفعها بي الى حلبة الرقص القائمة في

قلوبها .

نشيد بُشراء الربيع

نحن عيون الحياة ، نكمن متربّصين في كلّ مكان ، إننا ننتظر أن نسلبك

الوفر الأخير من الساعات الذابلة ، لنبدّده في مهبّ الرياح الشكسة ،

سوف نوثقك بسلاسل من الزهر ،

حيث يحرس الربيعُ أسراه .

لأننا نعلم أنّك تحمل حليّك ، حلي الصبا ،

الخبّيء خلف أسمالك المغبرة .

الظهيرة

(المسرح الخلفي مظلم ، يدخل رهط من الفتيان من المسرح الرئيسي . ليس هناك ضرورة لتغيير في التزويق المسرحي (الديكور) فقد ترك لخيال النظارة أن يتمثله)

فتى : أيها المُجيز^(١) ، أيها المُجيز ، إفتح بابك .

المجيز : ماذا تريدون ؟

فتى : نريد الرجلَ الشيخ .

المجيز : أي رجلٍ شيخٍ .

فتى : لا نريدُ أيَّ رجلٍ شيخٍ ، نريدُ الرجلَ الشيخَ .

المجيز : من هو ؟

فتى : الرجل الشيخَ الحقيقيَّ الأصلي .

المجيز : أوه ، فهمت ، لِمَ تريدونه ؟

فتى : لمهرجاننا ، مهرجانَ الربيع .

المجيز : لمهرجان الربيع ؟ ها جُنتم ؟

لم نصبح كذلك فجأة ، فقد كنّا على هذا النحو ، منذ البدء ،

وسنبقى على هذا النحو حتّى النهاية .

(ينشدون)

إنّ الزّمار ينفخ في نايه في بُهرة الحلقة ،

(١) المجيز : الذي ينقل الركاب بزورقه أو بممبره من عدوة النهر الى العدوة المقابلة .

متوارياً عن النظر ، وقد عصف بنا الهياج ،

وجعلنا نرقص ،

وَأَلَمَ بِرِيحِ آذَارِ الْجُنُونِ .

فَأَخَذَتْ تَعْدُو وَتَدُورُ وَتَتَرَجَّحُ مَعَ الْأَغْصَانِ الصَّاخِبَةِ ،

إِنَّ الشَّمْسَ وَالنَّجْمَ قَدْ قُذِفَ بِهَا فِي دَوَامَةِ الْحُبُورِ .

فتى : هَلَّا ذَكَرْتَ لَنَا ، الْآنَ ، أَيُّهَا الْمُجِيزُ ، أَخْبَارَ الرَّجُلِ الشَّيْخِ .

فتى آخر : إِنَّكَ تَمْضِي بِمَعْبَرِكَ^(١) مِنْ مَرَسَى شَاطِئِ ، إِلَى مَرَسَى آخَرٍ ، لَا

رَيْبَ أَنَّكَ تَعْرِفُ أَيْنَ...

المجيز : إِنَّ عَمَلِي مَقْصُورٌ عَلَى الْمَرَمَرِ فَحَسَبَ ، أَمَّا أَيُّ مَرَمَرٍ هَذَا ، وَمَاذَا

يَعْنِي ، فَلَمْ تُسْنَحْ لِي فُرْصَةً بِأَنْ اسْتَوْضَحَ ذَلِكَ ، إِنَّ هَدْفِي هُوَ

مَرَسَى الشَّاطِئِ لَا الْبَيْتَ :

فتى : حَسَنٌ ، لِنَمْضِ ، وَلِنَجْرَبَ السَّيْرَ فِي السُّبُلِ كُلِّهَا .

(يَنْشُدُونَ)

إِنَّ الزَّمَانَ يَنْفَخُ فِي نَايِهِ فِي بُهْرَةِ الْحَلَقَةِ ، مَتَوَارِياً عَنِ النَّظَرِ .

آه ، يَا لِلنَّغْمِ الْهَانِجِ الَّذِي تَرْقِصُ عَلَى إِيقَاعِهِ الْبُحُورَ الْكُبْرَى!

وترقص قلوبنا الخفاقة .

اقذف بالأعباء الكبرى والهموم يا أخي ،

وَلَا تَأْخُذْكَ الرَّيْبَةُ فِي طَرِيقِكَ ،

فَإِنَّ الطَّرِيقَ نَفْسَهَا تَتَضَحَّحُ .

تَحْتَ حُطَا الْحَرِيَّةِ الرَّاقِصَةِ :

المجيز : هَا هُوَ ذَا الْعَاسِ^(٢) ، سَلِّهِ ، أَنَا أَعْرِفُ أُمُورَ الطَّرِيقِ ، وَهُوَ يَعْرِفُ

(١) المعبر : ما يعبر به النهر .

(٢) العاس : العارس الليلي .

أمور عابري النهر .

العاس : من أنتم ؟

فتى : نحن من ترانا ليس غير ، هذا هو وصفنا وحسب .

العاس : ولكن ماذا تريدون ؟

فتى : نريد الرجل الشيخ .

العاس : أي رجل شيخ هذا ؟

فتى : الرجل الشيخ الأبدي .

العاس : ياللعجب! بينا أنتم تبحثون عنه ، يسعى هو في أعقابكم .

فتى : لماذا ؟

العاس : إنه يجب أن يدفع، دمه المتبردَ بخمر الشباب الحارة .

فتى : إننا نُعدُّ له استقبلاً حاراً ، إن كل مانريده هو أن نراه ، هل رأيته ؟

العاس : إن حراستي تتم في الليل ، إنني أرى مواطني ، ولكنني لا أعرف قسما وجوههم ، ولكن انتبهوا ، إن الجميع يعرفون أن الرجل الشيخ خطافٌ كبير ، فيما تريدون أنتم اختطافه . هذا منتهى الجنون .

فتى : لم يعد هذا سرّاً خبيئاً ، إذ لا يستدعي الأمرُ أمداً طويلاً ، ليكتشف أننا مجانين .

العاس : أنا الحارس الليلي ، إن الناس الذين أراهم ، في مدى الدرب ، يتشابهون كل التشابه ، لهذا فإما لمحت شيئاً عجيباً فإنه يصدمني ناظري دوماً .

فتى : اصغوا إليه ، إن النخبة المرموقة من جيراننا تُردّدُ هذا الشيء نفسه بأن كلاً منا عجيبٌ .

فتى آخر : أجل إن كلاً منا عجيبٌ ، ليس في الأمر خطأ .

العاس : ولكن هذا كله غرارة طفولية .

فتى : أسمعتم هذا ؟ إنه نفس مايقوله صاحبنا (دادا) تماماً .

فتى آخر : لقد مضينا في ذلك ، مع غرارة طفولتنا ، عبر قرون سحيقة .

فتى آخر : والآن أصبحنا أطفالاً ثابتين .

فتى آخر : ولنا مرشداً هو دَرَبٌ في أمور الطفولة . إنه يندفع ، بكثيرٍ من

الإستهانة ، فيطرح ، عند كل خطوة ، قليلاً من عمره .

العاس : ومن أنتم ؟

فتى : نحن فراشات تحرّرت من فيلجة العمر^(١) .

العاس (لنفسه) : مجانيين ، مجانيين يهرفون .

المجيز : ماذا ستفعلون كلّكم ، الآن ؟

شاندر : سنمضي .

المجيز : الى أين ؟

شاندر : لمّا نقرّر بعد .

العاس : أقرّرتم المضي دون أن تعرفوا الى أين ؟

شاندر : بلى سنقرّر ذلك ونحن ماضون .

العاس : وماذا يعني هذا ؟

شاندر : إنه يعني هذا النشيد :

إننا نمضي ولانني نمضي .

إننا نمضي ، فيما تلمعُ النجومُ الشاردةُ في السّماء ثمّ تشحب .

إننا نعزفُ لحنَ الطريق ،

فيما تنثرُ أعضاؤنا ، حوالينا ، ضحكةَ الحركة ،

ويخف ، في الفضاءِ ، معطفُنا ، معطفُ الصبا ، المصبغُ بشتيت

(١) الفيلجة : بيت من حرير تنسجه دودة القز على نفسها وتعرف عند العامة بالشرنقة .

الألوان .

- العاس : أ تكون عادتكم أن تجيبوا بالأناشيد عن الأسئلة ؟
شاندر : أجل ، وإلا فإنّ جوابنا يضحى غير مفهوم البتّة .
العاس : إذن فأنتم ترون أنّ أناشيدكم مفهومةٌ .
شاندر : أجل ، حقاً ، لأنها تتضمّن موسيقا .

(ينشدون)

- إننا نمضي ولانني نمضي ،
إنّ العالم ، هذا الجوّالة ، يحب رفاق طريقه ،
إنّ نداءه يوافي في السّماء .
إنّ الفصول ترشدنا الى الطريق ، وتفعمّ دربنا بالأزاهير .
العاس : ليس هناك ، كائناتٌ عاديةٌ تغني هكذا ، خلال الحديث .
شاندر : ها نحن أولاء ، نُستجلى من جديد : لسنا بكائناتٍ عادية .
العاس : أليس لديكم عمل تؤدّونه ؟
شاندر : لا ، نحن في عطلة .
العاس : لماذا ؟
شاندر : مخافة أن يتبدّد وقتنا كلّهُ .
العاس : لأفهمكم جيّداً .
شاندر : إذن علينا أن نعاود الغناء .
العاس : لا ، لا ، ليس ثمة حاجة الى ذلك ، لا آمل أن أفهمكم على نحوٍ أفضل ولو تغنّيتم .
شاندر : كلّ الناس تخلّوا عن أملمهم في فهمنا .
العاس : ولكن كيف يمكن أن تسير الأمور لمصلحتكم ما دامت سيرتكم على هذه الشاكلة ؟

شاندرا : ليس ثمة ما يدعو الى أن تطرد الأمور وفق مصلحتنا ما دمنا نسعى نحن اليها .

العاس : إنهم مجانين ، مجانين حقاً ، مجانين يهرفون .

شاندرا : ها هو ذا صاحبنا (دادا) قادم .

فتى : (دادا) ، ما الذي يحملك على التخلف وراءنا ؟

شاندرا : ألا تعلمون أننا أحرارٌ كالريح ، لأنه لا قوام لنا ، ولكن (دادا)

شبيهٌ بسحابة آب الممطرة ، وعليه أن يتوقّف ، بين الفينة

والفينة ، ليخفّف من عبثه .

دادا : من أنت ؟

المجيز : أنا المجيز .

دادا : ومن أنت ؟

العاس : أنا العاس .

دادا : إنني مبتهجٌ برؤيتكما ، أريد أن أتلو عليكم بعض ما كتبت ،

إنه لا يتضمّن أشياء تافهة ، بل يتضمّن أهمّ العبر .

المجيز : حسنٌ هلاً أسمعنا .

العاس : لقد تعود معلّمنا أن يقول لنا : إنه يتوفّر عددٌ جمٌّ من الناس

لترديد الأشياء الحسنة ، ولكن لا يتّسق سوى عدد قليل

للإصغاء اليها ، فإنّ الإصغاء يتطلّب قوة الفكر ، والآن هيّا بنا يا

مولاي ، هيّا اسمعنا .

دادا : ألمح في الشارع أحد الضباط يجرّ تاجراً ، لقد رمى الملك هذا

التاجرَ بتهمةٍ كاذبةٍ ، رجاء أن يستولي على ماله ، لقد أوحى

إليّ هذا بشيء : يجب أن تعرفوا أنني لا أخطّ سطرأً واحداً دون

أن يوحى إليّ به بعض الأحداث الجارية . في مقدوركم أن

تبيّنوا ذلك بشعري ، في الشوارع والأسواق .

المجيز : ارجوك ، يامولاي ، لنستمع الى ما كتبت .

دادا : إِنَّ قَصَبَةَ السَّكَّرِ المَمْتَلَنَةَ بِرَحِيقِهَا ، .

قد اَمْتَصَّهَا ومَضَعَهَا الشَّحَاذُونَ كُلُّهُمْ ،

إِيَّاهُ أَيُّهَا الرِّجَالُ المِجَانِينُ ، خذُوا دَرَسَكُمْ مِنْ هَذَا :

إِنَّ الْأَشْجَارَ الَّتِي سَلِمَتْ هِيَ الْأَشْجَارُ المَثْمُرةُ . سوف تدركون

أَنَّ الإِضْطِرَابَ قد أَلَمَّ بِقَصَبَةِ السَّكَّرِ ، لأنها تحاول أن تحتفظ

بِرَحِيقِهَا ، ولكن ليس ثَمَّةَ إنسان يقطع - مهما يكن مجنوناً -

الشجرةَ التي تؤتي ثمارها بحرية .

العاس : يا لروعة هذه الكتابة! أيها المجيز .

المجيز : أجل ، أيُّهَا العاس ، إنها تتضمَّنُ عبراً جليلاً مفيدةً لنا .

العاس : إنها تزودني بغذاءٍ للتفكير ، لكم وددت لو أَنَّ جَارَنَا الكاتبَ

كان هنا ، فلعلِّي أَن أَسْتَكْتَبُهُ هَذَا . إبعث بشخصٍ يطلب الى

الناس في السَّاحَةِ أَن يجتمعوا .

شاندرأ : ولكنَّكَ قد وعدتَ أَيُّهَا المجيز ، بأن تقدم معنا . إذا شرع

(دادا) بتلاوة رباعياته ، فلسوف...

المجيز : على رسلك ، لامجال لجنونك هنا ، إننا مجدِّدو الحظ بلقاء

معلِّمنا ، دعنا نهتبلُ هذه الفرصةَ فنظفر بالكلمات الطيِّبة ، كلَّنا

بسييل إلى الشيخوخة ، ومن يدري متى سنموت ؟

الفتية : هذا سبب آخر يحملكم على توثيق عرى صحبتنا .

شاندرأ : إِنَّ فِي وسعكم ، دوماً ، الوقوعَ على (دادا) آخرَ ، ولكن ، إمَّا

اخترمتنا المنيَّةُ ، فَإِنَّ الله لن يعاود الخطأ في خلق كائناتٍ غير

مجديَّةٍ مثلنا .

(يدخل الزيات)

الزيات : إيه ، أيها الحارس الليلي .

العاس : من هنا ؟ أنت الزيات ؟

الزيات : إنَّ الطفل الذي كنت أرعاه قد اختطف ، ليلة أمس .

العاس : مَنْ الذي اختطفه ؟

الزيات : الرجل الشيخ .

الفتية (في صوت واحد) : الرجل الشيخ ، إنَّك لا تعني ما تقول .
الرجل الشيخ ؟ .

الزيات : أجل ، أيها السادة ، الرجل الشيخ ، ما الذي جعلكم مسرورين
هذا السرور كله ؟

فتى : إنها عادةٌ سيئةٌ ألفناها ، إننا نُسرُّ دون أيما سبب ؟

العاس (لنفسه) : مجانيين ، مجانيين يهرفون .

فتى : هل رأيتَ الرجلَ الشيخ ؟

الزيات : أحسب أنني لمحته ، من مسافةٍ بعيدةٍ ، ليلة أمس .

فتى : أشبه بمن كان يبدو ؟

الزيات : كان يبدو أكثر سواداً من أخينا الحارس الليلي ، كان أسوداً
كالليل ، وفي صدره كانت عينان تبرقان كقطريين^(١) .

فتى : هذا لا يلائمنا البتة ، فإنَّ فيه مضايقةً وحرَجاً من أجل مهرجاننا
الريعي .

شاندرا : يجدرُ بنا إذن ، أن نبذل تاريخ عيدنا من وقت تمام القمر الى
محاقه ، فإنَّ للقمر ، في محاقه ، عيوناً لا عدادَ لها في صدره .

العاس : ولكن ، أحرِّكم يا رفاقي ، إنَّكم لا تقومون بهذا العمل في
تبصر .

(١) القطرب : دوية تضيء ليلاً .

فتى : لا ، لا نقوم به في تبصر .

فتى آخر : لقد كُشفنا ثانية ، إننا لا نقوم بشيء في تبصر . هذا مخالفٌ لعاداتنا .

العاس : أتأخذون ذلك مأخذ المزاح ؟ أهدركم يا رفاقي ، إن هذا لخطر .

فتى : خطر ؟ هذا خير مزحة بين المزحات كلها .

(ينشدون)

لسنا جدّ صالحين ولا جدّ عاقلين .

هذا كل ما نحن أهل له .

تتعبنا السعاية من أرض الى أرض ،

ويقتفي الخطر خطانا .

إننا نهتم اهتماماً بالغاً بأن ننسى ماتعلمناه ،

إننا نتكلم أشياء مخالفة لما جاء في الكتاب ،

جالبين لأنفسنا الاضطراب ،

والتقريع ممن أوتي العلم .

العاس : سادتي ، إنكم تتحدثون عن مرشدٍ ما ، أين هو ؟ لو أنه كان

معكم لوضعكم في السبيل السويّة .

فتى : إنه لا يمكث بيننا البتّة ، لنلا يضطر الى إبقائنا في السبيل

السويّة .

فتى آخر : إنه يدفعا في طريقنا ، ثم يتوارى .

العاس : إنها لفكرة عميقة في الإرشاد .

شاندرا : إنه لا يعنى البتّة بأمر إرشاده ، لهذا فقد اعترفنا به مرشداً لنا .

العاس : إذن فإن مهمته يسيرة جداً .

شاندرا : ليس إرشاد الرجال مهمةً يسيرةً ، ولكن تسييرهم أمرٌ سهلٌ جداً .

(ينشدون)

لسنا جدّ صالحين ولا جدّ عاقلين .
هذا كلّ مانحن أهلٌ له .

لقد ولدنا في وقتٍ سيّءٍ الطالع ،
حين كان نجم الفطنة أكثر النجوم عتمةً ،
نستطيع ألا نأمل ربحاً من مغامراتنا ،
إننا نسيرُ قُدماً ، لأنّ ذلك واجب علينا .

فتى : (دادا) تعال ، هيا بنا نذهب .

العاس : لا ، لا ، يامولاي ، لاتعرّض نفسك للأذى في صحبتهم .

المجيز : هلاّ قرأتَ لنا يامولاي شعرك ، إنّ جيراننا موشكون أن يصلوا
وسيصيبون فائدةً عميقةً .

دادا : لا ، لن أبتعد قيد خطوةٍ من هنا .

فتى : إذن ، فلنذهب ، إنّ الرجال في الشوارع لا قبِلَ لهم بتحمّلنا .

فتى آخر : لأننا نملؤهم صخباً وضجّةً .

فتى آخر : إنكم تسمعون طنين النحل الانساني ، يفغم منه شَهْدُ رباعيات
(دادا) .

الفتية (في صوت واحد) : إنهم قادمون . إنهم قادمون .

(يدخل رهط من الفلاحين)

فلاح : أحقّاً تُعدُّ ندوةً قراءة ؟ من أنتم ، أمزمعون على القراءة ؟

فتى : لا ، إننا نجترح كلّ أنواع القسوة ، فما عدا هذا النمط وسوف

تحمل إلينا هذه المزية الخلاص .

فلاح : ماذا يقولون ؟ يتراءون كأنهم يتكلمون ألبازاً .
شاندرا : إننا نتكلم أشياء نفهمها نحن أحسن الفهم ، ولكنها تظل ألبازاً
يستغلق عليكم فهمها ، إن (دادا) يردّد لكم أشياء تفهمونها
جيداً ، وإنها لتتجاوب في مسامعكم ، لباباً حقيقياً للفتنة .

(يدخل غلام)

الغلام : لم أستطع الإمساك به .
فتى : من هو ؟
الغلام : الرجل الشيخ الذي تبحثون عنه .
فتى : هل رأيته ؟
الغلام : أجل لقد رأيته يمر ، راكباً عربة .
فتى : أين ؟ في أيّ إتجاه ؟
الغلام : لا أستطيع أن أجلو لكم ذلك ، بدقّة ، فإنّ الغبار المرتفع من
عجال عربته مازال منعقداً في الفضاء .
فتى : إذن فلنمض .
فتى آخر : لقد ملأ السّماء بالأوراق الميتة .

(يخرجون)

العاس : إنهم مجانيين حقّاً ، مجانيين يهرفون .

الفصل الثالث

(مقدمة غنائية)

(الشتاء محسُور القناع - شبابُه

الخيي، يوشك أن يظهر)

(المسرح مضاء ، مظهراً الشتاء وبُشراء الربيع)

نشيد بَشراء الربيع

لكم يبدو وقوراً!

ياله من هرم هُزأة!

كم يتراءى هادئاً مهيباً ، بين معدّات الموت .

تعالوا ، أيها الرفاق ، أعينوه على أن يجدَ نفسه ،

قبل أن يدرك بيته ،

استبدلوا بثوب هجرته ،

ثوبَ شبابه الهازج بالغناء ،

واختطفوا منه جُعبته الحافلة بالأشياء الميتة ،

وأربكوا حساباته .

(جماعة أخرى تنشد)

سوف يأزف الزمن الذي يعرف فيه العالم ،
إنك لن تتواري خلف ظلالك نفسها ،
إن قلبك سوف يتفجر سيولاً ،
منطلقةً من ركام الجليد ،
وريحك الشمالية تلوي وجهها ،
نحو مئوى الأشباح المرفقة ،
هناك يتعالى درداب الطبل السحري ،
ويتنظر الشمس ، وفي نظرتها تشعُّ ضحكة ،
أين ترى الى شعرك الشائب يحول الى لون أخضر .

(المساء)

(المسرح الخلفي مظلم ، النور في المسرح الرئيسي يميل الى العتمة
ويتحول الى لون رمادي أسود) .

(جماعة من الفتية)

إنهم يهتفون جميعاً .
ها هو ذا ، ها هو ذا ، إننا لا نجد حين نبحث عنه ، سوى الغبار
والأوراق الجافة . يخيل إليّ أنني ألمح خفقة راية عربته ، عبر الغيوم .
إن اقتفاء أثره لأمر شاق ، فتحسبُ تارة أنه في الشرق وتحسب تارة
أخرى أنه في الغرب .
وهكذا فإننا تعبنا ، ونحن نتبع الظلال طوال النهار ، وكذلك تبدد
النهار .

أقول لك الحقيقة ، إنَّ الخوف كان لا يأتلي يستبدُّ بفكري ، مع مضيِّ النهار ،
لقد ارتكبنا خطأً ، إنَّ نور الصباح جعل يهمس في آذاننا : « مرحى
لكم ، امضوا قُدَمَا » ، والآن فإنَّ نورَ السَّماء يهزأ بنا .

إنني أخشى أن نكون قد مُنينا بالخيبة ، وقد شرع يخامرني شعور
بإحترام رباعيات (دادا) أكثر من ذي قبل ، وعمّا قريب سنقتعدُ الأرضَ
لننصرف الى نظم رباعيات .

حينئذ سيقبل الجيران كلَّهم ، وسيتحلّقون حولنا ، وسيظفرون بفائدةٍ
كبيرةٍ من فطنتنا ، بحيث لن يتخلّوا عنّا أبداً .
وسنرسخُ هنا ، كصخرةٍ كبيرة ، باردة ثابتة .

سيتشبّثون بنا ، كضبابٍ مرزمٍ كثيفٍ ، ونحن جالسون ثمة .
إنني أتساءل : ترى ماذا يفكر فينا مرشدنا ، إن تسنّى أن يسمعنا الآن ؟
إنني موقن أنّ مرشدنا هو الذي تركنا نتشرّد ، لقد حملنا على كدحٍ لا
طائل فيه ، فيما هو يستمرى الدعة والكسل .

لننكفي على أعقابنا ولنكافحه ، سنقول له : لن نتقدّم خطوةً واحدة ،
ولكن سنتربّع ، ثانين أرجلنا تحتنا ، إنَّ هذه الأرجل هي مشرّداتُ ، فهي
تضربُ دوماً في الدرب .

ستماسكُ أيدينا ، بقوةٍ ، خلف ظهورنا ، فليس ثمة أذى من خلف ،
إنَّ الإزعاج كلّهُ يأتي من أمام ، فالظهر هو من بين أعضاء جسمنا كلّهُ ،
أكثرُها استيثاقاً ، إنه يقول : اضطجع على الأرض .

إنَّ صدورنا تنتفخ في خيلاء حين نكون شباباً ولكن ، في النهاية لن
يكون في وسعنا سوى الاضطجاع على ظهورنا .

ويخطر في ذهني الجدول الصغير المتدفّق الذي يمر بقريتنا ، في هذا
الصباح ، لقد مثّل في خاطري أنه يقول لنا : « الى الأمام » ، بيدّ أنه كان
يقول في الواقع : « زيفاً وخداعٌ » ، إنَّ العالم كلّهُ خداع .

فتى : لقد تعود حكيمنا أن يقول لنا ذلك .

فتى آخر : سنمضي الى الحكيم حين نعود .

فتى آخر : لن نخطو خطوة واحدة تتجاوز حدود ما خطه الحكيم .

فتى آخر : أي خطأ وقعنا فيه ، لقد حسبنا أن التحرك ، في حد ذاته ، عمل بطولي .

فتى آخر : ولكنّ عدم التحرك هو الأمر البطولي حقاً ، لأنه تحدّ للكون المتحرك كلّهُ .

فتى آخر : يا لنا من ثائرين شجاعان! لن نتحرك أبداً ، سوف نؤتى الجراءة ، لنمكث هادئين ، ولن نريم بوصة واحدة .

فتى آخر : « إن الحياة والشباب زائلان » ، كذلك يقول السّفَرُ القديم ، لتمض الحياة والشباب الى الجحيم فلن نتحرك أبداً .

فتى آخر : « إن فكرنا وثروتنا زائلان » ، كذلك يضيف السفر القديم ، ونقول نحن : « دعهما يمضيان ، والزم مجلسك » .

فتى آخر : لنعدّ الى النقطة التي بدأنا منها .

فتى آخر : ولكن هذا قد يتطلّب منا أن نتحرك .

فتى آخر : اذن ماذا ؟

فتى آخر : اذن لنلزم مجلسنا ، حيث جننا .

فتى آخر : ولنتخيّل أننا كنّا هنا قبل أن نأتي .

فتى آخر : أجل ، أجل ، إنّ هذا يحمل أذهاننا على الهدوء ، فلو أننا جننا

من مكانٍ آخر ، فإنّ الذهن يحنّ إلى هذا المكان .

فتى آخر : إنّ أرضَ هذا المكان هي أرض خطيرة .

فتى آخر : هناك يتحرك أديمها ، بله طرقها ، أما نحن...

(ينشدون)

إننا نتشبَّث بمجلسنا ولا نتحرَّك البتَّة .

ونسَمَحُ لزهورنا بأن تصوِّح في أمن ،

وتتجنَّب عناءَ حمل الثمار ،

لتنفِضَ النجوم المتألِّقة جنونها الأبدي ،

فإننا نطفئ شعلتنا ،

لترتعش الغابة وليزار البحر ،

فإننا نجلس صامتين .

ليقبل نداءُ الموجة الهادرة من البحر ،

فإننا نمكث هادئين .

فتى : ألا تسمعونَ هذا الضحك ؟

فتى آخر : أجل ، أجل ، إنه ضحك .

فتى آخر : يا لها من سلوى ! إننا لم نسمع هذا الصوت منذ عصور .

فتى آخر : لقد كنَّا نتشوف الى لهاث ضحكة .

فتى آخر : إن هذا الضحك ينحدر إلينا كأنه ديمة نيسان .

فتى آخر : من يضحك هكذا ؟

فتى آخر : ألم تستطع أن تحزر ؟ إنه صاحبنا (شاندرا) .

فتى آخر : أي هبة رائعة أوتيها في ضحكة ، إنه كشلال يجرف الأحجار

السوداء من طريقه .

فتى آخر : إنَّه كشاعِ الشَّمس يفري الضبابَ بسيفه ، إرباً إرباً .

فتى آخر : إنَّ خطر حمى الرباعيات كلَّه قد زال الآن ، فلننهض .

فتى آخر : منذ هذه اللحظة ، لن نبلو شيئاً غيرَ العمل ، كما يقول السفَرُ

القديم : « إنَّ كلَّ شيء في هذا العالم زائلٌ ، ولا يعيش إلا من

يقوم بواجبه ويظفر بالشَّهرة » .

فتى آخر : لماذا تستشهد بهذا ، ألا تزال تشكو من حمى الرباعيات ؟

فتى آخر : ماذا تعني بالشهرة ، تُرى أيكترث النهر بزيده ؟ إن الشهرة هي
الزبد المتناثر من تيار الحياة .

(يدخل شاندرأ والمنشد الضير)

حسنُ يا (شاندرأ) ، ما الذي يجعلك جذلاً ؟

شاندرأ : لقد تقصيت أثر الرجل الشيخ .

فتى : من الذي هداك اليه ؟

شاندرأ : هذا الشيخ المنشد .

فتى : إنه يبدو أعمى .

شاندرأ : أجل ، لهذا فإنه لم يُغنَ بأن يبحث عن طريقه .

فتى : ماذا تقول ؟ أياكون قادراً على أن يهدينا سواء السبيل ؟

المنشد : أجل .

فتى : ولكن كيف ؟

المنشد : لأنني أستطيع أن أسمع خفق الخطأ .

فتى : إن لنا آذاناً ، ولكن...

المنشد : إنني أسمع بكياني كله .

شاندرأ : لقد هبوا جميعاً مذعورين ، حين سألت عن أخبار الرجل

الشيخ ، إن هذا المنشد وحده يتراءى غير مذعور ، إنه لا

يخاف لأنه يستطيع ، فيما أحسب ، أن يرى .

المنشد : أتعلمون لِمَ لا أخاف ؟ حينَ أفلتَ شمسُ حياتي وأضحيتُ أعمى

فإن الليل الداجي قد نَفَضَ لي أنوارهَ كلها ، ومنذ ذلك اليوم ، لم

أعدُ أفرقُ من الظلمة .

فتى : لنمضِ إذن ، لقد ارتفع نجم السماء .

المنشد : دعوني أغنَ ، وامشوا فيما أنا أغني ، واتبعوني . ليس في

مكنتي أن أجد طريقي إن لم أغني .

فتى : ماذا تغني ؟

المنشد : إن أغنياتي تتقدمني وأنا أتبعها .

ينشد : رويداً ، رويداً يا صاحبي ، امضِ الى غرفتك الصامتة .

إنني لا أعرف الطريق ، فليس لديّ النور .

إنّ حياتي وعالمي مظلمان .

ليس لديّ سوى خفقِ خطاك .

يقودني وأنا في هذه العزلة .

رويداً ، رويداً ، يا صاحبي ، امشِ على الشاطئ المظلم ،

دع نداء الطريق يقبلُ هامساً ، تحتَ جناح الدجى ، محمولاً

على نسيم نيسان ،

ليس لديّ سوى شذا إكليلك ، يقودني وأنا في هذه العزلة .

الفصل الرابع

(مقدمة غنائية)

(رہط من الفتیان ، یجسّدون الأشياء الفتيّة ، يدخلون ويعرفون بأنفسهم في النشيد التالي) .

نشيد الشباب العائد

مرّة إثر مرّة ، نردّد : « الى اللقاء » ،
لنعود مرّة إثر مرّة .
وأنت من أنت ؟
أنا زهرة (فاكول) .
ومن أنت ؟
أنا زهرة (بارول) .
ومن هذه ؟

نحن براعم المانجو الراسية على شاطئ النور ،

إننا نضحك ونمضي ، حين يومئ لنا الزمن .

إننا نندفع الى ذراعي العودة الأبدية .

ولكن من أنت ؟

أنا زهرة (شيمول) .

ومن أنت ؟

أنا عنقود (كاميني) .

ومن هذه ؟

نحن الجمهرة المحتشدة من الأوراق الفتية .

(يتراءى الشتاء في إهاب الربيع ويجب عن الأسئلة التي تُلقيها جوقة

الأشياء الفتية)

نشيد الأعباء المطروحة

الا تقرُّ بهزيمتك بساعد الشباب ؟

بلى .

ألم تلتق أخيراً بالشيخ الذي لا يقدر عمره والذي يظلّ دوماً في ريق

الشباب .

بلى .

ألم تتخطّ الجدران التي تتداعى وتدفن كل من يستظلّ بها ؟

بلى .

(جماعة أخرى تنشد)

ألا تقرُّ بهزيمتك بسواعد الحياة ؟

بلى .

هل مررتَ عبر الموت ، لتمثلَ أخيراً ، وجهاً لوجه أمام الخلود ؟

بلى .

ألم توجه الضربةَ الى التراب الشيطاني الذي يبتلعُ مدينتك الخالدة ؟

بلى .

(تحيط به أزاهير الربيع وتنشد)

نشيد الجمال الغصن

كنا ننتظر على حَيْدِ الطريق ، نحصي الاوقات ،

حتى تجليت في صباح نيسان .

أنت تقدم كجندي فتي ظافرٍ بالحياة ، مائلٍ أمام باب الموت .

إيه ، يالروعة ذلك!

إننا نصغي ، وقد أخذتنا الدهشةُ ، الى موسيقا صوتك الفتي .

إن معطفك يخفق في الريح .

كأنه شذا الربيع ،

إن الغصنَ الأبيضَ من زهور (المالاتي) المعقودَ

فوق شعرك يتوامض كأنه عناقيدُ النجوم .

إن ناراً تتأجج خلف قناع ابتسامتك .

اوه ، يالروعة ذلك!

ومن يدري ، أين خُبئتُ سهامك .

التي تصمي الموت ؟ .

الليل

(المسرح الخلفي مظلم ، والنور في المسرح الرئيسي يعتم
بسواد الحزن وحمرة الأرجوانية)

(تدخل جماعة من الفتية)

فتى : لقد مضى (شاندرا) من جديد ، مخلفاً إيانا .

فتى آخر : إنه لمن الصعب أن يُحمَل على الهدوء .

فتى آخر : إننا نشدُ الراحةَ ونحن جالسون ، بيدَ أنه لا يستمرُّها الا وهو
ماضٍ .

فتى آخر : لقد جازَ النهرُ مع المنشد الضرير ، ففي غور عمى الضرير
حيث يبحث (شاندرا) عن النور الخفي .

فتى آخر : لهذا فإنَّ مرشدنا يدعوهُ بالفواص .

فتى آخر : إنَّ حياتنا كلّها تضحي فارغةً حين يغادرنا (شاندرا) .

فتى آخر : ألا تشعر ، مع ذلك بشيءٍ ما في الفضاء ؟

فتى آخر : يخيلُ إلينا ، أنَّ السماء تنظر الى محيانا كرفيقٍ يلتبس
الوداع .

فتى آخر : إنَّ هذا الجدولَ الصغيرَ من الماء ينساب في دغل نبات
(الكازوارينا) ، إنه يتراءى كدموعٍ منتصف الليل .

فتى آخر : إننا لم نراعِ الأرض ، من قبل ، بمثل هذا الإهتمام .

فتى آخر : حين نعدو ، بعدئذ ، بأقصى سرعة ، فإنَّ عيوننا تنظر الى
أمام ، ولا نرى أيَّ شيء الى جانبنا .

فتى آخر : وإن لم تتحرك الأشياء ولم تغبْ ، فلعلنا لا نرى جمالاً في أيّما
مكان .

فتى آخر : وإن لم يؤت الشباب سوى حرارة الحركة ، فلعلّه يجفّ ويضوي ، ولكن لديه دوماً الدمعة الخفية التي تجعله رطباً ندياً .

فتى آخر : إنّ صرخة العالم ليست كلمة «عندي» وحسب ، بل كلمة «أعطي» أيضاً ، ففي الفجر الأول من الخلق ، كانت كلمة «عندي» قد زُفّت الى كلمة «أعطي» ، فلو تراخت هذه الصلة ، الى القطع ، لآل كل شيء الى الخراب .

فتى آخر : لا أدري الى أين سيفضي بنا هذا المنشد الضرير ، أخيراً .
فتى آخر : تتراءى هذه النجوم المطلّة علينا في السماء كأنها نظرات العيون التي لاحصر لها والتي التقينا بها في العصور المنسية الغابرة كلّها ، وتترأى زفرة الذين نسيناهم كأنما تخلص إلينا من خلال الزهور ، قائلة لنا : «تذكرونا» .

فتى آخر : سوف تنصدع قلوبنا إنّ لم نغنّ .

(ينشدون)

هل خلفت حبك وراءك يا قلبي ؟

وهل افتقدت الأمن طوال أيامك كلّها ؟

أتكون الطريق التي سعت فيها قد أصبحت مضيّعة منسية ؟

جاعلة عودتك دون أمل ؟

إنني أمضي ، مطوّفاً ، مصغياً الى ثرثرة الجدول ، وحفيف الأوراق ،

ويخيّل إليّ أنني سوف أجد طريقي التي تفضي الى أرض الحب الضائع ،

خلف نجوم السماء .

فتى : يا لهذا اللحن الغريب ! إنه يتناهى من موسيقا الربيع .

فتى آخر : إنه يبدو كلحن الأوراق الصفر .

فتى آخر : إن الربيع قد اذخر دموعه لنا ، خفيةً ، أثناء ذلك .

فتى آخر : كان يخشى ألا نفهمه ، لأننا كنّا فتیاناً أغراراً .

فتى آخر : كان يريد أن يغرّر بنا بابتساماته .

فتى آخر : ولكننا سوف نرقد قلوبنا ، الليلة ، في كآبة الشاطئ ، الآخر .

فتى آخر : آه ، أيتها الأرض العزيزة ، أيتها الأرض البهية ، إنها تريد كلّ

ما في حوزتنا ، تريد لمسة أيدينا ، أغنية قلوبنا .

فتى آخر : تريد أن تستنبط ما في أعماقنا ، ولو كان ذلك خافياً علينا .

فتى آخر : إنّ حزنها هو أن تعلم ، إذ تعثر على بعض الأشياء ، إنها لم

تعثر على كلّ شيء ، إنها تضيّع الشيء قبل أن تدركه .

فتى آخر : آه ، أيتها الأرض العزيزة ، لن تتنكر لك أبداً .

(ينشدون)

سوف أزيّنك بإكليلي

قبل أن أغادرك ،

إنّك تكلميني ، دوماً ، في أفراحي وأحزاني كلّها .

والآن ، في نهاية اليوم ، فإنّ قلبي سيَنفَطِر بالكلام .

إنّ الكلمات توافيني ، دون أن يوافي اللحن . والأغنية التي لم

أغنّها لك قط ، تبقى خبيثة ، خلف دموعي .

فتى : ألم تلحظ يا أخي أحداً ما ، قد مرّ ، فيما يبدو من هنا ؟

فتى آخر : إنّ الأمر الوحيد الذي تشعر به ، هو مروره هذا .

فتى آخر : لقد شعرتُ بلمسةٍ معطف أحد عابري السبيل .

فتى آخر : لقد مضينا لنأسر شخصاً ، ولكننا نشعر ، الآن ، بتوقنا الى أن

نؤسر نحن .

فتى آخر : آه ، ها هو ذا المنشد ، الى أين جئت بنا ؟ إنّ لهات العالم
الرحالة ، لهات السماء المطرزة بالنجوم قد لامسنا هنا .
فتى آخر : لقد قدمنا ، باحثين عن شكل مسرحية جديد ، ولكننا أنسينا ،
الآن ، أي مسرحية نريد .

فتى آخر : لقد أردنا أن نأسر الشيخ الرجل .
فتى آخر : الجميع يقولون إنّ مرآه مرعب ، فهو ذو رأس لا جسم له وشدق
فاغر ، إنه تيّنٌ يتقد رغبةً في التهام قمر شباب العالم ، ولكننا
لا نستشعر ، الآن ، أي خوف . إنّ الزهور تصوح والأوراق
تذبل وموجات النهر تحبو ، ولسوف نأخذ نحن بمدرجتها
أيضاً . إيه أيها المنشد الضرير ، أمسك بمزهرك وغنّ لنا ، من
يعلم في أي ساعة نحن من الليل ؟

(المنشد الضرير ينشد)

دعني أهب نفسي كلّها ، قبل أن أسأل ذلك ،
لمن يهب له العالم نفسه كلّها .
حين جئته للفوز بنواله فإنني لم أخف .
ولن أخاف حين أقدم إليه ،
لأزجي إليه كلّ ما في حوزتي .
إنّ الصباح يتقبل الذهب الموشى بالأغاني ،
والمساء يردّ له ذهبه ، مغتبطاً ، جذلان .
إنّ فرحة الزهرة المنورة تفيء الى ثمرة ،
مع تساقط أفوافها .
أسرع يا قلبي ، وبدّد نفسك في الحب ،
قبل زوال النهار .

فَتى : أَيُّهَا المنشد ، لِمَ لا يزال (شاندرا) غائِباً حَتَّى الآن ؟

المنشد : أَلَا تعلمون أَنه قد مضى ؟

فَتى : مضى الى أين ؟

المنشد : لقد قال : «سَامُضِي لأظفر به» .

فَتى : من ؟

المنشد : الذي يخشاه الجميع ، لقد قال : «فِيمَ اذن أنا شاب» ؟

فَتى : آه ، إنه لأمرٍ رائع ، إِنَّ (دادا) مضى لِيَتَلو رباعيَّاته على

الفلاحين ، و(شاندرا) قد اختفى دون أن يدري أحد أيَّ قصدٍ

حمله على ذلك .

المنشد : إنه يقول : «إِنَّ الرجال قد حاربوا ، دوماً ، في سبيلِ قضيةٍ ما ،

وإِنَّ التحام هذا الصراع هو الذي يكدِّرُ نسيم هذا الربيع» .

فَتى : التحام ؟

المنشد : أجل ، إنها الرسالة التي تقول أَنَّ صراع الرجال لَمَّا ينته بعد .

فَتى : أَتكون هذه الرسالة هي رسالة الربيع ؟

المنشد : أجل . أولئك الذين أضحوا بالموت خالدين ، بعثوا برسالتهم في

الأوراق الرِّيا من الربيع ، تقول هذه الرسالة : «إننا لم نشك في

الطريق قط ، ولم نحصرِ الثمن ، لقد اندفعنا ، لقد تفتَّحنا ، فإذا

اتَّخذنا مجلسنا لنتناقش ، فأين يمكن أن يكون الربيع ؟» .

فَتى : أَتكون هي الرسالة التي جعلت (شاندرا) مجنوناً ؟

المنشد : إنه يقول :

(المنشد ينشد)

إِنَّ زهور الربيع قد ضفرت لي اكليل النصر .

إِنَّ ريح الجنوب تزفر لهاثها الناريَّ من دمي ،

إنّ النحيب الذي يتردّد ، دون جدوى ، في ركن البيت ، يتناهى
من خلف .

ويمثّل الموت أمامي ، مقدّماً إكليله .
إنه عاصفة الشباب تمسّ بأناملها معزفَ السّماء ،
وقلبي يرقص على لحنها الوحشي ،
ليس لي أن أجني وأختزن .
إنني أنفق وأبدّد ،
إنّ البصيرة والراحة تودّعاني في يأس .

فتى : ولكن الى أين قد مضى ؟
المنشد : يقول : « ليس في ميسوري الإنتظار ، على عذار الطريق ، أكثر
من ذلك ، يتعيّن عليّ أن أذهب وأجتمع إليه وأظفر به » .

فتى : ولكن ، أيّ طريقٍ قد سلك ؟
المنشد : لقد دخل الغار .
فتى : كيف فعل ذلك ؟ إنّ في الغار ظلمةً مخيفةً ، تُراه ، دون أن
يستوضح قد...

المنشد : أجل لقد مضى ليستوضح بنفسه .
فتى : متى سيعود ؟
فتى آخر : أعتقد أنه لن يعود أبداً .
فتى آخر : ولكن إن تركنا (شاندرا) ، فإنّ الحياة تغدو غيرَ جديرة بأن
تعاش .

فتى آخر : وماذا تقول لمرشدنا ؟
فتى آخر : سوف يتركنا مرشدنا أيضاً .
فتى آخر : تراه ترك لنا رسالةً ، قبل أن يغيب ؟
المنشد : لقد قال : « إنتظروني ، سأعود » .

فتى : سيعود ؟ ولكن ، أيها المنشد ، أين يجب أن ننتظره ؟

المنشد : أمام الغار الذي ينبجس منه جدول الماء متدفقاً .

فتى : أي طريق قد سلك ليصل الى هناك ؟

فتى آخر : إن الظلمة فيه تتراءى كسيفٍ مظلم .

المنشد : لقد تسمت صوت رفيف أجنحة الطائر الليلي .

فتى : لِمَ لم تذهب معه ؟

المنشد : لقد تركني هنا لأمنحك الأمل .

الفتى : متى ذهب ؟

المنشد : في الساعة الأولى من الليل .

فتى : أحسب أن الساعة الثالثة قد مضت ، والفضاء رطيبٌ بارد .

فتى آخر : حلمتُ أن ثلاثاً من النساء ، بشعرهنّ المحلول...

فتى آخر : إيه دعنا من حلمك بالنساء ، إنني مُضنى بأحلامك .

فتى آخر : كل شيء يبدو ، نذيراً بشؤمٍ مظلم ، لم أنتبه ، من قبل ، الى

نعيق البوم ، ولكن الآن...

فتى آخر : ألا تسمع نباح الكلب ، على العدو البعيدة من النهر ؟

فتى آخر : يبدو أن ساحرة تركبه ولا تأتلي تجلده .

فتى آخر : من المؤكد أنه لو تيسر لـ (شاندرا) أن يعود لكان قد عاد

الآن .

فتى آخر : كم أودّ أن تنقضي هذه الليلة .

فتى آخر : ألا تسمع صرخة امرأة ؟

فتى آخر : أوه ، النساء ، النساء ، إنهنّ ينشجن ويبكين دوماً ، ولكنهن

لايستطعن أن يحملن على العودة أولئك الذين يجب عليهم أن

يمضوا قدماً .

فتى آخر : إن الجلوس في هدوءٍ ، هكذا ، أضحى غير محتملٍ ، إن الرجال

يتخيلون ألواناً من الأشياء ، حين يجلسون هادئين ، دعنا نذهب أيضاً ، فإمّا بدأنا السير في طريقنا ، فإن الخوف يفارقنا .

فتى آخر : ولكن من الذي يرشدنا الى الطريق ؟

فتى آخر : هناك المنشد الضرير .

فتى آخر : ماذا تقول ؟ المنشد ؟ أتستطيع أن ترشدنا الى الطريق ؟

المنشد : أجل .

فتى : ولكن لا نستطيع أن نؤمن في ذلك إلا في صعوبة ، كيف يكون

في ميسورك أن تهتدي الى الطريق بغنائك وحده .

فتى آخر : إن لم يعد (شاندرا) فلسوف تفعل ذلك أنت .

فتى آخر : لم نكن نعرف أننا نحب (شاندرا) على هذا النحو العنيف ، لقد

كنّا نقبس منه في تلك الأيام جميعها .

فتى آخر : وحين يواتينا مزاج اللعب ، فإننا ننصرف الى اللعب إنصرافاً هو

من القوة بحيث نهمل رفيق اللعب .

فتى آخر : ولكن ، إن اتفق وعاد إلينا فلن نهمله أبداً .

فتى آخر : أخشى أن نكون قد آلمناه في أكثر الأحيان .

فتى آخر : ولكن حبه يرتفع فوق ذلك كله ، إننا لم نعرف قط ، كم كان

جميلاً وطيباً ، حين كان في ميسورنا أن نراه كل يوم .

(ينشدون)

حينَ كانَ النور يملأ عالمي . . ،

فقد كنتَ تجلس بمنأى عن ناظري ،

أما الآن ، وقد تلاشى النور ، فإنك تقبل إلى قلبي .

حين كان في حوزتي دُمى ، فقد كنت ،

الهُو بها ، وكنت تبسم لي ، ساهراً علي
الى جانب الباب ، والآن وقد تفتّت هذه الدمى ، وأضحت
تراباً ، فإنك تقدم وتجلس الى جانبي .
لم يبقَ لديّ سوى قلبي ، كموسيقا لي ، حين تقطعت أوتار
معزفي .

- فتى : إنّ المنشد يجلس ، بالغ الهدوء والصمت ، أنا لأحبّ ذلك .
فتى آخر : إنه يبدو نذير شؤم كسحابة الخريف الثقيلة .
فتى آخر : لنصرفه .
فتى آخر : لا ، لا إنه يهب لنا الشجاعة ، حين يجلس هناك .
فتى آخر : ألا ترون أنّ محيّاّه خالٍ من أيّ أمارّة خوف ؟
فتى آخر : إنه يبدو وكأنّ رسالات كانت تضرب جبهته ، ويتراءى جسمه
وكأنه يكشف عن شخصٍ ما ، في المدى البعيد ، ويمثّل في
الخطر وكأنّ له عيوناً في أطراف أنامله .
فتى آخر : إنّ في ميسورنا أن نرى - من ملاحظته ليس غير - أنّ شخصاً ما
بمسيل المجيء عبر الظلمة .
فتى آخر : انظروا ، إنه ينهض واقفاً ويستدير نحو الشرق ويحيّه بولاء .
فتى آخر : ومع ذلك فلا يبين أيّ شيء ، بله أيّ خيط من نور .
فتى آخر : لمّ لا يسأل عمّا يراه ؟
فتى آخر : لا ، لا تزعجه .
فتى آخر : أتعلم ؟ يخيل إليّ أن فجراً ينبلج فيه .
فتى آخر : كأنّ زورقاً كبيراً من نور قد رسا على شاطئ جبهته .
فتى آخر : إنّ فكره هادي ، كسماء الصباح .
فتى آخر : إنّ عاصفة أغاني الطيور ستهبّ عمّا قريب .
فتى آخر : إنه ليمسك بمعزفه ، إنّ قلبه ليفنّي .

فتى آخر : صه ، إنه ينشد .

(المنشد ينشد)

النصر لك ، النصر لك دوماً .

أيها القلب الشجاع .

النصر للحياة ، للفرح ، للحب ،

للنور الخالد ،

سينقضي الليل وسينمحي الظلام .

تمسك بالإيمان أيها القلب الشجاع ،

استيقظ من النوم من فتور اليأس ،

واستقبل بالأغاني نور الفجر الجديد .

شعاعٌ من النور يرفأ على الغار

فتى : آه ، ها هو ذا (شاندرا) ، (شاندرا) .

فتى آخر : صه ، لا تثر أيّ ضجة ، لا أستطيع أن أستبينه بوضوح .

فتى آخر : آه ، لا يمكن أن يكون أحد غير (شاندرا) .

فتى آخر : آه ، ياللفرحة!

فتى آخر : (شاندرا) تعال .

فتى آخر : (شاندرا) ، كيف قدرت على فراقنا ، هذا الأمد الطويل ؟

فتى آخر : أكان في مقدورك أن تأسر الرجل الشيخ ؟

شاندرا : أجل ، كان في مقدوري ذلك .

فتى : ولكننا لا نراه .

شاندرا : إنه قادم .

فتى : ولكن هلا قلت لنا ماذا رأيت في الغار ؟

شاندرأ : لا ، لا أستطيع أن أقول لكم .

فتى : ولمة ؟

شاندرأ : لو كان عقلي صوتاً لإستطعت أن أقول لكم .

فتى : ولكن هل استطعت أن ترى من أسرت ؟ أأكون رجل العالم الشيخ ؟

فتى آخر : الرجل الشيخ الذي يؤد أن ينهل بحر الشباب ، بظمأه الذي لا ٱنفق .

فتى آخر : أأكون ذلك الذي يشبه الليل الحالء ، والذي ثبتت عيناه فى صدره ، والذي انحرفت قدماء عن الوضع السوى ، والذي ٱمشى إلى خلف ؟

فتى آخر : أرى أأكون ذلك الذى يتوج رأسه بأكليل من الجماءم ، وٱعأش فى قاع المنية المتأجج ؟

شاندرأ : لا أدرى ، لآس فى مكنتى أن أقول ، ولكنه قادم ، ولسوف ترونه .

المنشد : أجل ، إننى أراه .

(ٱقوى النور ، شأناً فشىناً ، على المسرح ، حتى ٱضأنه بألق باهر)

فتى : أأئن ؟

المنشد : هنا .

فتى : إنه ٱخرج من غاره ، ثمة شخص قادم من الغار .

فتى آخر : ما أجمله !

شاندرأ : كآف ؟ أهذا أنت ؟

فتى : مرشدنا !

فتى آخر : مرشدنا !

فتى آخر : مرشدنا!

فتى آخر : أين الرجل الشيخ ؟

المرشد : غير موجود في أيّ مكان .

فتى : غير موجود في أيّ مكان!

المرشد : أجل ، إنه غير موجود في أيّ مكان .

فتى : إذن من هو ؟

المرشد : إنه حلم .

فتى : إذن أنت الحقيقي .

المرشد : أجل .

فتى : وهل نحن حقيقتون ؟

المرشد : أجل .

فتى : إنّ الذين رأوك من خلف ، تخيلوك في أنماطٍ جمّة من الأشكال .

فتى آخر : إنّنا لم نتعرفك من تراب الأرض .

فتى آخر : كنت تبدو هرمًا .

فتى آخر : ثمّ خرجت من الغار . وأنت تبدو الآن غلاماً .

فتى آخر : يخيل إلينا ، أنّنا نراك للمرة الأولى ، ليس غير .

شاندرا : يخيل إليكم أنّكم ترونه للمرة الأولى ، ولسوف يخيل إليكم ذلك ، المرة تلو المرة .

المرشد : (شاندرا) ، ينبغي أن تقرّ بهزيمتك ، إنّك لم تستطع أن تأسر الرجل الشيخ .

شاندرا : لندغّ مهرجاننا يبدأ ، فقد بزغت الشمس .

فتى : أيها المنشد ، إن مكثت هادئاً هكذا فلسوف يغلبك النوم ، أنشدنا شيئاً .

(المنشد الضرير ينشد)

إنني أفقدك ، لأجذك المرة تلو المرة .

يا حبيبي .

إنك تغادرني ليكون في استطاعتي أن أعدَّ لك مزيداً من حسنِ
اللقاء ،

حين تعود

أنت لا تستطيع أن تتواري خلف شاشة الزمن ، إلا لأنك لي
وحددي ، الى الأبد .

يا حبيبي .

حين أمضي ، باحثاً عنك ، فإنّ قلبي يخفق ، ممجّاً غضوناً عبر
حُبِّي .

إنك تبسّم ، متنكّراً في لبوس الغائب .

ودموعي تفعم ابتسامتك عذوبة

فتى : أتسمعون هذا الدوي ؟

فتى آخر : أجل .

فتى آخر : ليس بطنين النحل ، إنه لفظ الناس في الساحة .

فتى آخر : ينبغي ، إذن ، أن يكونَ (دادا) مع رباعياته ، قريباً ، على قيد
ذراع .

دادا : أياكون هذا هو المنشد ؟

فتى : أجل يا (دادا) .

دادا : أوه ، إنني لسعيدٌ بأنك قدمت ، يجب عليّ أن أقرأ مجموعة
رباعياتي .

فتى : لا ، لا تقرأ ، المجموعة كلّها . بل واحدة منها .

دادا : حسنٌ ، هاكم واحدةٌ :

إنّ الشمس ماثلة أمام باب المشرق .

إن درداب طبل نصرها يدوي في السّماء .

يقول الليل : إنني مباركٌ ، وموتي هناءةٌ .

إنه يتلقّي صدقته الذهبية ، ويملاً جرابه منها ثمّ يرحل .

فتى : هذا يعني...

فتى آخر : لا ، لا نريد أن تفسّر لنا .

دادا : إنه يعني...

فتى : مهما يكن مايعنيه ، فقد اعتزمنا ألا نعرفه .

دادا : ما الذي يجعلكم قانطين هكذا ؟

فتى : إنه يوم مهرجاننا .

دادا : آه هل الأمر كذلك ؟ إذن دعوني أمضي الى الجيران كلّهم .

فتى : لا ، يجب عليك ألاّ تمضي الى هناك .

دادا : أتوجد حاجة إليّ هنا ؟

فتى : أجل .

دادا : إذن فإنّ رباعيّاتي...

شاندرا : سوف نلوّن رباعيّاتك بفرشاةٍ ثخينة ، بحيث لا يعرف أيّما

إنسان إن كانت تتضمّن معنىّ ما .

فتى : وعندئذ ستضحى أنت مجرداً من أيّ معنى .

فتى آخر : وسيهجر جيرانك .

فتى آخر : وسينظر إليك الحارس الليلي على أنّك مجنون .

فتى آخر : وسينظر إليك الحكيم على أنّك أبله .

فتى آخر : وسيعتبرك أقرب الناس إليك عديم النفع .

فتى آخر : وسيعتبرك الأغراب عجباً .

شاندرأ : ولكننا سنتوَجك يا (دادا) بأكليلٍ من الأوراق الغضة .
فتى : وسنطوق جيدك بعقدٍ من ياسمين .
فتى آخر : وسنكون وحدنا الذين يعرفون قيمتك الحقيقية .

نشيد مهرجان الربيع

(يجتمع في المسرح الرئيسي أشخاص المسرحية كلهم ، دون
أن يستثنى (سروتي بوشان) ، ليرقصوا رقصة الربيع)

تعالوا واستمتعوا ،
فإن نيسان يستيقظ ،
وأرموا بأنفسكم في تيار الوجود ،
وحطّموا قيد الماضي .
إن نيسان يستيقظ ،
وبحر الحياة غير المتناهي .
يجيش ، أمامك ، تحت أشعة الشمس .
كل ما هو مضيّع قد ضاع ،
والموت قد غرق بين أمواجه ،
فغص في أعماقه ، دون خوف .
وغبطة نيسان تملأ حنايا قلبك .

شَيْبَا

مقدمة

تتكئ هذه المسرحية الغنائية المكتوبة عام ١٨٨٩ على القصة التالية المأخوذة عن (المهابهاراتا) :

بينما كان (أرجونا) يسعى في مضطربه ، استجابةً لنذر له ، توقّف في ، (مانيبور) وبصر ثمة بالحسناء (شيترا نفادا) ابنة (شيترا فاهانا) ملك المقاطعة ، ففتن بقسماتها وخطبها الى أبيها واستوضحه (شيترا فاهانا) عن شخصه ، ولمّا عرف أنّ المائل أمامه هو (أرجونا بانداما) قال له :

- إنّ (برابهانجانا) أحد أجدادي ، من الأسرة الملكية في (مانيبور) ظلّ أمداً طويلاً دون عقب ، فتكلّف أنواعاً من النذور القاسية ليرزق بوريث ، وسرّ الرب (شيفا) بما بلّاه الملك نفسه من الجهد فحقّق له رغبته ، على أن يقدر له ولكل من أعقابه طفل وحيد ، وقد حدث إنّ كلّ طفل موعود من سلالة كن غلاماً ، غير أنني كنت أول من رزق بانتي هي (شيترا نفادا) التي سيدوم بها نسي . وقد ربّيتها كما لو كانت غلاماً وجعلتها وريثة لي .

وتابع الملك كلامه قائلاً

- إنّ الغلام الذي سيولد منها ينبغي أن تنحدر منه سلالتي ، هذا الغلام هو الثمن الذي سأطالب به لقاء هذا الزواج ، فلك أن تبني بها ، إن شئت ، بهذا الشرط .

فوعده (ارجونا) بذلك ، واتخذ (شيترانفادا) زوجاً له ، وعاش معها في عاصمة أبيها ثلاثة أعوام ، ولما رزق منها بغلام ، عانقها في حنانٍ ، وودّعها ثم ودّع أباه ، وانصرف عائداً الى تجواله .

الأشخاص

الآلهة :

مادانا (ايروس) : إله الحب .

فازانتا (ليكوريس) : إله الربيع .

الفانون :

شيترا : ابنة ملك (مانيبور) .

أرجونا : أمير من أسرة (كوروس) وهو من طائفة (كشاتريا) المحاربة ،
يسيم في المسرحية حياة ناسك في الغابة .

قرويون : من ضواحي مقاطعة (مانيبور)

ملاحظة :

مثّلت هذه المسرحية الشعرية في الهند ، دون أي تزويق مسرحي (ديكور) فكان الممثلون يلعبون ، يتحلّقهم النظارة .
وقد وجهت ، حول عرض المسرحية ، اقتراحات إلى المؤلف ،
فأضاف الى هذه الترجمة (التي أداها المؤلف نفسه بالإنكليزية)
بعض الإيضاحات ، بيد أنه رغب في أن تحذف ، حين تطبع
المسرحية في كتاب .

المنظر الأول

(شيترا ، مادانا ، فازانتا)

شيترا : أنت الاله ذو السهام الخمسة ؟ أنت إله الحب ؟
مادانا : أنا أول من ولد في قلب الخالق ، أنا من يشدّ بقيود العناء
والهناء ، حياة الرجال الى حياة النساء .
شيترا : أجل ، إنّ قلبي ليعرف هذه القيود ويبلو هذا العناء ، وأنت ، من
أنت يا مولاي ؟

فازانتا : أنا صديقه (فازانتا) ملك الفصول . إنّ الموت والفناء موكلان
بالدنيا يكادان ينخران عظامها ، لولا إنّني ألحقهما ولا أني عن
مهاجمتهما حيث ثقفتهما ، فأنا الشاب الخالد .
شيترا : مولاي (فازانتا) لك أحني هامتي .

مادانا : ولكن أيّ نذرٍ عتيّ تكلفته ؟ أيّتها المجهولة الرقيقة ، لمّ تضوين
صباك الفنيان ، بالتّشّشف والزهد ؟ إنّ تضحية كهذه ، لا تأتلف
مع عبادة الحب ، فمن أنت ؟ وأيّ صلاة يرتّل فوك ؟

شيترا : أنا (شيترا) سليلة الأسرة الملكية في (مانيبور) لقد وعد الرب
(شيفا) بنعمته الخيرة وعوداً كريماً لجديّ الملك ، بذرية متّصلة
من الذكور بيد أنّ الكلمة الآلهية لم يتأت لها أن تغير قبس
الحياة في بطن أمي ، لنن خلقني ربّي امرأة ، لقد أوتيت طبعاً
عصيّ القيادة .

مادانا : أعلم ذلك ، لهذا فإنّ أباك أنشأك كما لو كنت غلاماً ، فعلمك
 النزع^(١) في القوس ، ولقنك واجبات الملوك .

شيترا : أجل ، لهذا فقد اتخذت دثار الرجال ، وعزفت عن خدور
 النساء ، وإنّي لأجهل حياة المرأة في قنص القلوب ، إنّ يديّ
 القويّتين لقادرتان على عطف القوس ، أمّا سهام (كيوبيد) فلم
 أفوقها قط ، ولم أحذق لعبة لحظ العيون .

مادانا : لغة العيون لاتلقن أيتها الشابة الفاتنة ، إنها تريش سهامها
 وتجرح بلحاضها دون أن تدري ، ولا يبلو وقعها إلا من يتلقى
 طعناتها في فؤاده .

شيترا : ذهبت الى القنص ذات نهارٍ ، ، وهمت وحدي في الغابة على
 شاطئ نهر (بورنا) ، وعقدت عنان جوادي بجذع شجرة ،
 وغبت في دغلٍ كثيفٍ ، خلف غزالٍ ، فإذا بدرب ضيقةٍ تتلوى في
 فيء غصونٍ متواشجةٍ ، وترتعش أوراقها على غناء الجداجد ،
 شغفاً ووجداً . وفجأةً . . رأيت على الدرب شخصاً مستلقياً فوق
 الهشيم . طلبت إليه في صلفٍ ، بأن يتنحّى ، ولكنه لم يرم .
 وحينئذ ، همزته بسية^(٢) قوسي ، فهبّ ، كأنه لسانٌ من النار
 شبت بكون رمادي ، واستوى ، قائماً ، مشيقاً ، ونسمت على
 شفتيه ابتسامةً مستظرفةً ، لعلّ مردّها سيماء الفتى التي كنت
 أبدو فيها . عندئذ ، شعرتُ ، لأول مرّة في حياتي ، بأنّي
 امرأة ، وأنّ أمامي رجلاً تتمثل فيه الرجولة الحقّة .

مادانا : متى أنّ الأوان ، فإنّي ألقن هذا الدرس السامي : ينبغي لكلّ امرأةٍ
 ورجلٍ أن يعرف كلّ منهما حقيقة نفسه ، وماذا جرى بعد ذلك ؟

(١) نزع في القوس : مدها وجذب وترها .

(٢) سية القوس : طرفها

شيترا : سألت ، في خوفٍ يمازجه عجب : ترى من تكون ؟ فأجاب : أنا (ارجونا) من قبيلة (كوروس) العظيمة ، عندئذ جمعت وتحجرت كتمثال ، وانعقد لساني ، ونسيت أن أؤدي له واجب الإحترام ، أحقاً أراه ؟ أرى (ارجونا) معبود أحلامي ، أجل ، لقد سمعت ، منذ زمنٍ بعيد ، أنه آلى على نفسه التبتل مدى اثني عشر عاماً . لطالما هاج قلبي طموح الصبا ، فتمنيت أن يتكسر رمحي على رمحه ، فاستثيره ، وأنا متنكرة الى القتال ، لأريه حذقي في المصاولة بالسلاح . آه يا قلبي المجنون ، أين غابت كبرياؤك ؟ لقد كان يتراءى لي ، كأثمن نعمة أفوز بها ، أن أبادل بتعلات شبابي كلها ذرةً من التراب تطؤها قدمه ، ولم أدر في أي دوامة تهت ، حين تواري عن ناظري خلف الأشجار ، يالك من امرأة حمقاء ! لم تقابليه بالتحية ، ولم تعتذري إليه ، وظللت ثمة واقفة كرفية ساذجة ، فيما كان ينأى عنك مستخفاً بك ، ساخراً ، وفي الغد عفت ثياب الرجال ، تزينت بأساور وقلادة وتمنطقت بزناار وارديت غلالة أرجوانية ، وداخلني الخجل من دثاري الجديد الذي لم أعتده ، وانكفأت مسرعةً ، أسعى الى طلاب (ارجونا) فوجدته في الغابة قريباً من معبد (شيفا) .

مادانا : تابعي قصتك حتى غايتها ، أنا رب القلوب ، وإنني لأعلم أسرار نزوتها .

شيترا : إنني أذكر على نحوٍ مبهم ، ماقلت وماسمعت ، فلا تسلني أن أروي لك كل شيء ، إن الخجل قد انقض علي كالصاعقة ، ولكن دون أن يتأتى له تمزيقي ، لصلابة جبلت عليها تماثل صلابة الرجال ، ولما اتخذت سمتي ، عائدةً ، الى الدار جعلت كلماته الأخيرة تنفذ الى أذني كإبرٍ ملتهبة .

«لا يمكن أن أضحي زوجاً لك فقد نذرت نفسي على التبتل»
آه ، يالنذر الرجال ، أنت تعلم يا إله الحب . إنّ الكثيرين من
القديسين والحكماء قد أزجوا إلى قدمي امرأة ، كلّ ما نالوا من
اعتبارٍ وتقديرٍ ، في حياة ملأى بالتقشف ، وقصفت قوسي ،
ونبذت سهامي الى النار ، وكرهت ذراعي الفتية المدربة على
شرعة^(١) القوس . إيـو يا رب الحب ، لقد استنزلت الى التراب ،
كبريائي العقيمة ، كبرياء قوتي الفحلة ، إنّ مراسي كلّها تقبع
محطمةً ، عند قدميك . زودني الآن بدروسك . هب لي بأس
الضعيف ، وامنحني السلاح الغلاب ، سلاح اليد الغزلاء .
مـاـداـنا : سأكون صديقاً لك ، وسأسوق إليك فاتح العالم (أرجونا)
أسيراً ، ليلقى على يديك جزاء تمرده .

شيترا : لو انفسح لي الوقت لأتيح لي أن أظفر شيئاً فشيئاً بقلبه ، دون
أن أستمّد عون الآلهة ، فأقف الى جانبه ، كرفيقٍ له ، وأقود
جواده العارمة التي تجرّ مركبته المحاربة وأراققه في رحلاته الى
الطراد ، فأحرسه وأسهر عليه ، ليلاً ، أمام باب خيمته ، وأعيـنه
على أداء واجبه كرجلٍ من طائفة (كشاتريا) ، ليحمي الضعيف ،
وينتصف للحق ، ويقيم العدل ، وأخيراً سوف يقبل يوم يلمحني
فيه ، فجأةً ، وسوف يتساءل : «من هذا الفتى ؟ تراه عبداً رقيقاً
من عبيدي قد لزمني من قبل وتبعني في مضطربي هذا ؟» .
لا ، لست كذلك المرأة التي تغذو يأسها بالصمت والعزلة ،
وتنضجه بعبرات الليالي ، وتواريه بالبسمة الصابرة ، نهاراً ، ولا
كتلك المرأة الأيم التي فطرت على الترمّل ، منذ مولدها . إنّ

زهرة رغباتي لن تتهاوى إلى التراب قبل أن تؤتي أكلها . إن
كدح الحياة كلها هو الذي يمكّننا من معرفة ذاتنا الحقيقية
وإكبارها . ولهذا قصدت بابك أيها الحب . يا من قهرت العالم ،
وأنتَ (فازانتا) ياسيد الفصول الشاب ، أجتث من جسمي عيبه
الأول : فقدان الملاحاة الآسرة . هب لي في يوم واحد فقط ،
جمالاً ذا أسرٍ يماثل أسر هذا الحب الوليد المفاجيء في قلبي ،
إيه يا إله الحب امنحني يوماً قصيراً أهنأ فيه بالجمال الكامل ،
اتبعك ملبيةً ، في جميع الأيام التي تليه .

مادانا : أيتها الفتاة ، لقد استجيب دعاؤك .

فازانتا : إن سحر براعم الربيع الطلق ، سوف يسربل جسمك الناضر ، لا
في أمدٍ قصيرٍ من يومٍ عابرٍ ، بل في مدى عام كامل .

المنظر الثاني

(ارجونا ، شيترا)

ارجونا : تراني كنت أحلم ؟ أم أنّ ما رأيت على ضفاف البحيرة كان حقيقة ؟ . كنت قد اقتعدت الأرض المكسوة بالطحلب ، ناعماً بالظلال المتطامنة من السّماء ، مفكراً في الأيام الخالية ، حين انساب ، رويداً ، رويداً ، من غور عتمة الأوراق ، طيفاً من الجمال كاملٌ نقيّ ، طيف امرأة . وقفت على سيف الماء ، فوق بلاطة بيضاء من حجر ، فكأنّ قلب الأرض كان يخفق ، جذلانَ ، تحت قدميها العاريّتين . وكان يخيّل إليّ أنّ الغلالة الهفافة التي تلفّ جسدها ، تذوب نشوةً في الفضاء ، كما تذوب غمامة الفجر الذهبية المنزاحة عن قمة الرابية الشرقية المكملّة بالثلج . وانحنت على المرأة المتألّنة من ماء البحيرة ، وجعلت تديم النظر في وجهها المنعكس على صقال الماء ، وانتصبت واقفةً ، في وجل . وخفقت على شفتيها ابتسامةً عذبةً ، ثمّ حلّت يدها اليسرى غدائرَ فرعها ، في هينة ومهلٍ ، فانسابت ، أثيثةً ، حتّى لامست قدميها ، وكشفت عن صدرها ، وأمعنت النظر في ذراعيها اللتين تحدوهما الغريزة الى المداعبة الحلوة . وأخذت ترنو ، حانية الرأس ، إلى تفتح صباها الطري ، وتتطلّع الى حمرة الحياة اليانعة المترققة في إهابها الغض . وكانت تشعُ بجذوةٍ مفاجئةٍ سارة ، كما لو أنّ برعماً

من زهر اللوتس الأبيض فتح عينه ، عند منبلج الفجر ، ثم لوى
جيده ، ليرامق ظلّه ، على صفحة الماء ، وظلّ ، سحابة يومه ،
مأخوذاً بنفسه ، منتشياً . بيد أن الابتسامة لم تلبث أن تلاشت ،
بعد لحظة ، من محياها ، وغام في عينيها ظلّ كآبة ، فعقصت
غداثرها ، وغطت ذراعيها بغلالتها ، وآبت وهي تتنهد في ونى ،
وغابت ، كمساء جميل يمحي في الليل ، وهكذا خيل إليّ أن
التحقيق الأسمى للرجبة ، قد تجلّى ، كاملاً ، في ومضة . ثم لم
يلبث أن اختفى . ولكن من ذا الذي يدفع الباب ؟

(تدخل شيترا الى المعبد ، في زي امرأة)

ارجونا : إنّها هي ، مهلاً ، أيها القلب ، لاتخافي أيتها الفتاة ، فأنا من
طائفة (كشاتريا) .

شيترا : أنت ضيفي ، يا مولاي المبجل ، إنني أسكن هذا المعبد ، كيف
أستطيع أن أحوطك بالإكرام الجدير بك ؟

ارجونا : أيتها الغادة الحسنة ، إنّ مرآك هو في الحق ، أسنى إكرام .
ترى أقدر أن أتجه اليك بسؤال ، إن لم يسؤك ذلك ؟
شيترا : لك أن تسأل .

ارجونا : أيّ نذر يلزمك أن تظليّ حبيسةً في هذا المعبد المنعزل ويحرم
الناس الفانين اجتلاء هذا السناء البهي ؟

شيترا : تكمن في قلبي رغبة خفيّة ، وأن أتجه ، كلّ يوم ، بصلاتي إلى
الاله (شيفا) لتحقيق هذه الرغبة .

ارجونا : وأسفاه ، أيّ رغبة تتشوفين إليها أنت يارغبة الكون كلّها ؟ لقد
ضربت أيتها الفتاة ، في كلّ مرادٍ من الأرض ، سائحاً ، متجولاً ،
من أقصى الجبال في المشرق ، حيث تطبع ، على ذراها شمس

الصباح أقدامها النارية ، حتّى منتهى أرض المغرب ، ورأيت أنّي
سعت أسمى كلّ شيء وأثمنه وأحلاه ، وإنّي لأضع خبرتي تحت
تصرّفك ، وما عليك إلا أن تذكر لي عمّ تبحيثين وعمّن تبحيثين .

شيئاً : إنّ من أبحث عنه معروفٌ من الناس كلّهم .

ارجونا : حقّاً ؟ من هو صفّي الآلهة ، هذا الذي اكتسح مجده قلبك ؟

شيئاً : إنه سليل أكرم الأسر الملكية نجاراً ، إنه أعظم الأبطال كلّهم .

ارجونا : سيّدتي ، لاتصخّي بكنز جمالك هذا ، على مذبح مجرّ زائف ،

إنّ الشّهرة المزوّرة تنتقل من شفةٍ الى شفةٍ ، كضباب الفجر

الذي يسبق مطلع الشمس . هلاّ قلت لي : من هذا البطل

العظيم ، سليل أكرم الأسر الملكية نجاراً ؟

شيئاً : أيّها الناسك ، إنّك لغيورٌ من صيت الرجال الآخرين ، أتجهل أنّ

أسرة (كوروس) هي أشهر أسرة ملكية في الدنيا .

ارجونا : أسرة (كوروس) ؟

شيئاً : ألم يتصل بسمك اسم أروع أسماء هذه الأسرة الملكية ؟

ارجونا : ذريني اسمعه من شفّتيك .

شيئاً : إنه (أرجونا) فاتح العالم ، لقد تلقّفت هذا الاسم الخالد من

شفاه الناس ، وخبّأته في قلبي الكبر ، حفيّةً به ، حريصةً عليه .

أيّها الناسك ، ما بالك تبدو مضطرباً ؟ أياكون تألّق هذا الاسم

خداعاً ؟ أجب فلن أتوانى عن كسر سفت قلبي^(١) ، لأقذف منه

الى التراب بهذه الجوهرة الزائفة .

ارجونا : لتكن مآثره وشجاعته واسمه حقيقةً أو زائفةً ، حنانيك ، لاتقصيه

عن قلبك ، إنه جاثٍ ، الآن ، أمام قدميك .

(١) السفت : وعاء تضع فيه المرأة حلاها .

شيترا : أنت أرجونا ؟

ارجونا : أجل ، أنا هو الضيف الجائع الى الحب ، جاء يقرع بابك .

شيترا : إذن ليس بصحيح أن (أرجونا) قد نذر التبتل على نفسه طوال اثني عشر عاماً .

ارجونا : لقد نسخت أنتِ نذري ، كما ينسخ القمرُ الظلمة التي نذرها الليل على نفسه .

شيترا : آه ، يا للعار! ماذا وجدت لديّ ، لتنقض نذك وتخدع نفسك ؟

ماذا تبغي من هاتين العينين السوداوين وهاتين الذراعين البضاوين كاللبن ؟ أجل ، أنا أعلم أنك لا تنشُد حقيقة روعي ، مادمتَ مهياً لأن تضخّي بإخلاصك في سبيل عيني وذراعي ، لا يمكن أن يكون هذا هو الحب ، ولا أسمى ثناء يسوقه رجلٌ الى امرأة . وأأسفاه ، إنّ الجسد هذا القناع الزائل ، قد يعمي الانسان عن اجتلاء الروح الخالدة . إنني أدري ، الآن ، إنّ صيت بطولتك ، يا (أرجونا) هو ، في الحق ، زائف .

ارجونا : آه ، كلّ شيء ، يتجلّى لي بسبيل الى الحلم ، يالهذا المجد من مجدٍ عقيم ، ويا لهذه الشجاعة المزهوة من شجاعة باطلة ، أنتِ وحدك ، أيتها المرأة الفريدة قد استشرفت الكمال ، أنتِ ، ياغنى الكون . يا نهاية كلّ متربة ، يا مطمح كلّ جهد! من الناس من تُستجلى معرفة نفوسهم ، في أمدٍ متمهّلٍ ويئدٍ ، أمّا رؤيتك ، في لحظة خاطفةٍ ، فإنها استجلاء الكمال ، مرةً واحدةً ، تستغرق الدهرَ كلّهُ .

شيترا : وأأسفاه ، لست تراني أنا يا (أرجونا) ، بل ترى خدعة رب ، امضِ يا بطلِي ، امضِ ، لا تتعلّق بطيفٍ مضلّلٍ ، ولا تقدّم قلبك الكريم الى وهمٍ . امضِ .

المنظر الثالث

(شيترا ، مادانا ، فازانتا)

شيترا : لا ليس هذا ممكناً ، ليس في مقدوري أن أقاوم هذه النظرة المثقفة التي تستبدّ بي ، كأنها الأيدي الناشبة التي تمدّها الروح الجائعة ، في باطني ، وأن أشعر وجيب هذا القلب وهو يناضل ، ليحطّم أغلاله ، مستثيراً صرخته المشبوبة في الجسد كلّهُ ، ثم أن أصرفه عني . بعد ذلك ، كما لو كان سخاذاً ؟ لا ، ليس هذا ممكناً .

(يدخل مادانا وفازانتا)

شيترا : آه يا إله الحب ، أيّ لهبٍ مخيفٍ هذا الذي زمّلتنني به! إنني احترق وأحرق كلّ شيءٍ ألمسه .

مادانا : وددت أن أعلم ماذا جرى ليلة أمس ؟

شيترا : لقد اضطجعت فوق فراش من العشب ، تتخلّله أوفافٌ من زهر الربيع ، وأخذت أستعيد كلمات الغزل التي سمعت (أرجونا) يطري بها جمالي ، مشبهاً . وكنت أرتشف الشهد الذي جنيته نهاراً : قطرةً فقطرة... أمّا حياتي الماضية فقد أنسيته مع كلّ ماسبقها من وجودٍ ، وشعرت وكأنني زهرةٌ لم يبقَ لديها سوى ساعاتٍ منقضية معدودة ، لتصغي الى الشناء العذب الذي تهمس

به الغابة ، ثم تحدر نظرتها من السماء وتغص طرفها ، وتطرق برأسها وتفيء الى صمتها وتستسلم ، في زفرة ، الى التراب ، خاتمةً بذلك قصة صغيرة ، للحظة كاملة ، ليس لها ماضٍ ولا مستقبل .

فازانتا : إن حياةً مديدةً ثرةً بالمجد ، يمكن أن تنور ثم تصوح في يوم واحد .

مادانا : كمعنى لا نهائي تضمنته أغنية صغيرة .

شيترا : وكان نسيم الجنوب يداعبني ويسلس لي النوم ، ومن خميلة ياسمين مزهرة دانية ، كانت تتهاوى قبلات صامتة فوق جسدي ، وشعري وصدري وقدمي . كانت كل زهرة تنتقي عشاً لتموت فيه . وأخلدت إلى الكرى ، وأحسست ، فجأة ، وأنا مستغرقة في سبات عميق بنظرة ماضية ثاقبة ، كأنامل النار الدقيقة ، تلذع جسمي الراقد . ونهضت... فإذا بالناسك يبدو مائلاً أمامي ، وكان القمر ، وهو يجنح الى المغرب ، يسارق النظر من فرجات الأغصان أعجوبة الفن الإلهي : هذا المخلوق الانساني المتهافت . وكان الفضاء عابقاً بالشذا ، وكان صمت الدجى قد استعار صرير الجدادج صوتاً له ، وكانت ظلال الأشجار ، تنداح ، رهوة ساكنة ، فوق ماء البحيرة . وبدا الناسك ، وعصاه في يده ، فارغ الطول ، ساكن الجنان ، كأنه إحدى شجرات الغابة ، ومثل في وهمي وأنا أفتح جفني ، أنني مت في واقع الحياة ، ثم بعثت في أرض حالمة خيالية . وشعرت بالحياء ينزل حتى قدمي كأنه ثوب منسدل ، وسمعت نداءه : إيّ يا حبيبتي ، يا أحب الناس إليّ ، واثلفت لحظات حياتي الماضية المنسية في كل واحدٍ ، للتجاوب مع ندائه ، وهتفت له خذني ، خذني كلي . وبسطت ذراعي له .

واحتجب القمر خلف الأشجار ، وغلف ستاراً من الظلام كل شيء .
واندمجت الأرض والسما والمدى والزمن والهناء والحياة
والمنية ، في نشوة عتيّة . وحين هلت بشائر الفجر ، وهتفت
الطيور أولى تغاريدها ، استيقظت ، وانحنيت ، فوق وجهه ،
وجلست متكئة على ساعدي الأيسر ، وكان مستلقياً غافياً ،
وعلى شفثيه كانت تسمو ابتسامة مبهمّة ، كأنها الهلال في سماء
الفجر ، وكان نور الصباح الوردي يحبو على جبينه النبيل ،
وتنهّدت ثم نهضت . وجمعت الغصون المعرّشة المورقة ، لأظله
بها وأدراً عنه أشعة الشمس .

وأجلت طرفي حولي فصافح عيني الربيع القديم نفسه ، وتذكّرت
حالي ، من قبل ، وكغزال يفرق من ظله ، أخذت أعدو ثم أعدو
في درب الغابة الممرعة بزهر الشيفالي .

وجلست ، منزوية ، ودفنت وجهي براحتي ، وأردت أن أنشج
وانتحب ، فلم تستهلّ عيناى بأي عبرة .

مادانا : وأأسفاه ، يا ابنة الإنسان الفاني ، لقد استللت لك من القبو
المقدّس ، سلافة السماء الشذية ، وأترعت منها كأس ليلة
واحدة من ليالي الأرض وناولتك الكأس لتنهلي منها ومع هذا
فإنني أسمع صرخة اليأس .

شيترا (بمرارة) : ولكن من الذي بلّ صدها منها ؟ إنّ اكتمال لذة
الحياة النادر ، المتمثّل في الوصال الأوّل للحب ، قد أتيح لي ،
ولكنه انتزع من يدي ، إنّ الحسن المجلوب ، هذا السربال
الخداع الذي يلفني ، سوف ينزاح عني ، حاملاً ذكرى الوصال
الشهية ، متساقطاً ، كالأفواف المتهاوية من الزهرة المنورة ،
حين تعصف بها الريح ، وعندئذ تقعد المرأة ، خجلى من عريها

المعدم ، منتحبةً ، ليلَ نهار ، يارب الحب إن هذا التصوّر اللعين
الذي جلوته لك يلازميني كأنه الشيطان ، ناهباً مني كلّ متع
الهوى ، كلّ القبل التي يظماً إليها قلبي .

مسادانا : وأسفاه ، كيف ضاعت ليلتكِ الفريدة هذه ، سدى ، إن زورق
الهناء يبدو مقترباً من شاطئك ، بيد أن الأمواج لم تدع له
سبيلاً ، ليرسو عند مرفئك .

شيترا : لقد تطامنت السماء ودنت مني ، الى مدى نسيت فيه ، لحظةً ،
أنها بعيدة عن متناول يدي ولكن... حين أفقت صباحاً ، من
حلمي ، عرفت أن جسми هو خصمي ، وأضحت مشغفتي
البغيضة : أن أزيّن جسدي كلّ يوم ، لأوفي به حبيبي ، وأرى
إليه يحظى بإعجابه ، ربّاه هلاً استعدت نعمتك .

مسادانا : ولكن ، إن استعدتها ، فكيف تلقين حبيبك ؟ ألا ترين أنها
قسوةٌ بالغةٌ أن أنتزع كأس الهناء من شفتيه ، وهو لم يكد يفرغ
من حسو النحلة الأولى ، ترى بأيّ وجه غضوبٍ ممتعضٍ سوف
يلقاك بعد ذلك ؟

شيترا : لأن يلقاني غضوباً ممتعاً ، خيراً عندي من هذه الحال . سوف
أكشف له عن حقيقة نفسي التي هي أنبل من هذا القناع ، فإن
صرفني وازدراني وصدع قلبي فلسوف ألوذ بحزني ، ساكتةً
راضيةً .

هازانتا : أعيري سمعك نصيحتي : حين يهلّ الخريف ، ينعدم موسم
الأزهار ، ويحلّ ، عندئذ مجد الفاكهة ، سيأزف الوقت الذي
تذبل فيه زهرة الجسد المشبعة بالحرارة ، وعندئذ سوف يرضى
(أرجونا) مغتبطاً ، بالحقيقة الأزليّة الناضجة ، الكامنة فيك ،
والآن... هيا ياطفتي ، استأنفي وليمتك المجنونة .

المنظر الرابع

(شيترا ، ارجونا)

شيترا : إيـو يا فارسي ، لِمَ تنظر إليّ هكذا ؟
ارجونا : إنني أتأمل ، كيف تضفرين إكليـك . إن الرشاـة والرقة ، هـذين
التوأـين ، يرقصان على أطراف أناـلك ، إنني أرمـك وأفـر .

شيترا : في أي شيء تفـر يا سيدي ؟
ارجونا : أفـر في أنك تضفرين أيام غربتي ، بالـقة نفسها ، برشاـة
اللمسة نفسها ، في إـليل خالـد تتوجـيني به ، حين نعود الى
البيت .

شيترا : الى البيت ؟ ولكن حبنا لم يـلـق للبيت .

ارجونا : لم يـلـق للبيت ؟

شيترا : أجل .

ارجونا : لماذا ؟

شيترا : لا تتحدث إليّ بهذا أبداً ، انـل الى بيتك القـة والإستقرار ، دـع
الزهرـة الوحشـة حيث ولدت ، ذرها تمت نـيرة في العشـة ،
بين الأزهار الذابلة والأوراق الجافة ، لاتأخذها الى قصرـك ،
لتحبسها في قاعاتك الحجرية ، قاعاتك التي لاتعرف الرافة
بالأشياء الذاوية المنسية .

ارجونا : تُرى ؟ أيـون حبنا كهذا النمط ؟

شيترا : أجل إنه كذلك ، فلم الحسرة عليه ؟ إن ما أعدّ لأيام الفراغ .
ينبغي ألا يدوم أكثر ممّا تدوم . إنّ الفرحة تنقلب الى ألم .
حين يغلق عليها الباب الذي كان في ميسورها أن تمضي منه .
فأمسك بالفرحة واقتنصها حين تسنح لك ، ولكن... لا تدغ بشم
مسائك يطالب لذة صباحك بأكثر ممّا تستطيع أن تبذل
وتعطي . لقد ولّى النهار ، فضع هذا الاكليل على رأسك ، أشعر
بإعياء يا حبيبي ، فخذني بين ذراعك ودع جدلنا الفارغ يتبدّد
في اللقاء العذب من شفاهنا .

ارجونا : صه ، اصفي يا حبيبتي ، إنّ رنين الأجراس المبتهلة ، يخلص
الى سمعنا من معبد القرية النائية على أجنحة نسيم الماء ، عبر
الأشجار الصامتة .

المنظر الخامس

(فازانتا ، مادانا)

فازانتا : أنا لا أستطيع أن أتابعك يا صاحبي ، فأنا متعب ، إن تأريث النار التي أضرمتها لعملٌ ناصبٌ شاق ، إنني أهومٌ من النعاس ، والمروحة تنزلق من يدي ، والرماد البارد يكسو وهج الجمر ، وأستيقظ ، وأحاول بجماع قوتي ، أن أذكي النار الوانية ، ولكن هذه الحال لا يمكن أن تستمر .

مادانا : أنت طَرفٌ^(١) ملولٌ كطفلٍ ، إنك لاتني تلهو في الأرض والسماء ، وماتعنى ببنائه في تؤدةٍ ومهلٍ ، في أيام ، تقوُضه ، غير آسفٍ ، في هنيهةٍ . غير أن مهمتنا تكاد تشارف الانتهاء . فالأيام المجنحة بالسرور ، سرعان ماترفرف ، ماضيةً ، والعام الذي شارف ختامه ، ينقضي في هناءة غامرة .

(١) الطرف : المتقلب .

المنظر السادس

(ارجونا ، شيترا)

ارجونا : وأفقت صباحاً ، فألفيت أحلامي قد استصفت جوهرَةً ، ولم يكن بحوزتي سفظٌ أحفظها فيه ، ولا تاجٌ أرصّعه بها ، ولا سلسلة أنوطها بها ، وعلى رغم هذا فإنّ قلبي يأبى أن أرمي بها بعيداً ، إنّ ساعدي الأيمن ، ساعد رجل من (كشاتريا) ، ساعدي الذي يحملها في كسلٍ وتراخٍ ، ليتخلف عن أداء واجبه .

(تدخل شيترا)

شيترا : فيمَ تفكّر ياسيدي ؟

ارجونا : تغازل خاطري رحلة صيدٍ أقوم بها ، اليوم ، انظري الى المطر كيف يسحّ غزيراً ، كأنه السيل ، ويجلد جانب الأكمة ، في ضراوة ، إنّ الظلّ الأسود المتطاوّل من السحب يجثم ، بوطأته على الغابة ، والجدول المتدفّق كالشباباب المغامر يتخطّى السدود ، في ضحكة ساخرة ، لقد تعودت أن أذهب وإخوتي الأربعة ، الى غابة (شيتراكا) في الأيام المطيرة ، كهذا اليوم ، لطراد الوحوش ، تلك أيام خلت . . كانت قلوبنا ترقص على هزيم الرعد ، في السحب المتوغّدة . وكانت الغابات تتجاوب بصياح الطواويس ، وكان هدير الشلال وهمس المطر يحجبان

عن سمع الظبي النفور ، خفق خطانا القادمة وكانت الفهود تترك
على الأرض الوحلة ، آثار برائنها الواشية بدروب أوجرتها .
وكنا نتبارى في أوبتنا الى البيت ، بخوض السيول المعرودة ،
في النهر ، سابحين . إن هذه الروح القلقة ماتزال كامنة في
نفسي وإنني لاضطرم شوقاً الى الطراد .

شيترا : اعدْ ، أولاً ، خلف طريدتك التي تنشدها ، الآن ، ولكن قل لي
أواثقُ أنت ، بأنّ ظبيك الساحر الذي تتقصّاه ، لابدّ أن يقنص ؟
لا . ليس الآن... إنّ هذا المخلوق الوحشي ليروغ منك ويسنح
كحلّم . في حين يتراءى لك أنه دانٍ قريبٍ . انظر الى المطر
المجنون كيف يطارد الريح ، ويلحقها ، مصوباً إليها ألف
سهم ، ومع هذا ، فإنها تأبى الغلبة ، وتهبّ حرّة ؟ كذلك طرادنا
نحن ، يا حبيبي ، إنّك لتلاحق روح الجمال الشرود ، مسدداً
إليه سهامك كلّها ، ومع هذا فإنّ هذا الظبي الساحر ليعدو ويظلّ
دوماً ، حرّاً ، سليماً .

ارجونا : حبيتي ، أليس لديك بيتٌ ، تنتظر فيه قلوبُ برّةٍ عودتك إليه ؟
بيتٌ ملأته بعنايتك الحلوة رقّةً ولياناً ؟ بيت قد انطفأ نوره ، بعد
أن هجرته لتعوذي بعزلتك هذه ؟

شيترا : فيمَ هذه الأسئلة كلّها ؟ ترى أ تكون ساعات الهناء الغافلة قد
انقضت . ألا تعلم أنني لست سوى تلك التي تراها أمامك ؟ وأرى
أنه ليس خلف ذلك خيال أو صورة . إنّ قطرة الندى المعلقة على
فوف زهرة (الكينسوكا) لاتملك اسماً ولا مصيراً ومن ثمّ فليس
في طوقها أن تجيب عن أيّ سؤال . إنّ تلك التي تحبّها وتكلّف
بها تشابه هذه القطرة من الندى مشابهة تامّة .

ارجونا : أليست لها صلةٌ تشدّها الى هذا الكون ؟ أليست ، في الحق ،

سوى ذرة من السماء تهامت على الأرض ، في غفلة من ربّ
عابثٍ؟

شيترا : بلى .

ارجونا : آه ، لهذا فإنه يخيل إليّ دوماً أنني أوشك أن أفقدك . إن قلبي
لم يألّف الرضى وفكري لم يجد الطمأنينة والهدوء . ادني مني
أيتها الأبية العصيّة نوالها ، واستسلمي الى قيود الاسم والبيت
والنسب ، وادعي قلبي يشعر بك كلّك وينعم معك بحبّ قرير
آمن .

شيترا : فيمَ هذه الجهود المبذولة عبثاً ، للإمساك بشيات الغيوم ،
برقص الأمواج ، بأريج الزهور ؟

ارجونا : سيّدتي ، لا تأملّي ، بهذه الكلمات الخفيفة الطائرة ، أن تحدّي
من غلواء الحي ، امنحيني شيئاً أمسك به ، شيئاً ، يبقى أكثر
من اللذة العابرة ، شيئاً يدوم ولو أتى عبر الألم .

شيترا : يا بطلي ، إنّ العالم لم يستوف ختامه بعد ، ومع هذا فقد برمت
وتعبت ، إنها لنعمة من السماء ، أفهم معناها ، الآن ، أن تكون
حياة الزهرة قصيرة ، لو كتب لجسدي أن يزوي ويموت ، مع
زهور الربيع الأخير ، لقضي محفوفاً بالاكبار ، غير أنّ أيامه
معدودةٌ يا حبيبي ، مع ذلك ، لاتفلته ، استصف منه شاهده كلّه
لنلا يعود إليه قلبك المستجدي ، برغبته المستوفزة ، كما تعود
نحلةٌ ظمأى ، الى أزاهير الصيف الذابلة المطروحة على التراب .

المنظر السابع

(مادانا ، فازانتا ، شيترا)

مادانا : هذه الليلة هي ليلتك الأخيرة ؟

فازانتا : غداً سوف تؤوب مفاتن جسدك الى ثروات الربيع المخزنة التي لا تنفذ ، وإما تحررت أثارة شفتيك من ذكرى قبلات (ارجونا) فلسوف تبرعم زوجين من أفواف زهرة (الأسوكا) الريا ، وسوف تبعث نضرة إهابك اللدن الناعم في مئآت من زهور الياسمين الفاغمة .

شيترا : إيه أيتها الآلهة لبي هذا الدعاء : دعي جمالي ، الليلة ، يبذل في ساعاته الأخيرة ، أروع بريقه ، كأنه الألق الأخير من شعلة محتضرة .

مادانا : لقد استجيب دعاؤك .

المنظر الثامن

(الفلاحون ، ارجونا ، شيترا)

- الفلاحون : ترى من الذي يحمينا الآن ؟
ارجونا : أيّ خطر يتهدّدكم ؟
الفلاحون : إنّ عصابة من اللصوص ، تندفع نحونا من الهضاب الشماليّة ،
منحدرة كالسيل العارم لتخرب قريتنا .
ارجونا : أليس لمملكتكم هذه حاكمٌ ؟
الفلاحون : لقد كانت الأميرة (شيترا) حاكمةً مرهوبةً من جميع الأشرار ،
ولم نكن نخشى ، حين كانت بين ظهرانينا ، أيّ بأس ، فيما
عدا الموت المعهود .
ارجونا : أأكون حاكمة بلدكم امرأة ؟
الفلاحون : أجل ، امرأة ، لقد كانت لنا أمّاً وأباً .

(ينصرف الفلاحون ، تدخل شيترا)

- شيترا : لماذا تجلس منفرداً ؟
ارجونا : إنني أحاول أن أتمثّل أيّ طرازٍ من النساء ، يمكن أن تكون
الأميرة (شيترا) . لقد أنهى إليّ كثيرٌ من الرجال قصصاً جمّةً
عنها .
شيترا : آه ، ولكنّها ليست رفاةً الحسن ، وليس لها عينان ساحرتان

كعيني ، عينان سوداوان كالمنية . إنّ في مكنتها أن تصيب أي هدف ، ولكنها لا تستطيع أن تصيب قلب بطلي .

ارجونا : يقال إنّها رجلٌ في شجاعتها وامرأةٌ في حنانها .

شيترا : هذه هي ، في الحق ، مصيبتها الكبرى ، حين تكون المرأة امرأةً بكيانها كلّها ، حين ترود حول قلوب الرجال ، بابتساماتها ، بعبراتها ، بعنايتها ، بعطفها الرقيق ، فإنها تكون سعيدة ، فماذا تفيد من العلم والمآثر العظيمة ؟ لو أنّك التقيت بشيترا ، مصادفةً ، في درب الغابة ، أمس ، قرب معبد (شيفا) ، لتجاوزتها دون أن تحبوها بنظرة ، ولكن... تراك عفت جمال المرأة ، الى حدّ يحملك على أن تنشد لديها قوة الرجل ؟ لقد أعددت في غارٍ مظلم كالليل فراشنا الذي نأوي إليه ، في الظهيرة ، من أغصانٍ خضرٍ مخضلةٍ برذاذ الشلال المزبد هناك تسري ، من الطحلب الطري الأخضر الذي يكسو الحجر الأسود النديّ - تسري رطوبةٌ عذبةٌ لتلثم عينيك وتهب لهما النوم . دعني أقدك الى هناك .

ارجونا : لا يا حبيبتي ، دعي ذلك الى يومٍ غير هذا .

شيترا : لمَ غير هذا اليوم ؟

ارجونا : لقد تأذى إليّ أنّ عصابةً من اللصوص ، تقترب من السهل ، عليّ أن أمضي وأعدّ سلاحي لأحمي الفلاحين .

شيترا : لا تخشَ بأساً عليهم ، فإنّ الأميرة (شيترا) قد نصبت ، قبل أن تفرّغ الى هجرتها ، حراساً أشداءً على الحدود كلّها .

ارجونا : دعيني أذهب لفترةٍ قصيرةٍ أؤدي فيها شعائر (كشاتريا) . إنّ ساعدي العاطل سيضحي إمّا تحلّى بمجدٍ جديدٍ خيرٍ وسادٍ لرأسك .

شيترا : وإذا أبيت عليك المضي وتشبّثت بك بين ذراعي ، فهل تفلت من ضمّتي قسراً ، وتدعني ؟! اذهب اذن ، ولكن . . اعلم أنّ غصن العريشة ، لاسبيل الى التناهي ، بعد أن ينقصف .
إذا كان ظمأك قد ارتوى فامض ، وإلا يكن فاذكر أنّ ربّة اللذة متقلّبة ، لاتنتظر أيّ رجل . إبقَ لحظةً ياسيدي ، قلّ لي أيّ أفكار قلقة تضنيك ؟ من يشغل ذهنك ؟ تراها (شيترا) ؟

ارجونا : أجل ، إنّها (شيترا) إنني أتساءل ، أيّ نذرٍ غريبٍ قد حملها على الهجرة ، تُرى أيّ رغبةٍ يمكن أن تصبو إليها ؟
شيترا : أيّ رغبة ؟ ؟ ولكن أيّ شيء ظفرت به هذه المخلوقة التعسة ؟ إنّ خصالها الحقيقية هي جدران سجنٍ يحبس قلبها ، قلب امرأةٍ ، في زنزانةٍ خاويةٍ . إنّها غامضة ، إنّها غير كاملة ، ومادامت عاطلةً عن الجمال ، فإنّ حبّها الأنثوي ليقنع بالتسّتر خلف ثياب خلقه . إنّ الجمال ليتنكّر لها ، إنّها أشبه بصباح جهنم ، يتكئ على قنّة جبلٍ صخريٍّ ، قد محت السحب الداكنة كلّ ضيائه ، لاتسلني عن حياتها ، فحديث حياتها لايحلو في سمع الرجل .

ارجونا : أنا تواق الى سماع كلّ شيءٍ عنها ، إنني كرائدٍ قادم في موهنٍ من الليل ، إلى مدينةٍ غريبةٍ ، فالقباة والأبراج ، والحدائق الغُلب ، تتراءى له ، غائمةً ظليلاً ، وتتردّد زفرة البحر ، كنيبةً ، بين الفينة والفينة ، عبر صمت الكرى ، وإنه لينتظر ، بصبرٍ نافذ ، منبَاج الفجر ، لينفض له الروائع العجيبة كلّها ، إليه هلاًّ سرت لي قصة (شيترا) .

شيترا : ليس ثمة شيءٍ أقصّه عنها .

ارجونا : يخيّل إليّ أنني أراها بعين فكري ، ممتطيّةً صهوة جوادٍ أبيض ،

يُدُّها اليسرى تمسك ، تياهةً ، بعنانه ، ويدها اليمنى تجذب قوساً ، إنها تريق الأمل الرغيد حولها ، كربةً من ربّات النصر ، وتحمي بشغفٍ مفترسٍ كلبوةً يقظى أشبالها الراضعة من ضروعها . إنّ ذراعي المرأة جميلتان ، إنّ ازدانتا بالقوة الظافرة . إنّ قلبي ليهتزّ ويجب ، كثعبانٍ يستيقظ من غفوته الشتويّة ، تعالي ولنمتطّ جوادين سريعين ، يخبّان بنا ، جنباً الى جنب ، كنجمين وضيئين يشقّان الفضاء ، لنهجر هذا لسجن الهاجع من الكابة الخضراء ، لنحسر هذا الستار الرطب الصفيق من التّسمم العابق الضاغط على الأنفاس .

شيترا : أرجونا ، قل لي الحقيقة ، لو قدّر لي ، الآن ، بأعجوبةٍ ما ، بأن أتحرّر من هذه الرّقة المثيرة ، من هذه الوسامة الخجلى التي تفزع من لمسة الكون المترعة قوّة وعافيةً ، ثمّ انزعها من جسدي كما أنزع ثياباً معارة ، تُراكّ تحتلّ ذلك ؟ لو قدّر لي أن أنتصب مشيقةً ، مدلّةً بقلبيّ جسورٍ ، مستهينةً بحيل الضعف الساحر وفنونه ، وأن أرفع رأسي شامخاً كشجرة التنوب السّحوق الفتية الجليّة ، غير زاحفة على التراب كالعريشة تُراني اجتذب نظرات الرجال ؟ لا ، لا ، يا (أرجونا) لن تستطيع احتمال ذلك إنني أوثر أن أدع كلّ الدمى الحلوة ، دمي الشباب الهيمان ، منثورةً حولي ، وأن أنتظرِكَ صابرةً... وحين يروق لك أن تؤوب ، فلسوف أهرق لك ، وأنا أبتسم ، خمر اللذة في كأس هذا الجسد البديع وحين تروى من هذه الخمر وتملّها ، فلسوف تستطيع العودة إلى عملك أو إلى لهوك ، وحين أضحي عجوزاً ، فلسوف أنتبذ ، شاكراً ، راضيةً ، أيّ ركنٍ باقٍ لي ، أفلا يحلو لروحك الباسلة ، أن تتشوف خدينة ليلك أن تصبح

رفيقة نهارك ؟ وأن تتمنى الذراع اليسرى مشاركة الذراع اليمنى
القوية بحمل عبئها ؟

ارجونا : أحسب أنه لن تتسق لي معرفتك أبداً ، تتراءين ، ربّة خبيثة في
تمثالٍ ذهبي ، لأجرؤ على لمسك ، لا أقدر على أن أفي بما
يجب عليّ نحو لقاء هباتك الثمينة ، لهذا فإنّ حبّي يظلّ
دوماً ، ناقصاً ، وألمح أحياناً في الأغوار الدفينة من نظرتك
الحزينة ، وفي كلماتك اللعوب الساخرة من معانيها نفسها ،
ألمح مخلوقة جديدة تحاول أن تدمر رقّة جسدها المضنيّة ، ثمّ
تشرئب ، مغلفة بالبسمات الطليّة ، وتطفو في نار الألم النقيّة .
إنّ الوهم هو أول مظاهر الحقيقة ، فإنها تدنو متكرّرة من
الحبيب ، ولكن... يقبل يوم تجفو فيه زينتها وقناعها ،
وتنتصب ، واقفةً ، متلفعةً بأنفتها الكشيفة ، إنني استقرئ
الحقيقة العارية ، استقرئ... بساطتها العارية ، استقرئ، كمالها
النهائي فيك أنت ، (شيترا) ، فيمّ تنهمر هذه الدموع ؟ لماذا
توارين وجهك براحتيك ؟ تُراني آلمتك أيتها العزيزة ؟ إنسي
ماقلت لك ، سأرضى بما لديّ ، دعي كلّ لحظة من لحظات
الجمال تقبل نحوي . كعصفورٍ مبهم يهفو من عشّه الخفي ،
حاملاً رسالته المجنّحة بالنغم ، دعيني استمسك بأمنيّتي دوماً ،
فلعلّها أن تتحقّق يوماً وأنهى بها أيّامي .

المنظر التاسع

(شيترا ، ارجونا)

شيترا (مرتدية معطفاً) : إيه يا رب ، أتكون الكأس قد فرغت ، حتّى آخر قطرة من ثمالتها ؟ أهذه هي النهاية حقّاً ؟ لا ، حين يولّي كلّ شيء ، فإنّ بعضاً منه يبقى ، إنه آخر تضحية أزجيتها الى قدميك . لقد قطفت من حديقة السّماء زهوراً لا مثيل لروائها ، لأرفعها إليك يا مليك قلبي ، فإن انتهت العبادة .

(تنضو شيترا معطفها وتبدو في دثار رجل)

انظر ، الآن ، بعين الرفق الى معبودتك ، لست أملك الجمال الكامل الذي ترتع به الزهور المقدّمة الى العبادة . إنّ في بُردّي عيوباً ونقائص ، إنني كراند يهيم في طريق الكون المنفسحة الكبرى . ثيابي ملوثةٌ وقدماي داميتان بالأشواك . تُرى أين أظفر بزهرة الجمال ؟ بالألقة الصافية ، ألقة لحظة الحياة ؟ إنّ الهدية التي أقدمها إليك ، في خيلاء ، هي قلب امرأة ، قد انتلفت فيه الآلام والهناات ، والتقى في حناياه خفر فتاة الأرض وتعلّاتها ومخاوفها . وانبجس منه الحب الذي يتوق الى الحياة الخالدة ، وانساب فيه النقص ، ولكنه النقص النبيل السامي . سيدي ، إنّ انتهت صلاة الزهر ، فأقبل هذه الزهرة ، كخادم

للأيام المقبلة . أنا (شيترا) ، ابنة الملك... لعلك أن تتذكر تلك المرأة التي قدمت إليك في معبد (شيفا) وكانت رافلةً بحليها وزينتها . لقد سعتُ إليك هذه المرأة الجريئة ، تطارحك الحب كما لو كانت رجلاً فصددتها . وحسناً فعلتُ . إيه ياسيدي ، إنني تلك المرأة ، لقد كانت لي قناعاً ، ولقد تمتعت بفضل الآلهة ، في مدى عام واحد ، بأروع جمال حظي به أي إنسانٍ فانٍ . بيد أن قلب بطلي قد ناء بعبء هذه الخدعة . وفي الحقيقة ، لستُ تلك المرأة . أنا (شيترا)...

لستُ ربةً تُعبد ، ولا شيئاً جديراً بالرافة ، يطرح دون اكتراث كأنه فراشة . فإن شئت أن تقبلني الى جانبك في درب الخطر والإقدام ، وسمحت لي بأن أشاركك في واجبات حياتك الجسام فليسوف تدرك آنذاك حقيقة ذاتي ، وإن جنينك الذي أحمله وأغذوه في رحمي صبيّاً ، سوف أعلمه أن يصبح (أرجونا) الثاني... وسوف تتمُّ لك حينذاك معرفة نفسي . ليس لديّ ، اليوم ، ما أقدمه إليك سوى (شيترا) ، (شيترا) ابنة ملك...

ارجونا : إيه يا حبيبتى لقد أترعتِ كأسَ حياتي .

البراعان

خواطرُ شعرية

في رحلة الشاعر الهندي العظيم (رابندراناث طاغور) إلى الصين واليابان ، كان يطلب إليه بعض المعجبين ، أبياتاً من الشعر ، لتطرّز على مناديلٍ حريريةٍ أو تنقش على مراوح اليد .

وكذلك ولدت هذه الأبيات الشعرية الرقيقة ، التي ضمّنها ديوانه (اليراعات) وهي فراشات تضيء ليلاً (ويسمّيها العرب أيضاً : الحُبّاحِب) وتأتلف هذه الأبيات في صورٍ رائعةٍ ، وحكمٍ وخواطرٍ ، تتلامح ومضاتها خاطفةً ، كأنها شرارات اليراعة المضيئة في الليل ، وتجلو كلماتها الموجزة ، ومعانيها العميقة ، فلسفة الشاعر الإنسانية ، وخياله المبدع .

المعرب

د. بديع حقي

أيتها اليراعات ، يا بدوات فكري
أيتها الشرارات الحية ،
المتوامضة في حَلَك الليل .

* * *

إن رِكَز الأزهار الزائلة ،
التي تنوّر على عِذار الطريق ،
والتي تقتحمها الأنظار ، دون مبالاة ،
يهمس ، خلال هذه السطور المترادفة ، بلا رابط .

* * *

في الكهوف المظلمة من الفكر الغافي ،
يبنى طائر الحلم عشّه ،

على حطام قافلة النهار .

* * *

إن الفرحة المتحررة من عرى الأرض الهاجعة ،
تنطلق ، عبر مدى الأوراق الرحب ،
وترقص في الفضاء ، سحابة نهارٍ بأكمله .

* * *

ينثر الربيعُ أفوافَ أزهاره ، خليّ البال ، غير مبالٍ بشمار المستقبل ،
متتبعاً نزوته ، في الحاضر .

* * *

حين تغرق مؤلفاتي المثقلة بالمعاني ،
فلعل كلماتي الخفيفة ،
تظل متراقصةً ، طافيةً فوق موجات الزمن .

* * *

تبسط فراشاتُ الفكر الخبيئةُ ،
أجنحتها الضبابيةُ ،
وتهفو برفرفةٍ مودعةٍ نحو سماء الغروب .

* * *

تحصي الفراشات ، باللحظات لا بالأشهر ،
وهذا يكفيها .

* * *

تكشف الشرارة في انطلاقتها ،
إيقاعاً زائلاً ،
تلك هي فرحتها .

* * *

ترامق الشجرة ، بشغف ،
ظلّها الرائع الذي تسفحه
ولكنها لا تستطيع البتة ، أن تضمّه .

* * *

الأيام هي فقاعات ذات شياتٍ قزحية ،
تتطاير على سطح الليل الذي لا يمكن أن يسبر غوره .

* * *

ألا فليؤت حبي القدرة على أن يسربلك ، كالشمس ، بالنور ،
وأن يترك لك ، مع ذلك ، حريةً متألّنة .

* * *

ان قراييني هي جدُّ ضميّلة ؛
بحيث لا تملك الزعم بأنك ستذكرها ،
فلعلها أن تمرَّ ببالك .

* * *

إذا كان اسمي ، ينهض عبناً عليك ،
فامحُه من قرباني ،
ولا تحتفظ لديك إلا بأغيتي .

* * *

يخطُّ نيسان ، كأنه طفل غرير ،
يخطُّ بالأزهار ، نقوشاً هيروغليفيةً ، فوق التراب ،
ثم يمحوها وينساها .

* * *

الذاكرة ، هي الراهبة التي تقتل الحاضر ،
وتقدّم قلبها قرباناً على مذبح الماضي الميت .

* * *

يلعب الأطفال في فناء المَعبد ،
وينسى الربُّ الكاهن ،

فيما هو يرامقهم يلعبون .

ما يكاد يتلامحُ برقٌ على موجة فكري ،
حتى يرتعش ، كما يرتعش جدولٌ على نغم مفاجئٍ طلي ،
لم يتردد قط ، من قبل .

تنتصب السكينة ، على الجبل ،
ليتسنى لها أن تتقرّى ، مدى ارتفاعها نفسه ،
تتوقف الحركة ، فوق البحيرة ،
ليتسنى لها ، أن تتملّى مدى عمقها نفسه .

إن وميض نجمة الصبح ،
هو القبلّة التي يطبعها الليلُ الهاربُ ،
على عيون الفجر المغتمضة .

إيه أيتها الفتاة ،
إن جمالك هو كالثمرة التي ينبغي لها أن تنتظرَ أوانَ نضجها ،

مفعمةً بسرٍ ، ما يزال متوارياً .

الألم ، بلا ذاكرة ،
هو كتلك الأويقات القاتمة المضنية ،
التي حرمت تغريدَ الطير ،
ولم يبقَ لديها سوى صرير الجدادج .

إن التعصبَ ، في حفاظه على الحقيقة ،
يهتصرها ، بقوةٍ ، على نحوٍ يفضي بها الى الموت .

حتى يتأتى لليل الرّحّب ، أن يشجع سراجاً خجولاً ،
فإنه يشعل نجومه كلّها .

يظل الفضاء ، رغم احتضانه لزوجته الأرض ،
يظل دوماً ، بعيداً عنها بعداً لا نهاية له .

يبحث الرب عن مرافقين ، ويطلبهم بالمحبة ،
أما الشيطان الذي يبحث عن أرقاء ، فإنه يتطلب منهم الطاعة .

تتمسك الأرض ، بالشجرة المنتصبة فوقها ،
لما تزجيه إليها من خدمات ،
أما السماء فتدع الشجرة حرة ، ولا تطلب إليها أي شيء .

إن الخلود ، هذه الجوهرة
التي تُزهى لا بأعوامها المديدة ،
بل بالقة لحظة واحدة خاطفة .

يظل الطفل قابلاً ، دوماً ،
ضمن لغز الأزمنة التي لا عمر لها ،
والتي لا يجعلها غبار التاريخ قاتمة .

إن ضحكة رقيقة ،
تنسرب في إثر خطأ الإبداع ،

لا تلبث أن تتجاوزَه ، سريعاً ، على مدى الزمن .

* * *

حين يعتزم السلام ،
أن يكنس أدرائه ،
تهبُّ العاصفة .

* * *

تنكفئ الغائبة ، عند منبلج الفجر ،
إلى جواري ،
ويجعلها الليل ، إذ يحملها إليّ ، أكثرَ قرباً .

* * *

في حديقتك ، تُزهرُ شجرات غارٍ أبيض ،
في حديقتي ، تُزهرُ شجرات غارٍ قرمزية ،
وفي صمتٍ ، تتبادل التحايا ،
حين يضع نيسان خاتمةً لرقادهما .

* * *

على سفح الجبل ، تمتد البحيرةُ
كأنها التماسٌ مضى ، يبسطه الحب ،

أمام أقدام المتعنت ،
الذي لا يمكن أن يلين .

* * *

يبتسم الطفل الرباني ، بين دُماه ،
التي هي أنوارٌ زائلةٌ وظلالٌ عابرةٌ ،
وقواربُ من غيومٍ تنطلق ، نحو السماء .

* * *

همس النسيم لزهرة اللوتس :
- تُرى ما هو سرّك ؟
وأجابت زهرة اللوتس :
- إنه نفسي ذاتها ،
خبّي : هذا السرّ ، أغبّ أنا .

* * *

إن حرية العاصفة ،
وعبودية ساق الشجرة ،
يتدانيان في رقصة الأغصان المتحركة .

* * *

يبث الياسمين ، بزهراته ،
حبّه للشمس .

* * *

يريد الطاغية ، أن يكون حرّاً ،
في وأده للحرية ،
محتفظاً بها لنفسه ، في الوقت ذاته .

* * *

تغبط الآلهة الناس ،
إمّا برمت وضافت بفردوسها .

* * *

الغيوم هي هضابٌ من بخار ،
والهضاب هي غيومٌ من حجر ،
هي توقُّ إلى عناقٍ ،
لا يني ينساب في حلم الزمن .

* * *

يأمل الله أن يبني له الحبُّ ، معبده

وَألاَّ يجلب له الإنسان سوى الحجارة .

* * *

إنني أصل إلى الله بغنائي ،
كما يصل الجبل إلى الأوقيانوس القصي ،
بشلالاته .

* * *

يعثر النورُ على كنز ألوانه
عبر معارضة السحب ، لبعضها بعضاً .

* * *

في هذا الصباح ، يتسم قلبي ليلتي المخضلة بالدمع .
كالشجرة الرطبة الرياً ، التي تتوامض للشمس ،
غِبَّ المطر .

* * *

إن زلات حياتي ، تتوسل ، ضارعةً إلى الجمالِ الرُوف ،
الذي يستطيع ، وحده ، أن يذيب عزلتها .
في مؤالفةٍ متناغمةٍ مع الكل .

* * *

إنني أسدّد ، بالحب ، الدينَ غير المحدود ،
الذي ينبغي لي أن أفيه لك ، مقابل أن تظلّ أنت نفسك

إن الأشجار التي جعلت حياتي غنيّة بالثمار ،
قد أزجيت إليها شكري ،
أما العشب الذي حفظت لحياتي ندواتها المخضوضرة ،
فلم أتذكر قط ، ما أسداه إليّ .

إن المنفرد المنعزل ، ليس سوى العدم ،
والغير هو الذي يجعله موجوداً حقاً .

إنه ليطلب الى الطير المنفيّة المهجّرة من الأعشاش ؛
أن تؤدي عرفائها ،
لأنها تجد ملاذّها ، في قفصٍ جميل .

يا زهورَ النيلوفر ،

أيتها القصائد التي تفجّرها بركة الماء من أعماقها القاتمة ،

وتتطَّلَعُ إليها الشمس ، معجبةً .

إنه لجحود أن يبسط المرء لسانه في النيل من عظام الناس ،
لأن في ذلك إساءةً إلى نفسه ،
وإنها لدناءةٌ أن يبسط لسانه في النيل من صغارهم ،
لأنَّ في ذلك إساءةً إلى الآخرين .

الأشجار هي الجهود الأزلية ،
التي تبذلها الأرض ،
لتناجي السماء المصغية إليها .

إنني أضحك من نفسي ،
فأتخفَّف من عبءِ ذاتي .

يمكن أن يضحى الضعيف رهيباً
لأنه يجهد ، بضراوةٍ ، ليتراءى قوياً .

لعبة الحياة سريعة ،
أما دُمى الحياة ،
فإنها تتهاوى ، خلفها منسيّة ،
دميةٌ في إثر دميةٍ .

* * *

إيه أيتها الزهرة لا تبحي عن فردوسك ،
فوق عروة سترة أحرق .

* * *

إيه يا هلالى لقد أطللت ، متأخراً
ولكن طائر ليلي ما يزال ساهراً ، ليلقي إليك بتحيته .

* * *

الليل ، هذه الزوجة المحجّبة ،
التي تنتظر ، بصمتٍ ، أن يؤوب النهار الشارد ،
ويفيء إليها ، جاثياً ، في كنف قلبها .

* * *

إن الزهرة الأولى المتفتّحة ، على هذه الأرض ،

قد دعت الأغنية ، لتَهَلَّ وتولد .

* * *

حين يشحب الفجر ، هذه الزهرة المتألّفة الألوان ،
تتراءى ، كما لو أنها ثمرةُ النور الدانيةُ البسيطة .

* * *

إن العُضْل الذي يرتاب في حكمة نفسه ،
يخنق الصوتَ الذي يودُّ أن يجارَ ، صارخاً .

* * *

تتوق الريح إلى الشعلة ،
بيد أنها تطفئها إمّا أمسكت بها .

* * *

تزأر ريح السماء ،
وتتشبّث المرساة يائسةً ، بذراعها ،
غير أن قاربي الذي نفذ صبره ،
يبغي أن يحلّ سلسلته ويطلقها .

* * *

تتقد زرقۃ السماء رغبۃً فی خضرة الأرض ،
وتتنهد الریح ، فیما بینهما ، مرددةً : وأسفاه .

* * *

إن الألم المسریل بألق النهار ،
یتضوّع ، فاعماً ، فی اللیل ، بین النجوم .

* * *

یبذل السحابُ ، ذهبه کلّه ، للشمس الغاربة ،
ولا یتقبل القمرَ إلا بابتسامةٍ شاحبةٍ .

* * *

من یفعل الخیر ، یصلُ إلى باب المعبد ،
أما من یحب فإنه یفزی إلى المحراب .

* * *

أیتها الزهرة ، هلاً أشفقت علی الدودة ،
إنها غیر النحلة ،
لأن شغفها بك هو زلّة وخطأ .

* * *

من أنقاض الطغيان المنتصر ،

يبني الأطفال بيتَ دميتهم .

ينتظر السراجُ المهملُ ، طوالَ النهار ،

قبلةَ الشعلةِ التي تسوق إليه الليل .

إن الريشات المطروحةَ على التراب ، متعطلةٌ ، قانعةٌ ،

قد أنسيَتْ كيف تطير ، في السماء .

ليس للزهرة المنزوية ،

أن تغبطَ الأشواكَ الجمَّةَ .

يتألم الناس ، بصورة خاصة ، من الطغيان اللامبالي ،

الذي يبديه من يريد لهم الخير .

إننا لا نظفر بالحرية ،

إلا بعد أن نسدّدَ تماماً ، حقناً بالحياة .

إن هباتك الشاردة ، والساهمة ،
المماثلة للشُهْب في ليلة خريفية ،
تتصرّم ، متّقدة ، في أغوار كياني .

إن الإيمان الذي يكمن ، منتظراً ، في لباب بذرة ما ،
يَعِدُ بمعجزة حياة ،
لا يتأتّى له أن يثبتها ، إلا فيما بعد .

يتردّد الربيع ، أمام باب الشتاء ،
بيد أن زهرة العنباء (المانغا) تهفو إليه ،
وتعثر ، قبل الألوان ، على قدرها .

أيها الكون ، أيها الزبد المتغيّر ،
الذي يطفو على سطح بحر الصمت .

يمزج الشاطئان المنفصلان أصواتهما ،
في نغمٍ حزينٍ لا يمكن أن يُسَبَّر غوره .

* * *

إن العمل ، كالنهر المفضي الى البحر ،
يحقق إنجازَه ،
في طيَّات الفراغ .

* * *

لقد تأخرتُ فيما كنت أضرب في الدرب ،
حتى تفقد شجرتك ، شجرة الكرز ، زهراتها ،
بيد أن زهرة (الصحراوية) ، يا حبيبي ،
تنقل إليّ ، صفحك عني .

* * *

إيه يا برعم الرمانة الغض الخجول ،
المتضرِّج ، اليوم ، حمرةً ، خلف قناعك ،
سوف تنورّ ، في زهرة جُلنار ، مشبوبةِ العاطفة ،
حين أغيب ، غداً ، عن الوجود .

* * *

الولادة ، هي ممرٌ من لغز الليل ،

الى لغزٍ مبهمٍ ، من النهار ، أكثر عمقاً .

إن القوةَ الرعناءَ تزيّفُ المفتاحَ ،
وتفزعُ إلى معول الهدم .

قد صنعتُ قواربي الورقية ،
لتتراقصَ فوق موجات ساعات الزمن ،
لا لتشارفَ هدفاً ما .

تطير من كياني أغنياتٌ مهاجرةٌ ،
ساعيةٌ ، لتبني عشّها على صوتك العاشق .

إن بحر الخطر والريبة والجحود ،
الذي يغمر جزيرة اليقين ،
يدعو الإنسانَ إلى ارتياد المجهول .

يعاقب الحبُّ المهانُ بصفحه ،
ويعاقب الجمالُ المهانُ بصمته النبيل .

إنك تعيش ، منفرداً ، وحيداً ، دون أجرٍ أو تجزية ،
لأنهم يخشونَ قيمتك المرموقة العالية .

إن الشمس نفسها ، لا تألو تلد فوق أراضٍ جديدةٍ ،
في دورة من الأصباح متصلةٍ ، دون انقطاع .

إن عالم الله ، لا يني يتجدد بالموت ،
أما عالم الطاغية فإنه مسحوقٌ بوجوده نفسه .

إن دودة القطرب^(١) المضيئة التي تتقرى التراب ،
تجهل أن في السماء نجومًا .

الشجرةُ هي بنت اليوم ،

(١) دوية تضيء ليلاً .

أما الرهرة فقديمه ،
إنها تحمل رسالة البذرة ،
التي لا تعيها الذاكرة .

تحمل إليّ ، كلُّ وردةٍ جديدةٍ ،
تحيةً وردة الربيع الأزلي الخالد .

يشرفني الله ، حين أعمل ،
ويحبنى حين أغني .

إن الحب الجديد ، لا يجد البتة ، ملجأً له ،
في العش الذي هجره الحب السابق ، من قبل .

تشقُّ نارُ العذاب ، من أجل روحي ،
درباً مضيئاً ، عبر وجعها .

يبقى العشب ويعيش ، أكثر مما تعيش الربوة ،

عبر مياتٍ لا عدادَ لها .

لقد تواريت ، وأضحيتِ بمنأى عني ،
دون أن تخلفي شيئاً ، سوى لمسةٍ رقيقةٍ في زرقة السماء ،
وصورةٍ خفيةٍ ، في الريح التي تلعب ، بين الظلال .

إن الربيع ، في رأفته بالغصن المقفر المهجور ،
يدع له قبلةً ،
ترتعش فوق ورقته المنعزلة ، المنزوية .

في الحديقة ، يشغف الظلُّ الخجولُ بالنور ، في صمت .
وتحسر الأوراقُ عن السر ،
وتبتسم الأزهار .

لا أخلف أيَّ أثارة من الجناح ، في الفضاء ،
ولكنني سعيدٌ ، لأنني قد انطلقت طائراً .

البراعات التي تتوأمضُ ، في ثنایا الأوراق ،
تبهـر النجوم ، دهشةً .

الانتصار الظاهر للضباب ،
يدع الجبلَ ، غير آبهٍ ، مكترث .

بينما تردد الوردَةُ للمشمس :
- لن أنساك أبداً .
تتهاوى أفوافها ، على التراب .

الجبـالُ هي الحركاتُ اليانسةُ التي تقوم بها الأرض ،
أمام ما لا يمكن النفوذُ إلى كنهه .

إيه أيها الجمال ،
على الرغم من أن شوك زهرتك قد جرحني ،
فإنني معترفٌ ، مقررٌ بفضلك .

يعرف الناس جميعاً ، أن العدد اليسير ،

أكثر اعتباراً من الحشد الكبير .

يا صديقي ، لا يكن حبي لك عبئاً عليك ،
واعلم أنه يجزي نفسه بنفسه .

يضرب الفجر ، على مزهره أمام أبواب الليل ،
ويرضى بأن يتوارى ، حين تبزغ الشمس .

يتراءى الجمال ابتسامةً للحقيقة ،
حين تلمح الحقيقةً محياها ،
في صقال مرآةٍ كاملة .

إن قطرة الندى ، لا تعرف الشمس ،
إلا ضمن فلكها الدقيق الصغير .

إن سرباً من الخواطر اليتيمة ،
هارباً ، منطلقاً ، من خلايا الأعمار ،

يدندن ، هازجاً حول قلبي ،
فيما هو يبحث عن صوتي .

الصحراء هي حبيسة ،
ضمن سور من جذبها الذي لا حدَّ له .

في ثنايا رعدة الأوراق الغضة ،
ألمح رقصة الهواء المتوارية ،
وفي وميضها ،
أستجلي نبضات السماء الخفية .

كشجرة منورة مزهرة ،
تدهشين ، حين أطري عطايك .

إن النار المقدسة ، نار الأرض ، تشتعل بين الأشجار ،
مذرذرة شراراتها ، خلال الأزهار .

إن الغابات ، هذه الغيوم الأرضية ،

تبسط للسماء صمّتها ، وتتطامن ، من عل ،
وتهمي وتصوبُ ، في ديمٍ مرنانةٍ .

يخاطبني الكونُ بالصور ،
وتجيب روعي بالأغاني .

النجومُ الجمّةُ ، هي لآلىء المسبحة ،
التي تسلسل السماء حباتها ، طوال الليل ،
إحياءً لذكرى الشمس .

ظلمةُ الليل الداجية ، خرساء كالآلم ،
أما سدفة الفجر فصامتةٌ كالسلام .

ينقش الغرور تهديده ووعيده ، على الحجر ،
ويبسط الحب استسلامه ، في الأزهار .

إن ريشة التصوير الذليلة ، تشوّه الحقيقة ،

في تكيفها ومراعاتها للوحة الضيقة .

حتى يسوَّغوا تبديدَهم للمداد ،
فإنهم يسجلون الليلَ نهاراً .

إن الجبل ، في حنينه إلى السماء القصية ،
ينفس على السحاب انطلاقته العاجلة في بحثه الخالد .

تبتسم المصلحة للطيبة ،
حين تلقي لديها ربَّحها .

إن الفقاعة ، المنفوخة صلفاً ،
تشكُّ في وجود البحر ، مستضحكةً ، ثم تنفجر في العدم .

أيها الحب ، أيها اللغز الخالد ،
الذي لا يتأتَّى لغيرك أن يجلوه ويفسره .

إن غيومى التي تضئها الظلمات .
تنسى أنها هي نفسها التي حجبـت الشمس .

* * *

يكتشف الإنسانُ غناه ذاته ،
حين يطلب الله إليه قرباناً .

* * *

إنك تخلف ذكراك ، كشعلةٍ ،
تتألف في سراج فراقنا .

* * *

لقد قدمت إليك ، منذ أمد قريب ، زهرةً ،
ولكن ، خذْ حديقتي كلها ،
فإنها لك .

* * *

التصوير هو ذكرى النور ،
التي اكتنزها الظل .

* * *

إنه لمن السهل على المرء ان يعاثر الشمس ، بمحياء المكشّر ،
فإن نورها نفسه ، يكشفه ويعرضه من جميع جوانبه .

يظلّ الحب سرّاً مستغلقاً ، حتى بعد البوح به ،
لأن العاشق ، وحده ، يعرف أنه محبوبٌ حقاً .

يخنق التاريخُ ، ببطءٍ ، حقيقته تفسّها ،
بيد أنه يجهد أن يبعثها ، سريعاً ، حيةً ،
ضمن توبة الألم الرهيبة .

يستوفي كدحي أجره ، بضماناتٍ يوميةٍ ،
وانتظر من الحب ، تقديره النهائي لهذا الأجر .

يطيب للرب أن يجد بشخصي ، لا خادمه ،
بل ذاته نفسها ، هو المولى الكلي الشامل .

تألف ظلمة الليل ، مع النهار ،
أما الفجر الغائم بالضباب فهو نشازٌ وتنافر .

* * *

الحب هو الخمر ، في زمن الورود الكريم ،
هو القوت في زمن المجاعة ،
حين تنتشر أفواف الورد ، مبددةً .

* * *

على أرضٍ مجهولةٍ غريبةٍ ،
تفضي زهرة مجهولة للشاعر قائلة :
- إيه يا حبيبي ، ألسنا نحن من بلد واحد ؟

* * *

ان معزفي غير المضبوط (المدوزن) يلحف في طلب الموسيقى ،
بنداءاتٍ من الخزي ، جزعةً ، مرتاعةً .

* * *

تجد الأرضة ، أنه من المستغرب المنافي للمعقول ،
ألا يقرض الإنسانُ كتبه ويأكلها .

* * *

تتراءى ، اليوم ، السماء الغائمة ،
كأنها ظلُّ الحزن الرباني ،
المتفرق على جبهة الخلود الحالم .

ظل أشجاري ممدود ، مبذول لمن يمرون ،
أما ثمارها فمبذولةً لتلك التي أنتظرها .

إن الأرضَ المتضرّجة حمرةً ، في بريق الشمس الغاربة ،
تتراءى ثمرةً ناضجةً ،
مهيأةً ، معدّةً ، لأن يقطفها الليل .

يرضى النهار بالظل زوجةً له ،
لمصلحة الإبداع والخلق .

تنتظر شبّابة الراعي لهائه لينسمَ فيها ،
فيما ينتظر صاحبها ، بحثاً عنها .

يخيّل إلى القلم الأعمى ، أن التي تكتب به ،
هي وهمٌ لا حقيقة له ،
وأن الكتابة خاويةٌ من أي معنى .

يضرب البحرُ نهده العقيم ،
لأنه لا يملك أزهاراً يزجوها إلى القمر .

يزدري الجشعُ الزهرة ،
إيثاراً منه للثمرة .

ينتظر الربُّ ، في معبده الزاخر بالنجوم ،
أن يجلب له الإنسانُ سراجَه .

تصوغ النارُ ، الحبيسةُ في الشجرة ، الزهرة ،
فإذا ما انعتقت وأضحت حرةً ، تحركت شعلتها الوقاحُ ،
وانتفضت رماداً عقيماً .

تنصب السماءُ فخاً لتأسر القمرَ ،
إن حريتها نفسها هي التي تستدرجه وتشدُّه إليها .

إن النور الذي يملأ السماء ،
يبحث عن حدوده في قطرة الندى .

إن الألقّة القاسية المتواضعة من النصل الفولاذي ،
تستهزئ بالشمس .

تتمتع الفراشة بأويقات الفراغ ،
لتصبو فيها إلى زهرة اللوتس ،
ولا يحتاج ذلك للنحلة المشغولة باختزان شهدها .

أيها الطفل ، إنك تنقل إلى قلبي ،
لغو الرياح والماء ،
وأحلام السحاب ، وأسرار الأزهار الخبيثة بلا كلمات ،
ونظرة السماء الصاحية ، الخرساء من عجبٍ ودهشة .

يمكن أن يضحي قوس قزح كبيراً بين رُكام الغيوم ،
بيد أن الفراشة تظل أكبر منه ، بين الأدغال .

ينسج الضبابُ شبكته حول الصباح ،
ثم يحبسه ، ويحميه .

همست نجمة الصبح للفجر :
هلاً قلت لي : إنك ستكون لي وحدي ،
وأجاب الفجر :
- أجل ، وسأكون أيضاً لتلك الزهرة المجهولة .

لربما ابتسم الهلال ، مرتاباً ، متشككاً ، حين يقال له :
- لست سوى جزء ينتظر أن يكتمل .

ألا فليغفر المساء للنهار ذنوبه ،
ليتأتى له أن يظفر بالأمن والسلام .

يبتسم الجمال ، الى جوار البرعم ،

في لب تناقص ، ناعم عذب .

* * *

يلامس حبك الشارد ، بأجنحته ،

زهرتي ، زهرة عباد الشمس ، ملامسة رفيقة ،

دون أن يسألها عما إذا كانت مستعدة لتجود له بشهدا

* * *

الأوراق هي هنيهات من الصمت ،

تسربل الأزهار وتحيط بها ، الأزهار التي هي لغو وكلام .

* * *

تحمل الشجرة ألوف أعوامها ،

كما لو أنها مؤتلفة في لحظة واحدة ، مهيبة .

* * *

إن قرابيني ليست مقدمة الى المعبد الضخم القائم في نهاية الدرب

بل إلى المعابد الصغيرة القائمة على حيد الدرب ،

التي تفاجئني ، في كل منعطف .

* * *

مثل أريج زهرة غريبة ،
تظل ابتسامتك ، يا حبيبي ،
بسيطة ، تستعصي على التفسير .

* * *

حين يسرف الناس في إيراد مآثر الفقيد ،
يتهانف الموت ، ضاحكاً ،
لأن ذلك ، يضيف إلى ذخائره ،
مزيداً يفيض عما يستطيع أن يدعيه .

* * *

إن زفرة الشاطئ ، تتعقب عبثاً ،
النسيم الذي يدفع بالسفينة ،
في خضم الأوقيانوس الرحيب .

* * *

تحب الحقيقة حدودها ،
لأنها تلتقي ، ثمة ، بالجمال .

* * *

ما بين شطآني أنا ، وشطآنك أنت ،

يمتد أوقاينوس ذاتي ، الذي يمور هادراً ،
والذي أتشوف أنا الى عبوره .

* * *

إن حق التملك يُزهى ، بصفاقةٍ ،
بحقه في التمتع .

* * *

الوردة هي أكبر من أن تكون ،
ثناءً مخضباً بالحمرة ، مُزجىً من أجل الشوك فحسب .

* * *

يقدم النهارُ معزفه الذهبي إلى صمت النجوم ،
ليتاح له أن يضبط أوتاره ويؤلفها مع الحياة الأزلية .

* * *

يعرف الحكيم كيف يعلم ،
في مركز دوائر الرقصة الخالدة .

* * *

لا يملك السراجُ ، في النهار ، سوى زيتَه ،

فلا تتطلب منه نوراً ، ليس في وسعه أن يبذله ،
إلا في الليل .

إن الزهرة الأسيرة المعقودة فوق تاج الملك ،
تبتسم ، بمرارة ، لزهرة الحقل التي تغطيها وتنفس عليها منزلتها .

يُشكّل رُكامُ الثلوج ،
العبءَ الوحيدَ الذي ينهض به الجبل ،
بيد أن مياهها المتدفقة ،
تنهض الأرضُ كُلُّها بعبء حملها .

تتوسل براعم الغابة الى الشمس ، هاتفة :
- هلاً فتحت عيوننا للنور .

إلا فليؤت حُبُّك القدرةَ على رؤيتي
ولو تمّت ، عبر جدار الإلفة .

إن روح العمل في الإبداع ،

تظل ثمّة ، ماثلة ،

لتساعدَ روحَ اللعبة المبدعة ، وتجذبها .

أن ينهض المرءُ بعبء الآلة الموسيقية ،

مقوِّماً ثمنَ مادتها فحسب ،

جاهلاً ، دوماً ، أنها صنعت لتَهْتَرَّ ، عازقةً ،

تلك هي مأساة أولئك الذين يعيشون دون أن يحسنوا الإستماع .

الإيمان هو ذلك الطائر الذي يتوقَّع مطلعَ النور ،

فيغرَّد والفجر مظلمٌ ، لم ينشقَّ بعد .

إيه أيها الليل ،

إنني أقدمُ إليك كأسَ نهاري الفارغة ،

نقَّها وطهرَّها بظلماتك الرطبية ،

من أجل عيد فجرٍ جديد .

تنسَّق صنوبرةُ الجبلِ ، وتؤلف برعشتها ،
ذكرياتِ نضالها ضد الإعصار ،
في نشيدِ هازجٍ بالسلام .

يشرفني الله بنضاله ،
حين أثور ،
ويتجاهلني حين أقبع ، غير مكترث بشيء .

يخيّل إلى المتعصّب أن البحرَ الواسعَ قد تمَّ عبوره
ضمن مستنقعه الخاص به .

في الأغوار الظليلة من الحياة ،
تختبئ الأعشاشُ المنعزلةُ ،
أعشاشُ الذكريات التي تجتوي الكلام .

ألا فليستمدَّ حبي قوّته ،
من الكدح ، في النهار ،

وسلامه من اتحاده بالليل .

تعطو الحياة ، بحزمة أعشاب ،
تسبيحها المؤتلف من المدائح الصامته ،
الى النور الهامد .

تترأى لي نجوم الليل ،
ذكرى الأزهار المصوَّحة من نهاري .

ينبغي لمن ينبغي أن ينسلخ ، خارجاً من الروح ،
ألا يضع أيَّ عائق ،
فإن الإكراه يجعل الدمارَ أشدَّ خطراً .

النهاية الحقيقية ليست في استشراف الحد الأقصى ،
بل في بلوغ كمالٍ لا حدَّ له .

الشكل هو ضمن المادة ،
والإيقاع هو ضمن القوة ،
والمعنى هو ضمن الشخص .

يبحث بعضهم عن المعرفة ، وبعضهم الآخر عن الثروة ،
بيد أنني لا أرغب إلا في حضورك ،
ليتسنى لي أن أغني .

كما تنثر الشجرة أوراقها ،
فإنني أزرع كلماتي في أديم الأرض ،
وأدع خواطري غير المعبر عنها ،
تُزهر في صمتك .

إيه أيها المعلم ،
إن إيماني بالحقيقة ، ورؤيتي للكمال ،
تعينانك في إبداعك .

يهمس الشاطيء للبحر :
أكتب لي ما تجهد أمواجك أن تقوله ،
ويسطر البحر كلماته ، زبدًا ،
ثم يمحو السطور ، في يأسٍ هادرٍ صاخبٍ .

ألا فلتهتز أوتارُ حياتي ،
بلمسةٍ من أناملك ،
مؤتلفةٍ في موسيقا ، تمتح من ذاتي وذاتك ، في آنٍ .

ان العالمَ الداخلي ، المصوغ ، المسوى ضمن حياتي ،
والمماثلَ لثمرة أنضجها الفرح والألم ،
سوف ينهار ، متداعياً ، ضمن دياجير ظلمة الأرض الأصلية ،
ليتابع ، من ثم ، سلسلةً جديدةً من الإبداع والخلق .

دعني أقوم جميع اللذات التي تخلص إليّ ،
من ثمار الحياة وأزهارها -
دعني أقدمُها إليك ، في نهاية العيد ،

في اتحادٍ كاملٍ مع الحب .

لقد تسنَّى لبعض كبار المفكرين أن يسبروا معنى الحقيقة ،
تلك هي عظمتهم ،
ولقد أصغيت إليك ، ليتسنى لي أن أدرك انسجام عزفك ،
تلك هي فرحتي .

تضحي الشجرة ،
إمّا تحرّرت من رق البذرة ، روحاً مجنّحةً ،
لا تني تتابع مخاطرة حياتها ، عبر المجهول .

تقدّم زهرة اللوتس سناءها الى السماء ،
وتقدّم حزمة العشب ، خدماتها الى الأرض .

إن قبلة الشمس تحيل شحّ الثمرة الفجّة ،
المتعلقة بجذع شجرتها ،

الى عطاءٍ طيِّعٍ عذبٍ .

* * *

تلتقي الشعلة ، بالسراج الفخاري ، ضمن كياني ،
يا لها من معجزةٍ نورانيةٍ كبرى ، تتحقق ، آنذاك .

* * *

في الليل الصامت ،
أسمع أمنيات الصباح ، المشردة ،
تنكفي ، لتقرعَ قلبي .

* * *

تتراءى السحابةُ للنهر المشغول بجريانه ،
كما لو أنها نافلةُ النفع ، عقيمة .

* * *

بعضهم يعبر الحياة ،
كالطفل الذي يقلِّب صفحات كتاب ،
مقتنعاً بأنه يقرأ فيه .

* * *

كان الزمن خلال رحلتي ،
يتراءى لي سلسلةً من الأيام القادمة ،
أما الآن ، وقد اجتمعت إليك ،
فلم يعد يتَّسق ، إلا في حاضري .

في صباوتي وحببي لك ،
وعيت معنى الفرح المتجلي في معرفة الحقيقة .

يقول لي الحب :
إن الموت ليس إلا سوء تفاهم .

سخر السحابُ من قوس قزح قائلاً :
- لست سوى وصولي تيّاهٍ مترفٍ ، في فراغه ،
فأجاب قوس قزح بهدوء :
- أنا ، لا محالة ، حقيقي ، كالشمس نفسها .

جلب لي الحب الجديد :

الثروة الخالدة التي خلفها الحب الراحل .

* * *

لا تدعني أتقرّى ، باحثاً ، في الليل ، عبثاً ،
ولكن دغ فكري يؤمن بأن النهار سوف يولد ،
وأن الحقيقة سوف تتجلّى ،
في بساطتها .

* * *

إن المدينة التي حسرت في نور الشمس ،
عن عمرٍ جديدٍ لها ،
تحمّر خجلاً ، لأنها أضاعت أغنياتها كلّها .

* * *

إن نايَ حياتي ، الخاوي كالظلمات الأولى ،
المنتشرة ، قبل مطلع النجوم ،
ينتظر أغنيته النهائية .

* * *

لن تتمتع الشجرة بحرية أكبر ،

حين تنعق من رق التراب .

يتجلى تاريخ الحياة ، على النحو التالي :
بساطٌ منسوجٌ من أواصر الحياة ،
وخيوطٌ لا تأتلي ، تتصل وتنقطع .

إن أفكارى التي لا يتسق للكلمات أن تحبسها ضمنها ،
تخطُّ على أغنياتى ، لتتراقصَ فوقها .

القواقع اللؤلؤية التي لفظها البحر ،
على الشاطئ ، المجدب من الموت ،
هي البذلُ المعطاء الذي تسخو به الحياة المبدعة .

يفتح لي نورُ الشمس بابَ الكون ،
 ويفتح لي نورُ الحب بابَ كنوزه .

تماثل حياتي ، النايّ المليء بالثقوب ،
في تلاعبه بالألوان ،
عبر فواصل تعلّاته وفرحاته .

فلتعمل كلمات شكري ،
على ألا تحرم صمتي البتة ،
من إزجاء تقدير إليك ، أكثر كمالاً .

تنطلق تطلعات الحياة ،
كفوج من الأطفال .

تتنهّد الزهرة الذابلة قائلة :
- لقد ولّى الربيعُ ومضى الى الأبد .

إن كنوزَ حديقة حياتي ،
قد اتلفت في الظلال والأضواء ،

التي لم تقتطف ولم تُحتجَن قط .

إن الثمرة التي فزت بها واستصفيتها لي دوماً ،
هي الثمرة نفسها التي رضيتَ بها أنت .

يعرف الياسمينُ أن الشمسَ ،
هي شقيقته في السماوات .

إن النورَ ، النورَ القديم ،
هو دوماً غضُّ فتىٍ ،
أما الظلال ، فهي وليدة اللحظة الحاضرة ،
ولكنها تولد ، هرمةً .

أشعر بأن قاربَ أغنياتي ،
سوف ينقلني ، عند انقضاء النهار ،
إلى الشاطئ الآخر ،

حيث استمرىء العيش .

إن الفراشة التي تهيم ، متنقلةً من زهرةٍ الى أخرى ،
تظلُّ ، في حوزتي ، دوماً ،
ولكنني أضيّع الفراشة التي تقتنصها شبكتي .

توافي أغنيئك ، كعصفورٍ خفيفٍ ، الى عشٍ راحتي ،
وتحلم أجنحتي المطويةً ،
برحلةٍ نحو النور ،
فوق الغيوم .

إذا التوى على فهمي ،
معنى الدور الذي أنهضُ به في لعبة الحياة ،
فذلك لأنني أجهل الدور ،
الذي يقوم به ويلعبه الآخرون .

إنني أهجر أغنياتي وأدعها خلفي ،
إمّا شرع نباتُ (زهر العسل) ينوّر ، في تفتحٍ متجدّد ،
وإمّا هلّت فرحةُ نسيم الجنوب .

* * *

تخسر الزهرةُ جميعَ أفوافها ،
لتظفرَ بالثمرة .

* * *

كالسما ، في ظلماتها وضيائها ،
يبحث الفكرُ عن كلماته دوماً ،
بين الأنعام والصمت .

* * *

ينفخ الظلامُ المتواري الخفي ، في نايه ،
ويتهزّم إيقاع النور ، عاصفاً ،
مبدداً نجوماً وشموساً ،
منتفضاً خواطرَ ورؤى .

* * *

لا أتغنى في أناشيدي ،

إلا بعبادتي لغنائك .

حين يلامس صوتُ الصامتِ ، كلامي ،

فإنني أتعرفُ عليه ، وهكذا أتعرف على نفسي ذاتها .

سينحو وداعي الأخير ،

إلى من يعرفون نقائصي ،

ويكنُّون لي المحبةَ ، في آنٍ .

يقول النجم :

- دعوني أشعلُ سراجي ،

دون أن يستوضحَ البتة ،

عما إذا كان نوره سيبدد الظلمةَ .

تُراني أستطيع ، قبل أن أختِم رحلتي ،
أن أستشرف ، في أعماق ذاتي ، ذاك الذي يتَّسَقُ في الكل ،
تاركاً الغلاف ، يطوف ،
منساقاً في التيار ،
غائباً في شتيت الأشكال ،
على سطح نهر المصادفة والتحول .

* * *

حين يوافي الموت ، ويفضي إليَّ بصوتٍ خفيضٍ :
- إن أيامك في الحياة قد شارفت نهايتها ،
تُراني أستطيع أن أجيب :
- إنني لم أعشُ فحسب ،
بل عشتُ في الحب ،
سيطلب إليَّ :
- تُرى أوتي لأغانيك أن تبقى ، وتعيش من بعدك ؟
سأجيب :
- أجهل ذلك ، ولكنني أعرف ،
أنني ظفرتُ ، أكثر الأحيان ،
بالخلود ، فيما كنت أغني .

* * *

الفهرس

5	المقدمة
29	جيتنجالى
87	جنى الثمار
141	البستاني
207	الهلال
245	دورة الربيع
321	شيترا
353	اليراعات

